

مركز الأبحاث والدراسات التربوية
Educational Studies and Research Center

التربية الإسلامية

بين الأسس الإيمانية والبناء العلمي

الشيخ
مصطفى قصير العاملي

التـربـيـة الإسـلامـيـة

بـيـن

الأسـس الإيـمـانـيـة والبـنـاء العلمي



978-9953-551-93-7

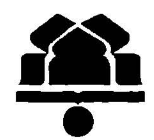
الكتاب: التربية الإسلامية بين الأسس الإيمانية والبناء العلمي

المؤلف: مقالات ومحاضرات للعلامة الشيخ مصطفى قصير العاملي

إصدار: مركز الأبحاث والدراسات التربوية، علم وخبر ١١٠٨/ ٢٠١٤م

عنوان المركز: لبنان ـ بيروت ـ الحدث ـ السانتريز ـ مبنى الأنطونية

هاتف: ٠٠٩٦١٥٤٧٢١٣٩ ـ ٠٠٩٦١٣١٠٧٠٥٨




دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ لبنان

هاتف: 5/ 334 544 9611+ ـ فاكس: 787 546 9611+ ـ ص.ب: 25/ 16 الغبيري

E-mail: dar_albalagha@hotmail.com

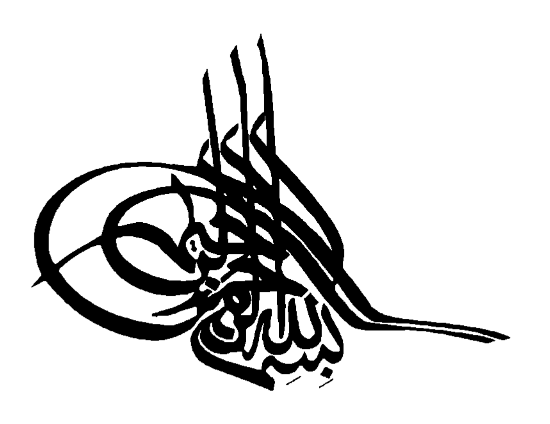
التربية الإسلامية
بين
الأسس الإيمانية والبناء العلمي

مقالات ومحاضرات للعلامة

الشيخ مصطفى قصير العاملي

إعداد





العالِمُ المُربّي..

إنَّ خسارتنا وألمنا بفقد هذا العالم المُجاهد المُقاوم العزيز، خسارةٌ وألمٌ كبيرين.. الإخوة العلماء والقادة والمسؤولون في حزب الله، في مختلف المسؤوليات والذين عرفوا سماحة الشيخ عن قرب، كلهم يشاركونني هذا الإحساس..

كل ما قاله الإخوة قبلي بحق سماحة العلامة الشيخ مصطفى قصير، الأخ الحبيب والعزيز، هو طبعاً دون حقه، وما سأقوله أنا كذلك أو ما يُمكن أن أقوله، فهو فوق ما قيل وأقول، وهذه هي الحقيقة..

اليوم، سأتحدث عن سماحة الشيخ الفقيد الغالي من زاوية مُعينة ومُحددة.. وهي أن نقدم سماحة الشيخ مصطفى قصير كأسوة ونموذج وقدوة، ونحن نحتاج إلى هذا النموذج الذي عايشناه عن قرب وشهدنا سيرته وحياته وسلوكه، ونشهد له بذلك بعد رحيله وبعد وفاته.. نقدمه نموذجاً لنا، أنا أقدّمه نموذجاً وأسوة لي، وأدعو كل أخ من إخواني أن يتّخذه مثالاً وقدوة.

نحن هنا لا نتحدث عن العناوين، عن الأسماء، عن الصفات، بل عن الشخص المُجسّد لهذه العناوين والصفات والأسماء، لقد كان قدوة لنا كعالم طلب العلم طويلاً وحتى آخر لحظات حياته.. كان باحثاً ومُحققاً ودارساً وكان أيضاً مُعلماً، يدرس ويُعلّم ويُحقّق، يكتب وينشر العلم..

لقد كان ممّن طلب العلم لله، وعلّم لله (عز وجل)، إننا ننظر إليه كعامل مُجاهد لم يعتزل حياة الناس، لم يذهب بعيداً، فقد جاء إلى متن هذه المسيرة منذ البدايات.. في الحوزة العلمية كان طالباً وعاملاً، وعندما جاء إلى لبنان كان عالماً

وطالباً للعلم وعاملاً ومجاهداً ومقاوماً.. ومن عمل لله وتعلّم لله وعلّم لله، نُودي في ملكوت السماء عظيماً، كما يُنقل عن السيد المسيح عليه السلام..

نحن أمام العامِل المُجد، الدؤوب، صاحب الهمّة العالية، الذي لا يعرفُ الكَلل ولا يُقعده تعب ولا مرض..

في الأشهر الأخيرة من مرضه حينما كنت أذهب إلى بعض اللقاءات الداخلية كنت أفاجىء بحضوره، وعندما كنت أتابع بعض المناسبات والاحتفالات في وسائل الإعلام أجده حاضرا، فهو إما خطيب أو مشارك وبقي كذلك إلى اللحظات الأخيرة طالما جسده يعينه على ذلك.. وكنت أستغرب هذه الهمة العالية..

وهذا ما نحتاجه نحن الذين نتعب وتُحيط بنا أحياناً الهموم والمشكلات والتحديات.. نحن بحاجة إلى القدوة بالعزم والإرادة، في الهمة العالية، والجدية، والفعالية..

أحيانا كُنت أقول له: شيخنا أنت تُتعب نفسك، الآن اهتمّ بصحتك وبعافيتك.. لكنه كان يعتبر أن كلّ لحظة من عمره يجبُ أن تُبذل في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وفي خدمة دين الله وعباده..

هو الصادق المُخلص، وكُلنا نعرف صدقه وإخلاصه، ونحتاج إلى هذا الإخلاص والصدق في العمل.. هو الزاهد في الدنيا، المُعرض عن زخارفها وزبارجها وعناوينها، العامل فيها لآخرته، عيناه كانتا دائماً تتطلعان إلى ذلك العالم، الذي يُمهد، ويُحضّر له..

الشيخ مصطفى من الإخوة الذين كانوا يعملون بدون توقعات شخصية ومن دون طلب امتيازات شخصية، ولم يعتبر في لحظة من اللحظات أن له حقاً في رقبة حزب الله أو المقاومة أو المسيرة أو الإسلام أو الدين. لم يمارس فعل المنّ أو التفضل على هذه المسيرة أو على رفاقه أو على إخوانه أو على الذين يعملون معه..

هذا هو الشيخ مصطفى، الإنسان الودود، اللطيف، الحنون، المُحب، الخلوق، والبشوش..

وأيّ جماعة، أيّ مسيرة، أيّ شعب، وخصوصاً عندما نتحدث عن جماعة تُواجه تحديات وتُقدم تضحيات وتتحمل أعباءً في علاقاتها الداخلية، تحتاج إلى

هذا الحنان، إلى هذا الحب والود، وإلى هذه الأخلاق الطيبة والحميدة، لأنها من عناصر القوة والاستمرار..

سماحة الشيخ مصطفى هو الهادئ الذي لا ينفعل إلا نادراً وبالحق، والمُتزن، وهو المُعلم والمُربي، في المدرسة، وفي المؤسسة، وفي المسجد، وهو إمام صلاة الصُّبح جماعةً في مساجدنا.. إنه العالم المسجدي..

كان الإنسان العابد، وصاحب الرأي والفكرة، يُبدع، ويُخطط، يُفكر، ويُناقش ويُحاور.. وكان أيضا الإنسان المُطيع في هذه المسيرة، الذي لا يقف عند أي اعتبارات مهما كانت..

في نهاية المطاف.. فإن من أهم ميزات العاملين في مسيرتنا، التي حافظت على وحدتها وتماسكها، وصلابتها، وثباتها، وقوتها، هو وجود هذه العناوين والصفات ولذا نحن بحاجة إلى هذه القدوة والأسوة، وأن نُقدمه لإخواننا وأخواتنا ولأجيالنا أيضاً، كما نُقدم قادتنا الآخرين الذين استشهدوا أو الذين توفوا بما لهم من ميزات خاصة وجليلة كالشهيد الغالي سيد شهداء المقاومة السيّد عباس(رضوان الله عليه)، الشهيد الشيخ راغب، شيخ شهداء المقاومة، الشهيد القائد الحاج عماد مغنية، وشهداء قادة كثيرون..

بقي عليّ أن ألفت إلى أن سماحة الشيخ مصطفى قصير منذ البداية اختار العمل في المجال التربوي والتبليغي والتعبوي.. وكانت هذه خياراته، في الحوزة العلمية، فلم يكتفِ بأن يتعلّم ويُعلّم، بل كان يُربّي، يهتم بشُؤون الطلاب، وتربيتهم لصنع الإنسان والكادر..

وعندما عاد إلى لبنان كانت هذه أولويته، مع أن آفاق العمل كانت مفتوحة أمامه في كل المجالات، لكنه كان صاحب قناعة، ورؤية صحيحة بالطبع، لذلك اهتم بالمؤسسة الإسلامية للتربية والتعليم، فأعطى العناية للمدارس، والمناهج الثقافية والتربوية، وبكل الجوانب العلمية، كماً وكيفاً وإدارة ومواكبة..

وقد أعطى لهذه المؤسسة، شبابه وعُمره ووقته وجُهده وليله ونهاره، إيماناً بموقعها وتأثيرها وبأهميتها في هذه المسيرة الإسلامية الجهادية المُباركة، وكان بالفعل خير مسؤول وخير مدير وخير مُربٍّ.. وفي ظل رعايته وجهوده كبرت وتوسّعت وترسّخت، إلى أن أصبحنا أمام مُؤسسة حقيقية بكل ما لكلمة مؤسسة

من معنى، خصوصا في المجال التربوي والثقافي، وكان الأمين على هذه المؤسسة طوال كل هذه السنين..

وفي الجانب الدّعوي، كان أيضا حاملاً لثقافة المقاومة وفكرها وخطابها ولروحها.. وكان مستعداً دائماً لأن يكون جندياً مُقاتلاً في الصفوف الأمامية في هذه المقاومة..

وبهذا المعنى، هو عنوان من عناوين الجانب الحقيقي والجوهري في مسيرتنا.

إنَّ ثمار وإنجازات سماحة الشيخ مصطفى والإخوة الآخرين، تتجمع كماً ونوعاً لتقدم للبنان وللأمة إنجازات وانتصارات كبيرة..

ولذا نجد أنفسنا اليوم أمام مقاومة مستمرة منذ عقود وتتقدم وتتعاظم حضوراً وفعلا من خلال هذا الحضور الشعبي والثقافي والعقائدي والإيماني والمؤسساتي والعلمائي، وهذه الجهود الكبيرة تُبذل لأنها مقاومة تستند إلى قاعدة شعبية كبيرة وعريضة وراسخة.. فهي ليست حالة حماسية طارئة أو حالة انفعالية مؤقتة، وإنما هي تنتسب وتنتمي إلى جذور راسخة في هذه الأرض وفي هذا الشعب وفي هذه الأمة وفي تاريخها وعقيدتها وثقافتها وفي روحها ومبانيها وتطلعاتها..

وسماحة الشيخ مصطفى كان واحداً من هؤلاء الكبار، الذين ساهموا في صُنع وتطور هذه المسيرة، وسيبقى فعله وستبقى كلماته وكُتبه وآثاره وتضحياته مساهمة ما دام الليل والنهار إلى يوم القيامة..

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتغمّده برحمته الواسعة، وأن يحشره مع الأنبياء والأولياء والرّسل والصديقين والصالحين والشهداء.. وهو العبد الصالح المُطيع لله ولرسوله، والمُضحي والمجاهد في سبيل الله، الذي لم ينثني ولم يضعف ولم يتردّد حتى في أيام الشدة وأيام الصعوبات وأيام الفتن التي كانت وما زالت تحتاج إلى أصحاب البصائر..

مقتطف من كلمة لسماحة الأمين العام لحزب الله
السيد حسن نصر الله(دام حفظه)
في حفل تأبين الفقيد الراحل
سماحة الشيخ مصطفى قصير العاملي رحمه الله

مقدمة المركز

منذ نعومة أظفاره، تلمَّس الشيخ مصطفى قصير ـ الإبن البكر للعلامة الشيخ أحمد قصير ـ طريق طلب العلم والجديةّ في الحياة، كما تحمّل المسؤولية باكراً في ريعان الشباب في النجف الأشرف، حيث كان مُتفوقاً في مدرسة منتدى النشر التي درس فيها وتخرّج منها في المرحلة الثانوية.

وهكذا سلك وأكمل طريق طلب العلوم الدينية في النجف الأشرف، ثم في قُم المقدسة، التي قضى فيها أكثر من عشر سنوات حتى نال درجة الفضلاء في الحوزة، وقد استلم لعدة سنوات إدارة منتدى جبل عامل، كما عمل باحثاً وكاتباً ومؤلفاً في مركز الدراسات الإسلامية في مدينة قُم، وأنتج العشرات من المؤلفات والأبحاث العلمية في مواضيع مُتعددة..

اشتهر بشخصيته الفريدة والنموذجية كمربِّي وموجه للطلبة والباحثين. وبعد عودته إلى لبنان واستلامه مسؤولية الإدارة العامة للمؤسسة الإسلامية للتربية والتعليم ومواكبته لتوسعها وتطورها على مدى ستة عشر سنة، كان همه الشاغل الوصول الى إعداد مناهج إسلامية أصيلة تتناسب مع أهداف المؤسسة ورؤيتها التربوية.

لذا كنّا نسمعه في السنوات الأولى لعمله في هذه المؤسسة يتحدث عن ضرورة وجود مركز للدراسات والأبحاث التربوية، يُعنى بتأصيل العملية التربوية ويعمل على رسم مناهجها وفقَ المباني والأصول التربوية الإسلامية..

كما كانت قناعته تَشي بوجود تحدّيين رئيسيين في عمل المدارس الإسلامية في لبنان:

ـ الأول يكمنُ في تأصيل المناهج التربوية وفق المباني والأصول الإسلامية.

ـ الثاني يتجسّد في تأهيل وإعداد المعلمين المُربين والمُدركين لمسؤوليتهم التربوية تجاه الأجيال المُتعلمة، الى جانب عملهم التعليمي العلمي..

وهكذا شكّل إنشاءُ مركز الأبحاث والدراسات التربوية بالنسبة له، الحُلم الذي سعى لتحقيقه في حياته، وهو ما وصل إليه في سنوات عمره الأخيرة، عندما ترك أعباء الإدارة في المؤسسة، ليتفرغ لتأسيس هذا المركز ووضع اللّمسات الأولى له، بالتعاون مع الأخ الدكتور يوسف أبو خليل المُتخصص في فلسفة التربية الإسلامية، والذي كان نِعم المُعاون والمساعد لسماحته في إرساء الانطلاقة الأولى لهذا المركز..

لكن شاءت الأقدار الإلهية أن يُصاب الشيخ مصطفى بانتكاسة صحيَة في فترة التأسيس، ممّا أثّر سلبا على انطلاق عمل المركز..

وها هو مركز الأبحاث والدراسات التربوية اليوم، و بعد عام على رحيل سماحة العالم المُربي والمؤسس الشيخ مصطفى قصير، يسير على خطى ثابتة لاستكمال هذا الحُلم الذي حقَقه المرحوم قبل أن يُغادرنا ونفتقده..

والعاملون في المركز، الأوفياء لتراث الشيخ مصطفى ونهجه وتوجيهاته، عازمون على إكمال المشوار بإخلاص وصبر، لتأصيل العملية التربوية التي تبدأ من وضع المباني والأصول التربوية اعتماداً على الفكر الإسلامي الأصيل المرتكز على المراجع المُعتبرة، وتمهيداً لفتح الطريق أمام إعداد المناهج التربوية الأصيلة، ورسم المسارات اللازمة لإعداد وتأهيل المُربين والمعلمين الذين يحملون الأمانة ويربُون الأجيال التي ستبني المستقبل الزاهر لأمتنا ووطننا الحبيب لبنان..

أما الكتاب الذي بين أيدينا، فهو مجموعة من المقالات والمحاضرات كتبها وألقاها العلّامة الراحل على مدى سنوات عمله في المؤسسة الإسلامية للتربية والتعليم، وقد تناول فيها مختلف القضايا والمسائل التربوية التي تتوزع بين

المناهج التربوية ودور المدرسة والمعلم في العملية التربوية، بالإضافة إلى معالجة بعض الظواهر الاجتماعية التي لها علاقة بالشأن التربوي.. إلخ..

وقد قام المركز بجمعها وإصدارها في هذا الكتاب، بمناسبة الذكرى السنوية لرحيله، ليضعها بين أيدي العاملين في المجال التربوي وهي تضم مجموعة من الرّؤى التربوية استقاها الشيخ المرحوم من فكره الوقاد المُنطلق من خلفياته الدينية والمعرفية، ومن تجربته العملية الرائدة في التصدي المُباشر للشأن التربوي والتعليمي، على مدى ستة عشر عاماً من التوجيه وإدارة المؤسسة الإسلامية للتربية والتعليم.. وقد جُمعت وبُوِّبت وصُنّفت تحت عنوان استُمدَّ من مضمونها وهو «التربية الإسلامية بين الأسس الإيمانية والبناء العلمي».

وفي الختام، لابد من توجيه الشكر والتقدير لكل الذين ساعدوا في جمع وإعداد وتصنيف وإخراج هذا الكتاب لاسيما:

- إدارة المؤسسة الإسلامية للتربية والتعليم/ الدكتور حسين يوسف.
- فضيلة الشيخ ياسر فلحة الذي عمل على تصنيف المادة ومراجعتها.
- الأخ الأستاذ محمد دكير الذي قام بتنظيم المادة وإخراجها.

وكلنا أمل في أن نكون قد ساهمنا في حفظ التراث التربوي للعلامة الراحل الشيخ مصطفى قصير، اعترافاً و وفاءً لجهوده وأعماله في هذا المجال.. سائلين المولى قبول الأعمال..

مدير عام مركز الأبحاث والدراسات التربوية

عبد الله قصير

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمّد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

وحدّثتني يا سعدُ عنهم فزدتني   شجوناً فزدني من حديثك يا سعد

بالمناقب تمتاز الرجال وتنفرد عن الأشباه والأمثال. وفي فطرة الله حب الفضائل ومقت الرذائل، فتتشاكل الناس بين معتصم بالوسط وزائغ عند الطرفين كلٌّ وما شابه، فما تماثل اِئتلف، وما تناكر اختلف.

وأنّى لنا التماثل وأهلَ الفضل، إن هو إلّا اقتباس من سراج، أو ارتشاف من عباب، وهذا حالي معه...

لازمته عشرًا أغاديه وأراوحه، فاستبنت من مكنونه ونظرت في مخزونه، فإذا هو قليل المؤنة، كثير المعونة، ما شكا من قليل وما فرح بكثير، ما كشف سرًّا، وما هتك سترًا، طلب من الفضائل أعلاها، ومن المكارم أغلاها، فكان الحكيم في رأيه والعفيف في طلبه، والشجاع في فعله، والعدل في قوله.

وهبه الله، فزيّن المواهب بالمكاسب، فكان العالم العامل، والأخلاقيّ المهذّب، وهو على ذا وذا ما ترك قول «لا أدري» وما استنكف من سؤال.

ربما يحتاج المرء للتنويع والتفريع في تناول سيرته وبيان مزاياه، وهو الذي نذر لله نفسه من لدُ أن كان فتًى، فتميّز بحقّ فما زاده ذلك إلّا تواضعًا، إلّا أنّ المقام ليس مقام شمول وعموم، فماذا نلتمس؟ وأيّ طرف نتناول؟ وهو الذي

ولج باب الكلام والفقه والأخلاق والتفسير، وعالج مفاهيم متنوّعة بوضوح بيان وجليّ برهان.

إنّ المتتبّع لآثار الشيخ مصطفى قصير (رضوان الله عليه) يرى فيه المصنّف الذي أغنى الشباب بجملة تصانيف تجيب عن صريح الأسئلة ومقدّرها، فكتب في القضاء والقدر، والبداء والنسخ، والإمامة والولاية، والتفسير وعلوم القرآن والتربية... وكان مع ذلك كلّه الأستاذَ في الحوزة العلميّة وقد عُرف عنه التحصيل والدقّة والالتزام وهذا ما جعله نموذجًا يحتذى، ومثالًا يطلب.

أمّا البُعد الذي نقصده ـ في طيّات هذا الكتاب ـ من هذه الشخصية، فهو البُعد التربويّ وهو الشيخ المربّي الذي خاض غمار التربية والتزكية علمًا وعملًا وقولًا وفعلًا، وسيرته في النجف وبغداد ودير قانون النهر وبيروت وشقراء وقُم وبيروت تشهد، وليت اليوم الذي تُذكر فيه بعض ما انطوت عليه سيرته من أحداث ومواقف يكون قريبًا لما في ذلك من فوائد مأمولة وعِبَر مرجوّة وذلك وِفاقًا للسنّة الإلهيّة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١].

إنّ الداعي لهذا الكتاب هو إيفاء بعضٍ من حقّ هذا الرجل علينا وبيان شيء ممّا امتاز به وهو الذي جسّد القدوة في الأبعاد المختلفة: ابنًا وزوجًا وأبًا وأخًا وعالمًا وموجّهًا دون تفكيك في هذه القدوة، وهل يكون المرء قدوة في حال دون حال؟

لقد امتاز بمناقبَ وخصالٍ كانت داعية للانجذاب إليه، والتقرّب منه، ولنا أن نوجزها في أصناف ثلاثة من القيم:

أوّلها قيم السلوك الشخصيّ:

فعلى مستوى القيم الشخصيّة، فإنّك ترى فيه الإنسان المخلص المجتهد المواظب المنظّم المتقن لعمله وقد بذل له جهده ووسعه ولم يلتفت عنه إلّا إليه، وليس هذا بغريب عمّن تربّى بين حوزات النجف الأشرف وقم المقدّسة وهذا ديدن أصحاب العلم والعمل والفضل.

كان بحقٍّ سابقًا للفجر مسبوقًا بليل، لم أر منه مللًا ولا كللًا، صباحه في مكان ومساؤه في آخر، فلو وصل ليلًا من سفر حجّه، كان نهارًا في عمله، جاعلًا مكتبه محرابه، والعبادة صنوف.

ولا غرو في ذلك مع علوّ همّته وشديد مثابرته فهو أوّل الواردين وآخر الصادرين ولسان حالي أبثّه له: «لقد أقمت الحجّة علينا يا شيخ».

ثانيها ارتباطه بالله تعالى:

إنّ علاقته بالله تعالى لهي علاقة الإنسان الذي لم يخش إلّا الله، فلم تأخذه فيه لومة لائم، دون أيّ حساب لغير الله تعالى، فالمناط عنده رضا الله تعالى، رَضِيَ من رَضِيَ وسخط من سخط. وصلاة غداته في محرابه ليست بدايةَ يومه، وقد تجافى جنبه عن مضجعه قائمًا في مصلّاه.

في ارتباطه بالله ترى الزاهد في سواه، يعمل دون توقّعات شخصيّة فما ينبغي أن يُعمل، يُعمل بغض النظر عن النتائج، وفرق بين سبب العمل ونتيجته وهذا ما كان يردّده.

ثالثها علاقته مع الناس:

نفعه للناس منتشر عميم، لم يكن ليترك صاحب حاجة، وهذا ما عرفناه فيه، كما عرفنا فيه المواسي لهم، والحريص على حقوقهم وأموالهم، فلا يضع الشيء إلّا في موضعه، وهذا ما بان في سيرته وسلوكه سواء أكان في عمله أو في ما عداه من حياته العامة.

لقد كان من الموطّئين أكنافاً الذين يَألفُون ويُؤلَفون فهو مع الناس في اختلاف شؤونهم، ومن النادر أن لا يشاركهم أفراحهم والأحزان، كما كان على تأهب دائم، واستنفار. لا تغادر البشاشة وجهه والبسمة ثغره، يأخذك هدوؤه والاتّزان في مسحة لطيفة وبسمة جاذبة.

إنّ من دواعي هذا الكتاب نَشْرُ بعض آثار هذه الشخصيّة لتكون مدعاة للتأسّي بها والاستفادة من سلوكها العلميّ والعمليّ في ميادين صقل النفوس

وتزكيتها وإماطة ما اكتنفها من شوائب تعترض سبل سالكي مسلك التربية والتعليم.

لقد استطاع الشيخ مصطفى قصير (رضوان الله عليه) أن يُثَمّر مكتسباته العلميّة والثقافيّة وخبرته العمليّة في ميدان التربية، وذلك في تجربة أحوج ما نكون إليها في عمليّة تأصيلٍ تربويٍّ وفق المنظور الإسلاميّ، وهذا ما سعى جاهدًا لتحقيقه، فالتربية المعهودة وإن كانت فعلًا تراكميًّا إنسانيًّا متنوّعًا، إلّا أنّها حصيلة لنظريّات ورؤًى وفدت إلينا، قد توافقت في بعضها مع دفائن مخزون إرثنا الإسلاميّ الأصيل الذي ما انفكّ يستصرخ كلّ بحّاثة ومربٍّ لكشف مستوره وبيان مجهوله، كما تنافر بعضها مع ما ائتلف والفطرة الإلهيّة التي فطر الناس عليها، فالإنسان مالك أم مملوك، أَلَهُ التصرّف كيفما يشاء؟ أم أن تصرّفه وإن كان في نفسه تصرّفٌ في غير مُلْك؟

إنّ عمليّة التربية أمرٌ لا ينفكّ عن الرؤية الكونيّة للإنسان وعليه كان لا بدّ من البحث عن تربية تتناسب والإسلام المحمّديّ الأصيل تؤسّس لمجتمع ممهّد لبقيّة الله الأعظم صلوات الله عليه، وهذا ما شغل باله، وطالما حدّثني عنه.

لقد انطلقت التربية، بل التربيات المتداولة من فلسفات ومدارس شتّى تماوجت فيها المثاليّة بالواقعيّة والوجوديّة بالطبيعيّة، والإنسان ميدانها وحقل تجربتها والنتيجة مصنوع لا يكون لله في أحايين كثيرة، فأين البنيان التربويّ الإسلاميّ الوَضْح الذي تُؤسّس عليه جهودنا التربويّة حيث تستند على الرؤية الفلسفيّة الإسلاميّة في مبانٍ لا لبس فيها ولا ريب؟

لقد انطلق سماحة الشيخ مصطفى من سموّ الغاية: إنّنا نريد إنسانًا عابدًا عارفًا، نريد إنسانًا يُصنع على عين الله، نريد بناء إنسان مؤمن رساليّ متعلّم مجاهد. وسموّ الغاية لا بدّ أن يتلازم وحُسن الأسلوب وواضح الوسيلة.

هذا ما شهدناه في ريادته للشجرة المباركة والنبتة الطيبة التي رعاها وأنبتها

حتّى استطالت واستحكمت وآتت أكلها، هذا هو واقعه في المؤسّسةَ الإسلاميّةَ للتربية والتعليم التي أنبتها بجهد قلّ نظيره ووقف ذاته عليها.

ولم يكتف بالتجربة التربويّة العمليّة فإذا به ينطلق في تأصيل هذه التجربة، فتلتقي هذه الانطلاقة بجهد تربويّ أصيل مبارك تحت نظر القائد الخامنئيّ حفظه الله وهو الذي كان يعلن ويصدح إنّ ما نقوم به من تربية ليست لنا، فلنصنع نموذجنا، فتلقّف سماحة الشيخ هذه الدعوة، معتبرًا أنّه آن للعمل التربويّ الميدانيّ أن يتوقّف لينطلق في عمل بنائيّ نظريّ سعى لأجله في تأسيس مركز الأبحاث والدراسات التربويّة ليرفد هذا العمل التربويّ بالمبادئ والأسس والأبحاث والدراسات الأصيلة في ميدانَي النظر والعمل.

لقد نظر الشيخ (رضوان الله عليه) في القضايا التربويّة فكتب في المنهج التربويّ والأخلاقيّ في الإسلام، وتناول الفرد والمدرسة، فها هو مع المعلّم في عمليّة بنائه بناءً يكون فيه المربي والرساليّ لا الموظف المنتظر لراتبه آخر الشهر وهو الذي لم يرتض له مالًا بدلًا لرسالته والكلام في ذلك يطول، ومع التفاته للمتعلّم والمعلّم لم ينس وليّ الأمر والشراكة بينه وبين المدرسة في صنع الإنسان فكانت الجهود المتنوّعة التي أوصى بها تجاهه وهذا ما شارك فيه شخصيًّا تثقيفًا وكتابة وبحثًا.

وكما القضايا التربويّة كان للمجتمع نصيبه من بركاته فلاحظ جدليّة العلاقة بين المجتمع والتربية، ودرس بعض الظواهر الاجتماعيّة ومخاطرها، وتطرق إلى ثقافة الاستهلاك وحذّر من المجتمع المستهلك الذي يشتري ما لا يحتاج فيبيع ما يحتاجه.

لم ينس المرأة ودورها مقدّمًا لها الأسوة الحسنة فها هي فاطم (سلام الله عليها) تكتنف بيت علي عليه السلام في أرقى تجربة تربويّة لامرأة، وها هي زينب (سلام الله عليها) تقرّع يزيد في أسمى مثال شهدته الإنسانيّة للمرأة المجاهدة الصابرة.

إنّ هذا الكتاب هو جزء من حصيلة عُمُر تربويّة لسماحة الشيخ الراحل جمع فيها الإخوة في المؤسّسة الإسلاميّة للتربية والتعليم ومركز الأبحاث والدراسات التربويّة بعض آثاره في هذا الميدان وقد اشتمل على بابين: تناول الباب الأوّل القضايا التربويّة التي عالجها من منهج تربويّ ومدرسة إسلاميّة، وإدارة وتخطيط، وإعداد للعاملين، كما تناول في هذا الباب المعلّم ووليّ الأمر وبعض المشكلات في طريق التربية. أمّا الباب الثاني فقد اشتمل على قضايا اجتماعيّة ـ تربويّة وقارب بعض الظواهر الاجتماعيّة مقدّمًا العلاج الإيجابيّ لبعض المفاسد الاجتماعيّة، وفي هذا الباب بعض ما كتب حول المرأة ومسؤوليّتها التربويّة، والاختلاط وعواقبه، والثقافة ودورها في بناء المجتمع.

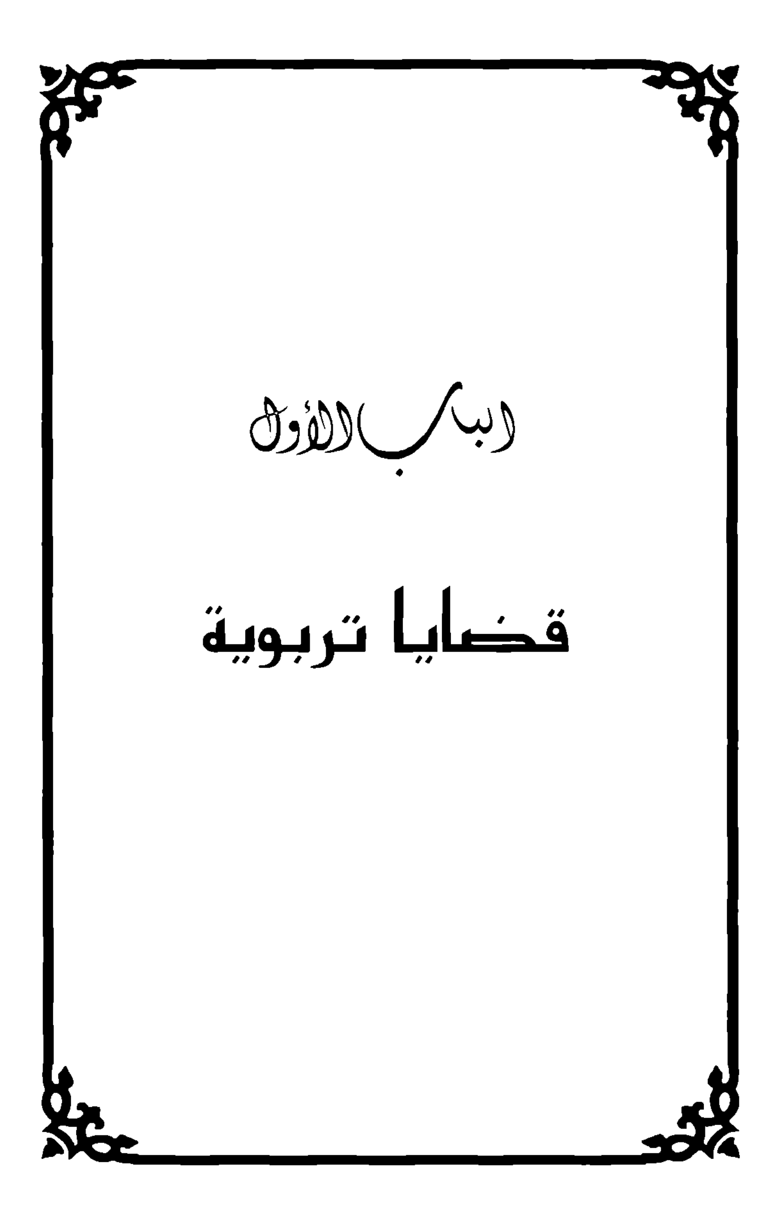
هذا غيضٌ من فيضه وقليلٌ من كثيره، وهو حاجة للعاملين في صناعة الإنسان ليكون إنسانًا مصنوعًا على عين الله.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا السِّفْر صدقة جارية له، وأن يتغمّده في واسع رحمته، إنّه سميع مجيب.

مدير الثقافة والتربية الدينيّة

في المؤسّسة الإسلاميّة للتربية والتعليم

ياسر فلحه



الباب الأول

قضايا تربوية

المنهج
التربوي الإسلامي

أسس المنهج التربوي والأخلاقي في الإسلام

المنهج التربوي مهما كانت جذوره قائمة على أسسٍ علميّة أو نفسيّة، فإنّه يفتقد القدرة على المقاومة في الحالات المتأزّمة وأمام الميول والدوافع الغرائزيّة، ولا يمكنه إلجاء الإنسان إلى القيام بمسؤوليّاته في جميع الأحوال ومنعه من ممارسة الأعمال اللاأخلاقيّة واللاإنسانية، ما لم يتّكئ ذلك المنهج على الإيمان والتقوى والإلتزام بالأوامر الشرعيّة. من هنا فإنّ الأنظمة الوضعيّة مهما بلغت من الدقة والمتانة فهي تفتقر إلى العنصر الأساس الفاعل والمؤثّر.

أمّا الدين الإسلامي الحنيف فقد نظّم برنامجه التربوي والأخلاقي على أساس فطرة الإنسان الإيمانيّة، فاستفاد تماماً من قوة الضمير الأخلاقي والإلهام التكويني الإلهي الفطري.

وبإجراء مطالعة متأنّية للتوجّهات العلميّة والسلوكيّة التي تتبنّاها الشريعة الإسلاميّة تحت عنوان الأحكام أو الإرشادات الأخلاقيّة، يمكننا أن نتلمّس خطوات ثلاثة اعتمدها الإسلام في منهجه التربوي.

الخطوة الأولى: تنمية الحسّ الديني والإرتباط بالله تعالى، ويتجلّى ذلك بالخطوات العمليّة التي فرض اتباعها، ومن خلال نظام العبادات اليوميّة أو الأسبوعيّة أو الموسميّة، التي من شأنها أن تعمّق حالة الإرتباط بالله وتعاليمه الدينية، وبعبارة أخرى: تقوّي وتعمّق الحالة الإيمانيّة. ذلك أنّ

الإيمان بالله هو حجر الأساس الذي يقوم عليه صرح النظام الإسلامي في شتى جوانبه ومجالاته، ومن دونه لا يُمكن إقامته.

الخطوة الثانية: السعي لتقوية الضمير الأخلاقي وملكات الفضيلة بأساليب متعدّدة، وهنا أيضاً نجد أن نظاماً دقيقاً قد رسمته الشريعة الإسلاميّة بُغية الوصول إلى مستوىً عالٍ من الإلتزام بالقيم الأخلاقيّة وعشقها وجعلها جزءاً من شخصيّة الإنسان.

الخطوة الثالثة: تعديل الرغبات والميول الطبيعية، وإخضاعها لنظام دقيق يعمل على إشباعها في الحدود التي تحقّق الغايات المطلوبة منها، وتحول دون الوقوع في الإنحراف، فتحدّ من سيطرتها، وتقف دون تجاوزها لحدودها التي تقتضيها حكمة الخلق. فوقع الحثّ على الزواج المبكر مع تفتح براعم القدرات الجنسيّة، ونهى عن الرهبانيّة والعزوف عن الحياة الزوجيّة، ووضع منهجاً للذين لا يجدون نكاحاً ولا يتوفّر لهم ما يشبعون به رغباتهم بالأسلوب الطبيعي يعتمد على الرياضات والعبادات التي تقوّي الإرادة كالصوم مثلاً.

هذه الخطوات الثلاثة يعتمدها الإسلام في وقت مبكّر، ومنذ اللحظة الأولى التي يرى الوليد فيها النور، وربّما كان هناك اهتمام تمهيدي في فترة ما قبل الولادة تنطلق من ظروف انعقاد النطفة وترافقه في مراحل تخلّقه جنيناً في بطن أمّه.

ولعلَّ ما يمتاز به المنهج الإسلامي هو اعتماد الوقاية والعلاج معاً، فالتربية الوقائية لها الدور الأهم من التربية العلاجيّة، ولو تتبّعنا السُّنن التي وضعها الإسلام في تربية الطفل، نجد أنّ الغالب عليها طابع التربية الوقائيّة، وخطة وقاية الأطفال من الأمراض الأخلاقية تكمن في توجيه

غرائزهم منذ البداية توجيهاً سليماً ووضعها في المسار الصحيح، وهناك عدد كبير من الغرائز لو تركت تنمو بالطريقة غير السليمة لأوصلت الإنسان إلى كارثة.

فغريزة حب الذات التي تلعب دوراً في تكوين شخصية الطفل، وغريزة حب التملك والاستحواذ والدافع العدواني تجاه الآخرين، وغير ذلك، كلها تحتاج إلى تعديل وتوجيه إلى المسار الصحيح لكي لا تتجاوز الحدود الطبيعية لها.

والدور التربوي اللازم هنا ينبغي أن يُحقق هذه الغاية، دون إفراط ولا تفريط، فإنّ تجاوز الحدّ في قتل غريزة حب الذات مثلاً يوقع الطفل في عقدة الشعور بالحقارة وضعف الشخصيّة والجُبن، وتركها دون تعديل ودون أيّ قيد ينمّي عنده حالة من الأنانيّة والعجب وفساد الأخلاق، ومثله في باقي الغرائز.

وتبرز التربية الوقائية في المنهج الإسلامي بشكل واضح في مسألة التربية الجنسيّة للأطفال، فنحن اليوم نسمع أصواتاً تدعو لفتح ملف التربية الجنسيّة في المناهج الدراسية المبكرة، ولعلّ هؤلاء انطلقوا في ندائهم من واقع فاسد ساد المجتمع والمدرسة، فهم يريدون معالجته تعليميّاً وانطلاقاً من ملاحظة الجانب الصحي فحسب، دون أن يحسبوا عواقب المفاسد الاجتماعيّة والروحيّة المترتّبة على ذلك. أمّا في نظر الإسلام، فهو هنا يَتّبعُ منهجاً خاصاً يعتمد أسلوب الوقاية، وينظر إلى المسألة من جذورها ومن جميع جوانبها وآثارها.

فيبدأ من البيت، وفي وقت مُبكر، عندما يبدأ الطفل بإدراك تصرفات الأهل، فيمنع الأبوين من ممارسة الوضع الجنسي بمرأى أو مسمع الطفل،

لئلا يوقظ في داخله هذه الغريزة التي تعيش حالة السُّبات، ويفرض عادة التفريق بين الأطفال في المضاجع إذا بلغوا من العمر عشر سنين، والأمر بالاستئذان قبل الدخول على الأهل في ساعات الراحة والخُلوة، وأمثال هذه السنن التي تحافظ على سكون الغريزة الجنسيّة في هذه المرحلة وتحول دون إيقاظها.

ثم في مرحلة اليقظة الطبيعية يحثّ على الزواج المُبكر، وبالأسلوب الطبيعي، نعم ربّما كانت العادات والتقاليد التي نعيشها تعقّد الأمور وتجعل التنفيذ عسيراً، فهذا ليس ناشئاً من نقص في التشريع.

وعلى صعيد تنمية الحس الديني والإرتباط بالله، ورد الحثّ على تعويد الطفل على العبادات في وقت مبكر:

«مروا صبيانكم بالصلاة إذا بلغوا سبعاً» [وسائل الشيعة ٣/ ١٢].

ولعل استحباب الأذان في أذن الوليد اليمنى والإقامة في الأذن اليسرى له أثره في زرع الحس الديني حيث يكون أول ما يسمع هو فصول الأذان والإقامة، فتحصل حالة من الأنس بها بعد ذلك، وهذا عمل تربوي عظيم.

وفي وصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام:

«وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يفسد قلبك ويشتغل لبك» [وسائل الشيعة ١٥/ ١٩٧].

ويؤكّد أيضاً على الجانب العلمي، ويأمر بالتحصين والوقاية من شبهات المنحرفين:

فعن الصادق عليه السلام: «بادروا أحداثكم بالحديث قبل أن تسبقكم إليهم المُرجئة».

وعن علي عليه السلام: «علّموا صبيانكم من علمنا ما ينفعهم الله به لا تغلب عليهم المرجئة برأيها».

وعلى صعيد تقوية الضمير الأخلاقي فللإسلام اهتمام خاص بالسلوك، وله منهجه الواضح في هذا المجال، ولقد ورد عن أئمة أهل بيت النبوة والعصمة ما لا يُحصى من التوجيهات والتعاليم التي تحدد معالم المنهج السلوكي والأخلاقي.

وقد عمل الإسلام هنا على خطين: خط الإصلاح الذاتي والرقابة الذاتية، وخط الإصلاح الاجتماعي والرقابة من خارج الذات، وقد أطلق على الأول إسم (جهاد النفس والجهاد الأكبر)، يقول الإمام علي عليه السلام:

«غالبوا أنفسكم على ترك العادات وجاهدوا أهواءكم تملكوها» (غرر الحكم).

وأطلق على الثاني (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، الذي هو عنوان يُعبر عن التكافل الاجتماعي في المسألة التربوية والأخلاقية.

وبين هذين الخطين حالة عجيبة من الانسجام والتكافل والترابط، فلا يُغني أحدهما عن الآخر ولا يقوم مقامه.

■ ■ ■

منهجية القرآن الكريم في الهداية

للقرآن الكريم منهجية خاصة في التوجيه التربوي والهداية، كشفت عنها الآيات، وقد جاءت على شكل خطوات ومراحل يؤدي سلوكها إلى تحقيق الهداية للإنسان وفوزه في الدارين، وهذه الخطوات هي:

١ ـ يدعو إلى التدبّر في آيات القرآن الكريم ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

٢ ـ يدعو إلى التفكير والتأمل في الآيات الكونية المحسوسة الدالة على عظمة الخالق: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾ [فصلت: ٥٣].

٣ ـ يستنطق الوجدان ويثير مكان الفطرة السليمة: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [إبراهيم: ١٠].

٤ ـ يُذكر بالنعم المحسوسة: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧٢].

٥ ـ كثيراً ما يقع الإنسان تحت تأثير الفكر الجماعي وهذا يمنع الرؤية الواضحة لذلك يدعو القرآن إلى الاستقلال ثم التفكير: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

٦ ـ يُنبّه إلى خطورة الانجرار وراء التقليد الأعمى والعصبية التي تُكبّل العقل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

٧ ـ يستعمل أسلوب التعجيز والتحدّي في محاورة أهل الدعوى الباطلة: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

٨ ـ يستعمل أسلوب الاستدراج الذهني: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨].

٩ ـ يعتمد أسلوب الأمثال: ﴿تُؤْتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ بإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

١٠ ـ يعتمد أسلوب الإشارة إلى مسلّمات العقل ودليله: ﴿لَوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

١١ ـ الاعتبار بالأمم السابقة: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

١٢ ـ الترغيب والترهيب والوعد والوعيد: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

○ السُّنن الإلهيّة في القرآن الكريم

﴿الٓر كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

○ القرآن الكريم كتاب هداية

* ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

* ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

* ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

* ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١ ـ ٢].

* ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٢ ـ ٣].

* ﴿هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ١١].

○ القرآن الكريم كتابُ عبادة

* عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الْقِرَاءَةُ فِي الْمُصْحَفِ» .(مستدرك الوسائل: ٤/ ٢٦٧ ـ ١٧ ـ باب استحباب القراءة في المصحف).

* عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ». (وسائل الشيعة: ٦/ ١٩١ ـ ١١ ـ باب استحباب كثرة قراءة القرآن).

○ القرآن الكريم كتاب شفاء

* ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

* ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

○ القرآن الكريم كتاب علم ومعرفة

* ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣].

* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩].

* ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢].

■ ■ ■

السيرة النبوية في المناهج التعليمية

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

○ لماذا اختار الله عزّ وجلّ لتبليغ رسالاته أنبياء ولم يختر فلاسفة؟

لأنّه أراد أن يبعث للناس هُداة ومربّين ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾، فوظيفة النبي تتجاوز التبليغ والإيصال الذي تتحقق من خلاله الحجّة على الخلق، وإنّما التزكية والتطهير أولاً، والتعليم ثانياً، النّبي يتولّى مهمّة التغيير، مهمّة تربية الإنسان، ومهمّة التعليم التي تتضمّن الإيصال إلى حقيقة الكتاب وهي الحكمة.

وممّا لا شكّ فيه أنّ المعلم لا بدّ أن يكون عالماً، إلا أنّ العالم لا يُمكن له أن يتحوّل إلى معلّم ما لم يمتلك مهارات وقدرات إضافيّة تمكّنه من نقل علمه ومعرفته إلى الآخرين، وتمكّنه من توفير الاستعدادات عند المتعلمين، ومن إعادة صياغة البنية الفكريّة عندهم ومن تغيير مواقفهم واتّجاهاتهم السلوكيّة نحو الهدف الذي يحدّده.

والقاعدة الفلسفية تقول إنّ فاقد الشيء لا يُعطيه.

وعليه، فلا يُمكن للجاهل أن يكون معلّماً، ولا يُمكن للفاسد أن يكون مصلحاً وإن وصف الصلاح ليل نهار، ولا يُمكن للمنحرف أن يتولى مهمّة تقويم الآخرين، ولا يُمكن لمن يفتقد الطهارة أن يقوم بتزكية الناس وتطهير نفوسهم.

من هنا نُدرك سرّ اختيار الأنبياء وعلى أيّ أساس، لا يختار الله النبيّ لأنّه ابن نبيّ ما لم تكن هذه النبوّة عاملاً مؤثراً في صناعة النبي الإبن، فهو يختار لرسالاته أفضل أهل زمانهم وأكملهم عقلاً وأطهرهم نفساً وأبعدهم عن الهوى وأقربهم إلى التّقوى وأكثرهم قوة في مقاومة الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء، وبالاصطلاح الذي يعتمده علماؤنا «الذين عصموا أنفسهم عن الذنوب والمعاصي فعصمهم الله وأعانهم وسدّدهم».

إنّ الله تعالى لا يأمر الناس بسلوك طريق قبل أن يبعث فيهم من يسلك بهم ذلك الطريق، ليقتدوا به ويتأسّوا ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي هذا الشأن ينبّه أمير المؤمنين عليه السلام المسلمين فيقول:

«**والله ما أمرتكم بطاعة إلا وقد ائتمرت بها ولا نهيتكم عن معصية إلاّ وقد انتهيت عنها**» فالرسول المبعوث يجسّد الرسالة بكلّ دقّة قبل دعوة الناس إلى ذلك. يجسّد أخلاق الرسالة وقيمها، ويُقدّم أنموذجاً حيّاً كاملاً للإنسان الذي تريده الرسالة في فكره وسلوكه ومشاعره وعبادته وحكمته وتدبيره وسجاياه الأخلاقيّة...

○ ما هو المنهج التربوي للرسول ﷺ وما هي قيم الرسالة؟

لا بد من الإلفات قبل الإجابة على هذا السؤال إلى واقع المجتمع الذي بُعِث فيه الرسول ﷺ:

وصف القرآن مجتمع الجزيرة العربية بالجاهلية، حُكم الجاهلية، ظن الجاهلية، تبرّج الجاهلية، حميّة الجاهلية.

والجاهلية صفة تُشير إلى السلوك والقيم السائدة المبنيّة على الجهل. ومن بلاءات هذا المجتمع أنّه كان مجتمع الشِرك وعبادة الأصنام، مجتمعاً قبليّاً تحكمه العصبيّات والغزو والقتل ولا يأمن فيه أحد على ماله أو عرضه أو نفسه، مجتمعاً لا يُلقي أبناؤه سيوفهم عن عواتقهم، دأب شعرائهم

التهاجي، ودأب نسائهم التبرّج، ودأب رجالهم وأد البنات لئلاّ يلحقهم العار إذا ما غُزوا وانتُهكت النساء.

وما يتحدّثون به عن كرم العرب وسماحتهم وغير ذلك ففيه الكثير من المبالغات، أو لكي يدفع عن نفسه العار ولا يتعرّض للهجاء، ومع ذلك فهي نقطة مضيئة في بحر الظلام الذي يلف المجتمع الجاهلي.

فقام رسول الله ﷺ بإعادة بناء المنظومة الفكريّة، فحوّله إلى مجتمع التوحيد وقضى على الشرك، وقام بتشكيل منظومة القيم والأخلاق الدينية، وأسقط قِيم الجاهلية وأخلاقها، وربط المجتمع بالمنظومة الحقوقيّة والعبادية والروحية والاجتماعية للإسلام.

○ أبرز ما تضمّنه مشروع الرسالة النبويّة من قيم تربويّة:

١ ـ بناء قيم التوحيد والعبودية لله: هذا الأصل يؤسّس قاعدة لصياغة نظرة الإنسان تجاه الكثير من القيم الأخرى. مثلاً الحرية التي تبتني على التوحيد والعبودية لله تختلف في حدودها عن الحرية المبنيّة على رؤية إلحاديّة في حدودها وأبعادها وفلسفتها.

النظرة تجاه الموجودات أيضاً كذلك، هل هي موجودات في دائرة الصراع والتنافس مع الإنسان أم أنّها موجودات مخلوقة لله عزّ وجلّ، لحكمة وأغراض على الإنسان أن يُراعيها في التعامل معها. ولعلّ أغلب الحقوق والواجبات تتأثّر بهذا الأصل.

٢ ـ نظرة الإسلام تجاه الإنسان (قيمة الإنسان) ويتفرّع عليه نظرته تجاه المرأة والطفل والعامل والعجزة.

٣ ـ بناء الروابط الاجتماعية وتمييز الرابطة القائمة على أساس الإيمان وجعلها في الأولوية وإعطائها طابع الأخوّة والولاية، وعدم إلغاء روابط القرابة والنّسب والانتماء الوطني ولكن بما لا يتعارض مع رابطة الإيمان.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ

كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩].

يُمكن لنا في السيرة النبوية أن ندرس ما يلي:

١ ـ طريقته ﷺ في الدّعوة إلى الله، تعرّضه للحِجاج، إسماعهم القرآن بشكل عرَضي وغير مباشر، التلطّف والصّبر والتحمّل، اعتماد الأسلوب العملي وتقديم الأسوة الحسنة.

٢ ـ طريقته في معالجة أوضاع المجتمع المدني وبناء القاعدة الصلبة وتغيير القواعد الحاكمة.

٣ ـ طريقته في إظهار قيمة المرأة، وإبراز البُعد الإنساني لها، الزهراء أنموذجاً (احترامها، تقديرها، القيام لها، إظهار مكانتها..).

٤ ـ طريقته في إدارة الصراع مع المشركين وربط الصراع بأهداف الرسالة فحسب.

٥ ـ طريقته في نظم العلاقات مع أهل الكتاب الذين يشاركونه في المواطنية وفق أصول حفظ الحق والعدالة الاجتماعية والأمن الاجتماعي.

٦ ـ طريقته في تأليف القلوب والتّأثير على ضعفاء النفوس، واستِجلاب ودّ غير المسلمين.

٧ ـ طريقته في إرساء بعض العادات والتشريعات (السلوك العملي، زواجه من زينب مثلاً).

٨ ـ طريقته في إشراك الجميع في تحمّل المسؤولية وتحقيق الإنجازات والأعمال العامة.

إنّ دراسة السيرة النبوية تهدف بالدرجة الأولى إلى استخلاص المواقف

والعِبر كمقدّمة لتحويل واقعنا الاجتماعي إلى ما يتمثّل تلك السيرة ويجسّدها عملياً، لأنّ سيرته المُتضمّنة لفعله وتقريره فضلاً عن قوله هي سُنّة نبويّة تشكّل مصدراً من مصادر التشريع، ومرجعيّة في معرفة مكارم الأخلاق التي بُعث بها.

○ مستويات دراسة السيرة النبوية:

المستوى الأول: تحقيق السيرة واستخراج الصحيح منها، وتهذيبها مما دُسّ فيها وألصق بها لأغراض خبيثة غير خافية، وهي مرحلة ضروريّة تسبق قراءة المضمون واستخلاص الدروس. وهي مهمة تُناط عادةً بمراكز الدراسات والمتخصّصين في التحقيق ونقد التاريخ.

المستوى الثاني: تقديم السيرة النبويّة للمتعلّمين من الناشئة بأسلوب العرض المناسب، وهي مرحلة تُبنى على نتائج المستوى الأوّل.

المستوى الثالث: تحليل السيرة واستنباط الأهداف والغايات والدوافع ووجوه الحكمة في كل موقف وفي كل حلقة من حلقات السيرة، كمرحلة ضرورية للتأسّي والإقتداء برسول الله ﷺ، لأنّه ليس بالإمكان أخذ الموقف النبوي منسلخاً عن ظروفه وحكمته ودوافعه وأهدافه، فلقد كان موقف رسول الله ﷺ في ظرف مغايراً لموقفه في ظرف آخر، ولذا لا بدّ من ربط الموقف بالحيثيات التي لها علاقة باتخاذه كجزء من عمليّة التأسّي، كي لا نقع في محذور الجمود على الظاهر وعلى الشكل، ونحن نعلم أنّ الارتباط بين الظاهر والباطن وثيق، ووراء كل سلوك دافع، ووراء كل موقف هدف.

عندئذ يمكننا أن ننطلق في تحويل السيرة الشريفة إلى منهج فكري وعملي يناسب العصر وكل عصر.

المستوى الرابع: وضع نظرية تربوية عامة مستنبطة من سيرة رسول الله ﷺ، لأنّ المنهجيّة التي يختارها المعصوم لا شك أنّها الأنسب والأصلح والأولى.

البُعد التّربوي
في شخصية الفرد المؤمن(*)

يُقابل القرآن الكريم بين فريقين من الناس في بعض آيات سورة المجادلة:

الفريق الأول يصفهم بأنهم:

﴿تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [الآية: ١٤]

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الآية: ١٤]

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١٦]

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١٩]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الآية: ١٩]

الفريق الثاني يصفهم بأنهم:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [الآية: ٢٢]

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ الآية: ٢٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الآية: ٢٢]

(*) مقالة نشرت في مجلة بقية الله العدد ١٧٩، أيار/٢٠٠٦م، ص٨٢.

المقابلة بين حزب الشيطان وحزب الله هي مقابلة بين اتجاهين مُتعاكسين ومتعارضين، ولا بدّ من تحديد الخيار بين هذين الاتجاهين: إما أن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا ويتمسك بمنهجهم ومسارهم فيكون من حزب الله الغالبين المُفلحين، أو يدخل في ولاية الشيطان فينقاد له ويتولاه ويسير في خط الضلالة الذي يدعو أتباعه لسلوكه ويُربط بمصيره فيكون من حزب الشيطان الخاسرين.

فهل هناك عاقل يُحب أن يكون من الفريق الأول ولا يُحب أن يكون من الفريق الثاني؟!

ولا شكّ أنّ الدخول في ولاية الله يقتضي اللجوء إلى الأبواب والمداخل المؤدية إليها ويقتضي سلوك السبيل الوحيد الموصل إليها وهو المعبّر عنه بالصراط المستقيم. كما أن ذلك يستلزم التغلب على العقبات التي يضعها الشيطان الرجيم في الطريق، والتخلص من الكمائن التي ينصبها وهو القائل ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف/ ١٦ ـ ١٧].

وقد حذّر الله عباده المؤمنين من كيد الشيطان فقال ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء/ ١١٩ ـ ١٢٠].

السؤال المطروح: كيف يُمكن للإنسان أن يضمن الوصول إلى ولاية الله عز وجل ليكون من حزبه ومن الفائزين؟! وكيف يضمن التغلب على العقبات والموانع والإغراءات التي ينصبها الشيطان الرجيم في طريقه للحيلولة دون الوصول إلى ذلك الهدف، ولجره نحو الانحراف واتخاذ الاتجاه المعاكس والدخول في حزب الشيطان وفي الخاسرين؟!

وبعبارة أخرى ما هو المنهج التربوي الذي يجب أن يعتمده الإنسان لتحصين نفسه من هجمات الشيطان وإحراز السلامة وبلوغ الغاية التي خلقه الله من أجلها؟

المنهج التربوي الإسلامي يقوم على رؤية فكرية وعقائدية تحدّد فلسفة وجود الإنسان وغاية الخلق والمصير الذي يسعى إليه وهو ما يطلق عليه مصطلح المبدأ والمعاد، وعلى ضوء ذلك يتحدّد المسار العملي بما يتفرع عنه من حقوق وواجبات وقيم أخلاقية ووسائل واعتبارات تتكامل معاً لتوصل الإنسان إلى الغاية.

فالإنسان خُلق ليبقى ولم يُخلق للفناء والاندثار، وعليه فالحياة الدنيوية المحفوفة بالفناء والموت ليست إلا حلقة من حلقات الحياة ومحطة مؤقتة ينتقل منها الإنسان إلى حياة دائمة وأبدية خالصة لا موت فيها، يعمل هنا ويسعى سعياً دؤوباً ليجعل حياته الأخروية حياة كريمة مُفعمة بالسعادة والطمأنينة، إذا أحسن الاختيار وأصاب الطريق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق/٦].

فالحياة الدنيا مرحلة للاختبار والامتحان (الدنيا مزرعة الآخرة)، والحياة الأخرى للأجر والجزاء والحصاد وللحياة الحقيقية.

هذه الرؤية تنعكس بشكل مباشر على المنهج التربوي المُتبنى من قبل الفريق المؤمن بها وعلى ضوئها تتحدد الأهداف والقيم الأخلاقية التي تحكم المسار العملي وطريقة التعامل مع الوسائل والإمكانيات المتاحة.

○ أولاً: الأهداف والغايات

عند تحديد الأهداف والغايات التربوية يجب أن تكون منسجمة مع الرؤية السابقة سواء كانت أهدافاً معرفية أو وجدانية أو عاطفية أو سلوكية أو

غير ذلك، ويجب أن تكون مشتقة من تلك الغاية الكبرى التي تحكم مسار الحياة بشكل كامل. ولا يجوز أن يتم اختيار أهداف متنافية مع ذلك المسار.

كما أن ترتيب الأهداف من حيث الأهمية وتحديد الأولويات يخضعان لمترتبات تلك الرؤية، فإذا تزاحمت الأهداف نتيجة ضيق الوقت المتاح أو محدودية القدرات والإمكانيات، فالأولوية تبقى بالطبع للأهداف الأكثر انسجاماً مع الرؤية الفكرية والعقائدية، والأكثر مدخلية في تحقيق خطوات متقدمة على ذلك المسار، فيتم عندئذ التضحية بالأهداف ذات البعد الدنيوي المحض لحساب الأهداف ذات البعد الأخروي، ويتم تقديم الأهداف الأقرب إلى بناء الروح وزكاة النفس والتي تحقق نتائج أهم وأفضل وأسمى وعلى علاقة مباشرة بالحياة الأخروية الباقية والدائمة.

وهذا هو الذي يفسّر الاستعداد الكبير للتضحية والإيثار عند الصادقين في الإيمان، وهو الذي يفسر إعراض الزاهدين عن الدنيا وزخارفها وملذاتها، وهو الذي يفسر لنا كيفية وصول بعض الناس إلى مرتبة متقدمة في الصبر والتحمل والثبات.

○ ثانياً: القيم والأخلاق

قيم الإيمان والارتباط بالمولى عز وجل تتميّز أيضاً بأنها مستقاة من الرؤية المذكورة آنفاً، فلا يُنظر إليها من منظار دنيوي ضيق، والمناط فيها ليس الحصول على مدح الناس والتخلص من ذمهم، ولا مجرد حفظ النظام البشري وتحقيق الرقي والتقدم والتطور الحضاري فحسب، ولكن هناك ما هو أبعد، فقيم الإنسان تسعى لتحقيق السعادة الحقيقية والدائمة للإنسان عن طريق تربية ملكات النفس وصقل الروح بما يعطيها سمواً ورفعة وطهارة تتجاوز حدود الاعتبارات الدنيوية.

القيم والأخلاق بناءً على هذه القاعدة لا تتغيّر بتغير المصالح ولا تتبدل بتبدل الأحوال والظروف والاعتبارات لأنها تتعلق بكمالات النفس الإنسانية والروحية.

○ ثالثاً: الوسائل والإمكانات

وفق الرؤية المتقدمة، القوة لا تكتسب للسيطرة والتحكم، المال لا يطلب لنفسه، الإمكانات والقدرات والمهارات كلها وسائل محكومة للقيم وفي خدمة الأهداف السامية، فالعزة في طاعة الله عز وجل وفي المقابل الذل في ارتكاب معصيته، والقوة الحقيقية هي المستمدة منه تعالى بالتوكل عليه والاستعانة به.

من خصائص المنهج التربوي الإسلامي أنه يعمل على خطّين:

الخط الأول: التربية الذاتية والإصلاح من داخل الذات

وهو ما يُصطلح عليه في الخطابات الشرعية بجهاد النفس وتزكيتها، لأنه منهج يقوم به الفرد تجاه ذاته فيراقب نفسه ويقيّم الواقع ويحدّد بتجرد وإنصاف عيوب الذات أي مواطن الخلل وفق معيار محدّدات الأخلاق الإسلامية التي وردت في القرآن الكريم والسنة الشريفة، ويضع خطة العلاج والإصلاح وينفّذ الخطة بنفسه، معتمداً أسلوب المحاسبة اليومية للاستفادة من نتائجها في التغذية الراجعة لتعديل الخطة أو تطويرها، فيصل إلى الهدف المحدّد، بتدريب نفسه على اجتناب المعاصي والموبقات والابتعاد عن ملكات الرذيلة وترك العادات السيئة، ويقوم بتنمية ملكات الفضيلة والسجايا الحميدة التي تساهم في سمو الذات وطهارة النفس.

ويبقى يراقب ويحاسب نفسه باستمرار لحفظ المسار التصاعدي لدرجات التخلّق.

الخط الثاني: هو خط الإصلاح من خارج الذات

لا يتحقق الصلاح الاجتماعي إلا بصلاح أفراد المجتمع، وكما يتحمل المؤمن المسؤولية تجاه إصلاح نفسه يتحمل المسؤولية تجاه إصلاح غيره في أسرته ومحيطه وبقية أبناء مجتمعه الصغير أو الكبير. هذا النوع من الإصلاح أطلق عليه في الخطاب الشرعي «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وله أحكامه وشروطه، وهو عبارة عن تكافل اجتماعي في الجانب الثقافي والسلوكي والعبادي، كما هو التكافل الاجتماعي في المجال المعاشي والصحي.

ومن خصائصه أيضاً أنه يعمل على محاور ثلاثة:

المحور الأول: تنمية الحس الديني والارتباط بالله تعالى، ويتجلى ذلك بالخطوات العملية التي يلتزم باتباعها. ومن خلال منظومة العبادات اليومية والأسبوعية والموسمية، التي من شأنها تعميق حالة الارتباط بالله واتباع شريعته وتعاليم دينه، وبعبارة أخرى تقوية وتعميق الحالة الإيمانية، كونها الحجر الأساس الذي يقوم عليه صرح النظام الإسلامي والمجتمع الإيماني المعافى والسليم.

المحور الثاني: تقوية الضمير الأخلاقي وملكات الفضيلة بأساليب متعددة، وهنا نجد نظاماً دقيقاً رسمه الدين الحنيف بغية الوصول إلى مستوى عالٍ من الالتزام بالقيم الأخلاقية وعشقها وجعلها جزءاً من شخصية الإنسان المؤمن ومن السجايا الراسخة المتأصلة فيه.

المحور الثالث: تعديل الرغبات والغرائز والميول، وإخضاعها لنظام دقيق يعمل على إشباعها في الحدود التي تحقق الغايات التي وجدت من

أجلها وتحول دون الوقوع في الانحراف والإفراط في الاستجابة لها، فتحد من سيطرتها وتقف دون تجاوزها لحدودها التي تقتضيها حكمة الخلق.

كما أن من خصائصه أنه يعتمد منهج الوقاية والعلاج معاً، فالتربية الوقائية لها الدور الأهم من التربية العلاجية، وقديماً قيل «درهم وقاية خير من قنطار علاج»، فيضع الإسلام مجموعة توجيهات وأحكام لها علاقة بالوقاية والحيلولة دون الاقتراب من المشكلة، خاصة في مواطن الخطر فيبرز ذلك واضحاً في طريقة الوقاية من الانجرار إلى شرب المسكرات لما لها من تأثير سلبي خطير على المجتمع وأبنائه وقواهم العقلية وتوازنهم العاطفي، وكذلك نجد المنهج الوقائي في طريقة التعامل مع الانحرافات الجنسية فيضع سلسلة ضوابط سلوكية وقائية تمنع الإنسان من الاقتراب من مواطن السقوط والانحراف.

وأخيراً.. ينبغي الإشارة إلى أن الدخول في حزب الله يقتضي أن يسلك المؤمن هذا الطريق كي يُصلح ذاته ويتحمل المسؤولية تجاه إصلاح المجتمع البشري وفق ما جاء به الوحي ونطق به الرسول ﷺ وبلّغه الأوصياء عليهم السلام.

■ ■ ■

المدرسة الإسلامية،
دورها
والتحديات
التي تُواجهها

«المدرسة» وتحديات العصر الحاضر

من المؤكد أنّ المدرسة أحد مؤسسات المجتمع المهمة والأساسية التي تتولى مسؤولية تشكيل ثقافة الأجيال الصاعدة وإيجاد التواصل الفكري بين أبناء البشرية طولياً وعرضياً، أي من جيل إلى جيل ومن قرن إلى قرن على مدى الزمن، ومن أمّة إلى أمّة ومن مجتمع إلى مجتمع في العصر الواحد.

ولا نقصد بالثقافة هنا العادات والتقاليد والرؤى الفكرية فحسب، وإنما نقصد كل ما يشكّل قاعدة ومنطلقاً لتحديد المسار العملي للجيل، فتدخل فيها القيم والمبادئ والعقائد والمسلمات والقدرات والاهتمامات والتراث الفني والإبداعي وكل ما له مدخلية بصياغة شخصية المجتمع ورسم معالمه وتحديد ما يمتاز به عن المجتمعات الأخرى.

وإذا كانت «المدرسة» في القرون الماضية مُؤسسة صغيرة في أغلب الأحيان، يديرها فردٌ واحد، ويطبعها بطابعه الخاص، ويصب فيها كل ما يمتلكه من ثروة علمية أو أخلاقية، أو فنّ يبرع فيه، أو مجال من مجالات الاهتمام، فإنّ المدرسة المعاصرة باتت مؤسسة أكثر تنظيماً، وأكثر تأثيراً في تحقيق هذا الهدف السامي والخطير في آنٍ معاً.

إلا أن المدرسة «كمؤسسة تربوية» في العصر الحاضر تُواجه عدة تحديات، من أهمها:

أولاً: الاهتمام بالتراكم الكمّي على حساب الناتج النوعي، حيث أن

توسع العلوم العصرية، وسيطرة هاجس الثورة الصناعية على عقول وأذهان القيّمين والمُخططين وذوي القرار، دفعهم لإيلاء العلوم التجريبية وذات الصلة بالمادة والصناعة أكبر الاهتمام على حساب العلوم والمعارف العقلية والفلسفية والاجتماعية والأدبية والكلامية.

ثانياً: غلب على المدرسة الحديثة الاهتمام بالمُكتسبات المعرفية على حساب القُدرات، وعلى حساب الجوانب التي تشكّل شخصية الإنسان، الذي سيسخّر المكتسبات العلمية، فأهملت القيم الإنسانية الأصلية، وعوامل تشكّل شخصية الإنسان السويّ والمستقل والواثق بنفسه، والقادر على الإبداع والفهم الدقيق لأسرار الوجود، وبالتالي القدرة على صياغة مسارات الحياة بما يتوافق مع المبدأ والمعاد وفي سياقهما.

ثالثاً: من التحديات التي واجهتها المدرسة في كثير من الأحيان اعتماد الناس عليها كجهة وحيدة مسؤولة عن إحداث التغيير المنشود في أبناء الجيل الصاعد، رغم أنها وبالظروف القائمة والإمكانات المتاحة لا تستطيع أن تكون أكثر من شريك يُساهم في تحمّل هذه المسؤولية إلى جانب الأسرة ومواقع التأثير الأخرى في المجتمع بدرجات متفاوتة.

وكلما زادت العملية التربوية تعقيداً.. وكلما زادت المخاطر الثقافية والأخلاقية المحدقة بالجيل.. ازدادت الحاجة لتظافر الجهود، وتكامل الأدوار، من أجل حماية أبنائنا وتوفير بيئة تربوية واجتماعية وأسرية سليمة تساعده على تجاوز كل المخاطر والتحديات حتى الوصول إلى مرحلة النضج.

■ ■ ■

مساهمات المدارس الإسلامية
في صياغة منهج أصيل(*)

○ دور المدرسة الإسلامية في تأصيل الثقافة وتحصين الأمة:

من أهم الأهداف التي من أجلها كانت المدرسة الإسلامية، العمل على تحصين الساحة التربوية والثقافية في مقابل محاولات التغريب والتشويه الثقافي، والعمل على بناء أجيال تحمل الإسلام المحمدي الأصيل بوعي وإدراك إلى جانب العلم والمعرفة.

والأصالة هنا مقابل الهجانة والتشويه، فعندما نتحدث عن إسلام أصيل نعني به الإسلام المأخوذ من النبع الصافي غير الملوَّث، لأنه دين إلهي، والدين الإلهي يعتمد على الوحي وعلى النبوة، وهذا بلا شك لا يقتضي السلفية والجمود كما قد يتوهَّم البعض.

كما أن من المهم الإشارة في البداية إلى أن المدرسة الإسلامية الحديثة دخلت الساحة التربوية في لبنان منذ فترة زمنية غير بعيدة قياساً، فلم يمض أكثر من عقدين على تشكّل أول مدرسة إسلامية بالمعنى الدقيق للكلمة، وبالتالي فإن التجربة لا زالت حديثة العهد ولم تكتمل بعد، خاصة أنها ولدت في ظروف من التحديات والصعوبات وبالقليل القليل من الإمكانيات، إلا أن مجالات التطوير والنمو والارتقاء لا زالت قائمة.

(*) كلمة ألقيت في مؤتمر المناهج التربوية الذي نظمه مركز الإمام الخميني الثقافي.

وهذه التجربة على تواضعها لها أهمية كبرى ستتّضح عند الحديث عن الإنجازات.

لكن من الجدير بالذكر، أن الإنسان قد لا يلتفت إلى أهمية أو حساسية بعض الخطوات أو البرامج إلا من خلال ردة الفعل الكبيرة تجاهها من قبل الأعداء والمتضررين منها، فنحن اليوم عندما نرى إصرار الإدارة الأمريكية على إدراج تغيير المناهج التربوية ضمن خطوات مشروعها للهيمنة على العالم اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وإعلامياً، نعرف مدى أهمية هذه المناهج ودورها الفاعل في تشكيل حالة الممانعة والإعاقة لتلك الهيمنة، وبالتالي فهي قادرة على إيجاد الحصانة الثقافية والفكرية والأخلاقية التي تحول دون الاستجابة لإرادة الغازي ودون القبول به، بل تقاوم استيراد الأفكار والثقافات التي صيغت بدقة لتخدم طموحات وأغراض وسياسات الأعداء، ولتمهد النفوس للقبول بمشاريعهم والتبعية التامة لهم.

هذا يعني أننا لا نستغني في مواجهتنا لمخططات الهيمنة الأميركية على عالمنا بل على العالم أجمع، لا نستغني عن الجبهة التربوية والثقافية لأنها هي القاعدة وهي الأساس والمنطلق لكل أشكال التصدي والمقاومة.

وهذا يستدعي منا العمل على محورين:

المحور الأول:

التعامل بحذر شديد مع كل المناهج التي تورَّد إلينا مباشرة من أمريكا أو تتسلل تسللاً بطرق متعددة إلى ساحتنا التربوية، فقد ثبت أنهم يسعون لإلباس مناهجهم ثوباً محلياً من ناحية الظاهر، وعلى مستوى الشكل والإخراج، لتسهيل عملية التسلل وعبر شركات محلية كما يحصل بالفعل، على طريقة الأنشطة الاستخباراتية والأمنية تماماً، لكن في عالم الثقافة والتربية بدلاً من السياسة والأمن. مما يتطلب الدقة والحذر واليقظة التامة، وعدم الانخداع بالمظاهر الخارجية التي تخفي وراءها كل الأغراض البعيدة.

وهنا يجدر الالتفات إلى أن بعض هذه المناهج قد يُغري التربويين بحداثة الأسلوب والتقنيات والمنهجية، وقد لا يظهر ما يريدون بشكل واضح في الكتاب، لأن بعض مراحل التغيير التي تُسلك أحياناً تبدأ بفك الارتباط مع مناهجنا نحن والارتباط بمناهجهم، ثم تأتي المراحل اللاحقة لتحمل معها ما يريدون زرعه، وقد يكون المطلوب قد وُضع بشكل خفي أو ترك للمساعِدات والمتمِّمات التي يعتمدها المعلم أو غير ذلك من الأساليب.

المحور الثاني:

إيجاد البدائل المناسبة من خلال العمل الجاد على تطوير المناهج المحلية والقائمة على ثقافة أصيلة، على صعيد المحتوى والمنهجية والتقنيات والأدوات، مع المحافظة على الأصالة والدقة في إدخال القيم والمواقف والأهداف التربوية ضمن الكفايات الأساسية المقصودة، وتدريب الأجهزة التعليمية بما يمكّنهم من العمل على تحقيقها في ساحة الدرس.

وبعبارة أخرى فإن أهم وسائل المواجهة هنا تتمثل في ملء الفراغ بما يحقِّق الحاجة وبما يفوّت الفرصة على العدو لاستغلال الفراغ.

○ إنجازات المدرسة الإسلامية في لبنان خلال العقدين الأخيرين:

رغم حداثة التجربة يُمكن القول إن المدرسة الإسلامية حقَّقَت عدة إنجازات في مجال تأصيل الثقافة والتربية وأهم ما أنجزته ما يلي:

١ ـ فتحت الباب واسعاً أمام المزاوجة بين الدين والعلم وأبرزت حالة التكامل بينهما، على خلاف ما كان يُعمل على زرعه في أذهان الأجيال في الماضي من دعوى التعارض والتنافي بين الدين والعلم، مما دفع الكثير من الناس آنذاك للتخلي عن الدين ووصفه بالرجعية والتخلف، بينما ألجأ آخرين إلى التخوف من العلم.

ولكن الحقيقة أثبتت أن الدين الأصيل يدعو للعلم، والعلم يدعّم

الإيمان، ولا يستغني عنه، إذ أن الدين يقوم بعملية الوصل بين نتائج العلوم المادية والعوالم المجردة أو ما وراء الطبيعة، ويربط الأشياء بأصولها ومبادئها، والأنظمة الكونية والسنن الطبيعية بمُجْريها وواضِعِها، حيث يعجز العلم بنفسه القيام بذلك.

كما أن العلم كلما تقدّم وتطوّر وأنتج للإنسان قدراتٍ جديدةً كلما زادت الحاجة للثروة الكبيرة من قيم الدين ومناهجه السلوكية التي هي وحدها القادرة على أن تحول دون استخدام نتائج التطور العلمي في الإفساد بدلاً من الإصلاح وفي التدمير بدلاً من الإعمار وفي القضاء على الإنسانية بدلاً من تعزيزها.

فالمدرسة الإسلامية من شأنها أن تؤسس لمنهجٍ متوازنٍ يضع التطور العلمي في الطريق الصحيح والسليم.

٢ ـ أتاحت المدرسة الإسلامية الفرصة للتعرف على الأديان السماوية ومبادئها وثقافاتها دون تشويه ودون اجتزاء، فحقّقَت فرصة متوازنة للطالب الذي كان في السابق يسمح له برؤية جانب من الحقيقة في أحسن الأحوال، ويسمع عن الدين من الطرف الآخر فيرى الأشياء من نافذة ضيقة، فتبهره أمور واقعها لا يبهر، وتنفره أمور أخرى واقعها لا ينفّر، لولا ذلك الاجتزاء أو التشويه.

٣ ـ قدَّمت المدرسة الإسلامية للطالب بيئة تربوية واجتماعية سليمة نوعاً ما، تساعده على النمو بعيداً عن عوامل الفساد والانحراف الأخلاقي وتعينه على الالتزام بالقيم والأخلاق الإنسانية والإسلامية، ولا شك أن التربية من خلال المثال الصالح والقدوة الحسنة أكثر نجاحاً، كما أن البيئة الاجتماعية والأسرية لها كبير الأثر على إنجاح العملية التربوية، فالمدرسة الإسلامية تتولى تشكيل ذلك عندما تعمل على اختيار أساتذتها ومعلميها وتضع أنظمتها وأنشطتها بما يتناسب مع هذا الهدف.

لكن لا نخفي الصعوبات التي كانت ولا زالت تواجه المدرسة على هذا الصعيد مع غياب الجامعات ودور المعلمين التي من شأنها تخريج الأجهزة البشرية القادرة على أداء هذه المهمة الخطيرة والتي تحمل معها رؤية واضحة وقدرة فنية عالية، فتركت المدرسة الإسلامية تقوم بنفسها بإعادة تأهيل أجهزتها البشرية وفق حاجاتها وبحدود إمكانياتها المتواضعة، فنجحت تارة وأخفقت أخرى.

٤ ـ على مستوى المناهج (فيما عدا منهج التربية الدينية) قدّمت المدرسة الإسلامية حتى الآن مساهماتٍ متواضعةً في التأليف وفق الرؤية المتقدمة، لكنها مارست دوراً ترميمياً لجوانب الخلل والقصور وأكملت ما أتيح لها إكماله من جوانب النقص، وحذفت ما ينبغي حذفه ليأتي المنهج متناسباً في الحد الأدنى مع المبدأ الذي انطلقت منه.

○ المساهمات المنتظرة والمتوقعة في المستقبل

هنا، لا بد من الحديث عما يُمكن للمدرسة الإسلامية القيام به ولو مستقبلاً بعد أن تُذلّل العقبات وتوفّر الإمكانات اللازمة، تصبح هذه المساهمات أكثر إلحاحاً في ظل المخططات الأميريكية الرامية إلى إحداث تغييرات في المناهج التربوية في دول العالم الثالث تخدم أهدافاً توسعية تقوم على أساس التغيير الثقافي:

١ ـ بإمكان المدارس الإسلامية أن تتعاون على تشكيل إطار تجمُّع لها يقع على رأس اهتماماته تكوين رؤية موحدة تسوّق في دوائر التخطيط والقرار التربوي الرسمي في لبنان للتأثير على مسار الأنظمة والقرارات التربوية الرسمية بما يوجد سداً في مواجهة الهيمنة الأميركية على المناهج التربوية في لبنان.

وهذا أمر ممكن لأن المدارس الإسلامية التابعة لمؤسسات أو التابعة لأفراد باتت بمجموعها تمثّل كتلة لا يستهان بها، خاصة إذا استفادت من

الثقل السياسي لحزب الله، وإذا تمكَّنَت من توسيع دائرة التأييد في أوساط المدارس التابعة لطوائف أخرى.

ولا بد من الإشارة إلى أن واقع المناهج التربوية في لبنان، في ظل غياب الرؤية الثقافية الأصيلة عند السياسيين، جاءت في كثير من الأحيان استنساخاً للمناهج التربوية الغربية، وليس هناك أدلّ على هذا الواقع من سياسة التعامل مع اللغات الأجنبية التي تعتبر لبنان بلداً ثنائي اللغة بل ثلاثيّها، وهذا الأمر انعكس سلباً على اللغة العربية.

هذه ليست دعوة للتخلي عن اللغة الأجنبية، وإنما هي إلفات إلى ضرورة التعامل معها وفق رؤية وسياسة تقوم على فهم دقيق للهدف والمراحل والقدرات.

٢ ـ الدخول إلى عالم تأليف ونشر الكتاب المدرسي الذي يراعي الشروط والمواصفات الحديثة ويجسّد الثقافة والمرتكزات الفكرية والأخلاقية والقيمية الأصيلة ويعتمد منهجية تربوية متقدمة.

ليست المشكلة اليوم في توفّر الخبرة أو الأجهزة البشرية، بل في كيفية الاستفادة من هذه الخبرات وآلية استثمارها، فنحن قادرون على منافسة ما يطرح، وبالتالي توفير الكتاب المدرسي الملائم من حيث المضمون والأسلوب والإخراج والوسائل المساعدة والمكمِّلَة، وما إلى ذلك، شرط توفير الإمكانات المادية واللوجستية، وهذا الموضوع له أولوية كبرى في الوقت الحاضر.

٣ ـ بإمكان المدرسة الإسلامية إذا اعتمدت التوزيع على أساس الكفايات أن تدخل في الكفايات الخاصة بكل صف وبكل مادة القيم الإسلامية والإنسانية المتناسبة، والتي يتم اختيارها بدقة فائقة لتلائم المرحلة العمرية والمادة الدراسية، ويوضع لها طريقة تربوية مؤثرة ونشاطات متناسبة من شأنها أن تنتقل باهتمامات المدرسة من المجال المعرفي إلى المجال

السلوكي التربوي، وهذه الخطوة يُمكن تطبيقها في عرض الكتب والمناهج الحالية كمشروع ترميمي وتكميلي. إذا حصل هذا فمن شأنه أن يحدث تغييراً جذرياً في النظرة إلى دور المعلم واهتماماته التربوية، ولكنه يفترض وجود مهارات خاصة عند المعلّم ينبغي اكتسابها وتأهيله عليها ليصبح قادراً على أداء الدور بنجاح.

٤ ـ على مستوى التربية الدينية التي كانت البداية في إطلاق المناهج التربوية الإسلامية، حتى الآن اقتصرت غالباً على المجال المعرفي التلقيني، ولذا، عجزت عن تأدية دورها المطلوب بالشكل الكامل، فمن الواجب توسيع دائرة اهتمام المنهج ليدخل فيه كفايات تتجاوز المجال المعرفي إلى المجال الوجداني والسلوكي العملي وتحديث الطرائق المعتمدة ليدخل فيها من النشاطات ما يجعل الطالب يكتشف ويحلّل ويتخذ موقفاً ويتعاطف ويبني سلوكاً والتزاماً تجاه كل ما يمر به في المنهج.

إن تحديث التربية الدينية في المنهج والطريقة والوسائل بات أمراً ضرورياً جداً، خاصة مع المقارنة بالمناهج الحديثة التي تمتلك قدرة على الجذب وإثارة الاهتمام وتفعيل دور المتعلم على حساب التلقين.

أضف إلى أن المرحلة الثانوية التي تمثّل مرحلة التشكُّل الفكري للطالب تكتسب حساسية فائقة، مما يعني ضرورة تلبية المنهج لاحتياجات المرحلة مع مراعاة الدقة في صياغة المجال الفكري والعقائدي بحيث يعالج كل القضايا التي تثير اهتمام الشاب، وتجيب على تساؤلاته.

في الختام.. أجد أن عقد مثل هذا اللقاء ـ بحد ذاته ـ يمثِّل خطوة بالاتجاه الصحيح، لأنه يعبِّر عن مستوى الإحساس بالخطر ويضعنا جميعاً أمام المواجهة الصعبة، ولكي لا يكون المؤتمر مجرد صرخة ينبغي أن يتبع بلقاءات عملية تأخذ النتائج والتوصيات إلى ميادين العمل والخطط والبرامج.

والله من وراء القصد

دور المدرسة والمجتمع
في معالجة مشاكل المراهقين

في البداية لا بدّ من التأكيد أنّ مرحلة المراهقة هي مرحلة طبيعية لا بدّ منها في الانتقال التدريجي من الطفولة إلى النضج والرجولة، من التبعيّة إلى الاستقلال، وأنّ المتغيّرات التي تظهر لدى المراهق في المجال الإنفعالي والعاطفي كما هي في المجال الإدراكي والجسدي على حدٍ سواء هي متغيرات طبيعيّة، والمشكلة التي يعاني منها المراهق هي في طريقة تعامل الآخرين معه في هذه المرحلة.

من جهة أخرى ينبغي الالتفات إلى أنّ التربية التي يتلقاها المراهق في طفولته لها دور كبير في تسهيل عملية الانتقال في عمر المراهقة أو تعقيدها أوإضفاء صعوبات عليها، فكما في أي عمليّة انتقال من حالة إلى حالة ومن وضعيّة جسديّة إلى وضعيّة أخرى أو من ظروف إلى ظروف مغايرة، فإن التحضير المناسب والإعداد المدروس يساهم في جعل الانتقال سلساً وميسّراً، بخلاف الانتقال المفاجئ.

أكثر ما يعاني منه المراهقون في مجتمعاتنا أنّهم يُتركون في الأعمّ الأغلب ليواجهوا الأوضاع الجديدة بأنفسهم بدون إعداد مسبق ومن دون مساعدة تذكر، بل على العكس من ذلك، قد يكون للمحيط الاجتماعي

والعائلي دور مُعرقل، يُضفِي صعوبات إضافيّة على تلك التي يواجهها المراهق.

○ دور المدرسة:

يُفترض بالمدرسة كمؤسّسة تربويّة متخصصة، أن توفّر البيئة المناسبة لمساعدة المراهق على مواجهة المرحلة، وحلّ المشاكل التي يعاني منها، وأن لا تكون مصدراً من مصادر القلق والتعقيد للمشكلات، وهذا يتطلب ما يلي:

١ ـ الاتفاق بين كل أفراد الجهاز المعني بالتعامل مع المراهق على أنّ المدرسة تتحمّل مسؤولية الرعاية التربويّة فضلاً عن المسؤولية التعليميّة، وأنّ الاستعفاء من الدور التربوي وإيكال الأمر إلى الأسرة فيه تحلّل من مسؤولية أساسيّة لا يُمكن التخلّي عنها، ولا يُمكن إيكالها بالمُطلق إلى الغير، فرغم الاعتراف بالدور الحساس والمؤثر للأسرة إلاّ أنّ المدرسة هي المكان الأنسب لمعالجة مشاكل المراهق وإعداده تربوياً ونفسياً لاعتبارات عدة، ترتبط بالمدة الزمنية التي يقضيها بين ظهرانيها، والتنظيم المناسب للوقت والأنشطة، كما أنّ المدرسة هي الأقدر على إعداد المُربي المتخصص القادر على التعامل مع المرحلة بمنهجيّة وتخطيط سليم.

٢ ـ الجهاز المدرسي الذي يساهم في التعامل مع المراهق مكوّن من فريق الأساتذة بالكامل، بالإضافة إلى ناظر القسم والمرشد التربوي والمرشد الديني، ويُضاف إلى هؤلاء مَن يُعنى بالأنشطة والفعاليّات اللاصفية كالنوادي مثلاً. هذا الفريق بالكامل يجب أن يكون مدركاً لدوره ومسؤوليّته، ومتهيئاً لأداء هذا الدور.

٣ ـ الدور الذي تضطلع به المدرسة يبدأ من إعداد الفريق المُربي الذي سيكون على تواصل مع المراهق. فمن الضروري لهذا الفريق امتلاك المعارف الخاصّة بتلك المرحلة العمرية، وخصائص المراهقة من الناحية الإنفعاليّة والإدراكيّة والجسديّة والروحيّة والاجتماعيّة، والتقلّبات المزاجيّة التي ترافق المرحلة.

٤ ـ يجب على المربين أن يتعرفوا بدقّة على حاجات المراهق، وأن يتفهّموا هذه الحاجات ويتعاملوا معها برحابة صدر، فإن الكثير من المربين يتنكّر لهذه الحاجات أو يتجاهلها إعتقاداً منه أنها غير واقعيّة أو غير منطقيّة.

٥ ـ الأهم هو العمل على وضع الخطوات العمليّة المنسّقة والإجراءات المناسبة للتفاهم مع المراهق، والتعامل مع واقعه الخاص بأسلوب مناسب له. إنّ أكثر ما يعاني منه المراهق أن يجد أساتذته يتعاملون معه بنفس الأسلوب الذي يتعاملون فيه مع الأطفال، وبما لا يلحظ النضج الجسدي والعقلي والإدراكي والنفسي، مما يوجد هوّة كبيرة بين المراهق وأساتذته، مما يضطرّه لمواجهتها بأسلوبه الخاص.

إنّ أغلب المراهقين يشكون من عدم فهم الآخرين لهم، ما يدفعهم لردّات فعل مستنكرة من قبل المحيط، لذا فمن الضروري جداً أن نميّز في أسلوب تعاملنا مع المراهق بين ما يناسب هذه المرحلة وما لا يناسبها.

٦ ـ المدخل الأساس للتأثير في المراهق هو إشعاره بالاعتراف به، والاستماع إليه باهتمام، ومنحه التقدير المناسب، واعتماد منهجية المصاحبة والمصادقة، إن هذه الأمور من شأنها فتح الباب على مصراعيه للدخول إلى الواقع الخاص له، وتوفير الأرضيّة المناسبة للتعامل معه.

من الخطير جداً إدارة الظهر للمراهق، وإشعاره بعدم الاعتراف به وبأفكاره وآرائه، والإقدام على توهينها.

ولعل الحديث المشهور «..واصحبه سبعاً» أو «ستاً» حسب اختلاف النص المروي، يشير إلى هذا الأسلوب بالذات، ويتناول هذه المرحلة، وهي من ١٢ ـ ١٨ أو من ١٤ ـ ٢١، وربما كان الاختلاف في تقسيم المراحل بين ست سنوات لكل مرحلة وسبعة نتيجة الاختلاف بين الناس أوبين المجتمعات في مراحل النمو والنضج، وهي ليست ثابتة في كل أفراد البشر.

إنّ أسلوب المصاحبة عند اعتماده من قبل المُربي يكسر العديد من الحواجز النفسيّة ويُشعر المراهق بالإطمئنان والثقة، وهذا بلا شك يعزّز القدرة على فهم المراهق، ويفسح المجال لمناقشة قضاياه وهواجسه، وإلا فإن أسلوب الإملاء والتوجيه الفوقي لم يعد مناسباً لهذه المرحلة.

لقد بيّنت الدراسات التي قمنا بها على شرائح من التلامذة المراهقين أنّ نسبة ملحوظة منهم ٢٤,٤٪ تفضّل اللجوء إلى الأصدقاء في عرض المشكلات التي تواجههم ومعالجتها، و٢٨,٤٪ من نفس الشريحة التي أجريت عليها الدراسة تفضّل اللجوء إلى ناظر المدرسة، بينما ١٤٪ فقط ذكرت أنها تلجأ إلى الأهل، وهذه النسب تفرض تعديلاً في أساليب التعامل مع الشباب في سن المراهقة، لزيادة مستوى الوثوق بالأهل لديهم وكذلك نسبة الوثوق بالأساتذة والنّظار.

٧ ـ ينبغي للمدرسة أن تولي الأندية المدرسيّة اهتماماً خاصّاً على الصعيد الكمّي والنوعي، لأن الأندية المدرسيّة يُمكن أن تؤدي دوراً في معالجة مشاكل المراهق من عدّة جهات:

أولاً: الأنشطة التي تقدّمها الأندية لها دور جذاب، بعيداً عن قيود الصف والدراسة والاختبارات وغيرها مما يشكّل عبئاً عليه، هي فرصة للخروج من الرّتابة والروتين، وهو ما يميل إليه المراهق.

ثانياً: النوادي توفّر فرصة للعمل الفريقي، وتشكيل مجموعات متجانسة من حيث العمر والميول والرغبات، ويمكن من خلال ذلك النفوذ إلى مشاكل المراهق وإيجاد الحلول بشكل غير مباشر.

ثالثاً: النوادي المدرسية فرصة للتربية على القيم بأسلوب مدروس وعملي شرط أن يكون المُشرفون على هذه النوادي يمتلكون شخصية القدوة ويجسّدون قيم الدين عمليّاً، فهذا الأسلوب في التربية أجدى من طريقة التوجيه المباشر. وفي أحيان كثيرة يحصل العكس، عندما يكون المدرّب والمربي أنموذجاً سيئاً في سلوكه وخُلُقه فيكسبهم ذلك نتيجة محبوبيته وقدرته على التأثير.

رابعاً: يُمكن للنوادي المدرسية إن توفّر بيئة سليمة لممارسة الهوايات وسدّ الحاجات التي يشعر بها المراهق، فيظهر من خلالها قدراته الجسديّة والفكريّة والعلميّة. ويحقق النجاح والتفوّق الذي يشكّل حاجة من حاجاته.

خامساً: من الطبيعي أن تؤدّي النوادي المدرسيّة دوراً في إبعاد التلميذ المراهق عن البيئة الملوّثة أخلاقيّاً وسلوكيّاً من خلال إيجاد البديل السليم والطبيعي.

○ دور المجتمع:

على ضوء ما تقدّم في بيان دور المدرسة في معالجة مشكلات المراهقين، يتّضح أن المجتمع والمؤسسات الاجتماعيّة والنافذين في أي محيط اجتماعي بإمكانهم أن يقوموا بدور فاعل في هذا المجال، وذلك من خلال ما يلي:

أولاً: إيلاء المؤسّسات الاجتماعيّة التي تهتم بحاجات المراهقين أولويّة في الاهتمام، حيث أنّ هذه الشريحة توشك أن تشكّل جيش الشباب الذين

هم أمل الأمة وذخيرتها ومستقبل الوطن، فعليهم المعوّل في حفظ الاستقلال وفي بناء الاقتصاد وإعمار البلاد وإدارته في مختلف المجالات، فالاهتمام بالمراهقين وتوفير بيئة تربويّة سليمة تحتضنهم وتحصّنهم وتقيهم من الانحرافات وتفجّر طاقاتهم في الاتجاه الصحيح، يدخل في صناعة المستقبل.

وعلى هذا الأساس يجب وضع سلّم أولويات في الاستثمار وفي الانفاق وفي الجهود التي تُبذل، وإعطاء هذا الموضوع الترتيب الأوّل في الاهتمامات.

ثانياً: يمكن للمؤسّسات الاجتماعية أن تمارس دوراً فاعلاً في إرشاد الأهل وتدريب الأبوين على أنماط التعامل الصحيح مع المراهقين، وتوفير الأسرة الآمنة والمستقرّة القادرة على احتضان أبنائها وتربيتهم بشكل سليم.

ثالثاً: المجتمع هو مدرسة كبيرة تعلّم وتربّي وتورث ما لديها من عادات وتقاليد وقيم وممارسات، وأيضاً ما تعاني منه من أمراض وانحرافات، المجتمع يورّث ما لديه من سلبيات وإيجابيات وهذا يفرض على الأهل والمربين مسؤولية اختيار البيئة الاجتماعية السليمة والمدرسة المناسبة لمواجهة سلبيات ما يُمكن أن يورثه المجتمع إذا ترك الأمر على هواه.

■ ■ ■

الإدارة والتّخطيط وإعداد العاملين في الحقل التّربوي

السلوك الإداري والأخلاق الإدارية

أهم ما يميز الأنظمة الإدارية عن بعضها هو الأساس الفكري الذي تبتني عليه، ومنظومة القيم والحقوق والأحكام المتفرعة عن ذلك الأساس الفكري. فالقاعدة والمرتكز لأي نظرية إدارية تنطلق من ذلك الأساس، وكل التفاصيل تأتي منسجمة مع المنظومات الثلاث.

فالأساس الفكري في المجتمع الليبرالي يجعل الحرية بمعناها الواسع القيمة الرئيسية والقاعدة التي تبتني عليها النظريات الإدارية والاجتماعية. والحرية عندهم تعني رفع القيود عن العمل والسلوك الفردي بشكل شبه كامل، والاحتكام إلى مبدأ صراع القوى الذي ينتج حتماً بحسب وجهة نظرهم البقاء للأقوى.

ويُبررون ذلك بأن التنافس الحر اللامحدود يشكل حافزاً لزيادة الإنتاج، ويؤدي إلى الازدهار الحضاري، لكن التنافس بهذا الشكل ليس إلا صراعاً ينتهي بالنصر للأقوى والانسحاق للأضعف، وأين هذا من الإدارة؟! التي يفترض بها أن تنظم الموارد في خط الوصول إلى الأهداف. وإذا كنا نرى اليوم نظاماً وقانوناً ومنظومة حقوق في مثل هذه المجتمعات، فهو نتيجة التوازن وحرص الأقوياء على حفظ امتيازاتهم ومواقعهم وإمكاناتهم، والحد من الأخطار التي يُمكن ان تتهددهم من جراء انفجار الضعفاء، فهم يعطون من الحقوق والامتيازات ما يحفظ بالنتيجة امتيازاتهم ليس إلا.

فالأنظمة الإدارية في هذه المجتمعات تبتني على هذه القاعدة وتبقى محكومة لها في كافة مستوياتها.

في القرن الماضي انطلقت تجربة الإدارة اليابانية على أساس يختلف قليلاً عن الأنموذج السابق، حيث كانت القيمة الأساس هي التعاون في الداخل (أي داخل اليابان) وتوجيه جو التنافس نحو الخارج، وقد اعتمد في سبيل تحقيق الإدارة الاجتماعية المبتنية على هذه القيمة أسلوب التربية، وما تميز به النظام الإداري لديهم جاء متفرعاً على هذه القاعدة.

ونحن باعتبارنا مسلمين، نحمل فكراً توحيدياً وعقيدة إلهية تميّزنا عن غيرنا، ويقوم على أساس هذا الفكر ويتفرع عليه كل ما يحكم حركتنا في كل أبعادها مثل:

١ ـ منظومة القيم.

٢ ـ منظومة الحقوق.

٣ ـ منظومة الأحكام الشرعية.

والاعتناق الصحيح والواقعي للإسلام يستلزم الاحتكام إلى هذه المنظومات في كل تفاصيل الحركة والمنهج العملي الذي نتبناه ونسلكه، وتجسيد ذلك في كل خطوة عملية أو موقف أو تقييم أو قبول أو رفض.

والنظام الإداري يتأثر بشكل كبير بالمنظومات الثلاث المذكورة لأنها تحدّد الأهداف التي يسعى لتحقيقها النظام الإداري بشكل أفضل، وتحدد الأساليب والأدوات، وتحكم سلوك الجهاز الإداري والأفراد وتؤثر بطبيعة الاهتمامات والحوافز وتصنيف عناصر جديدة لم تكن موجودة في النظام الإداري المادي في مجال الرقابة والمحاسبة وما شابه.

قبل الإجابة يجدر الإشارة إلى ان شكل النظام الإداري يخضع لكثير من

المتغيرات ولذلك لا يُمكن القول بأن الإسلام يتبنى هيكلية إدارية خاصة، وهو في ذلك يشترك مع الجميع في أن شكل النظام وهيكليته توضع حسب الظروف والحاجات الآنية، وإن كان للقيم والضوابط الأخلاقية أحياناً مدخلية في الاختيار.

فينحصر البحث فيما يحدد طبيعة القيم التي تشكل روح النظام الإداري في الإسلام وهي «العدالة». والعدالة هي إعطاء كل ذي حق حقه وهي الغاية، فهي عنوان يحتضن في داخله كل منظومة الحقوق، ومنظومة الأحكام. والعدالة هذه تسير معها وإلى جانبها وفي كل مراحل حركتها قيمة سلوكية أخرى هي «التقوى» تضمن تحقيقها منظومة القيم الأخلاقية.

وعليه فثقافة الإدارة عندنا تقوم على أركان ثلاثة:

- منظومة القيم والأحكام والحقوق.
- الثقافة الإدارية.
- المعارف والخبرات: (المهارات والقدرات).

فهذه نقطة الامتياز الأولى والرئيسية للنظام الإداري الإسلامي لو أُحسنَ التطبيق والاختيار، نعم قد لا نجد في واقعنا المعاصر الكثير من الفرق بين ثقافة الإدارة المتبناة والمطبقة وبين النماذج الغربية والسبب في ذلك يعود إلى غياب المسلمين عن إسلامهم من حيث المضمون والروح والعمق، واكتفائهم بالقشور والشعارات وما لا يتجاوز الطقوس والعناوين.

وسيظهر ذلك من خلال استعراض ما يأتي إن شاء الله.

○ الأهداف:

لكل منظمة ولكل إدارة هدف أسمى، تسعى الإدارة لتحقيقه بشكل

أفضل، هذا في نظر الإسلام يجب أن يكون مشروعاً. فلا يحق لأحد أن يجعل هدفه الربح بشكل مطلق، فإن بعض الوسائل التي تحقق الربح تقضي على الإنسانية، وتدمر العالم وربما تحدث للبشرية الكثير من المآسي. من هنا كان التحكم الأول في الهدف. الهدف المشروع الذي ترتضيه الشريعة الإسلامية، والذي لا يتعارض الأهداف السامية لها، يُمكن أن يجعل هدفاً للمنظمة أو المؤسسة.

وتتمايز الأنشطة والفعاليات بأهدافها، فكلما كان الهدف يصب في خدمة الإنسانية وفي تقريب الإنسان من مقاصد الشريعة كلما كان العمل والنشاط أهم وأقدس وأفضل، والعكس كذلك. فليس الميزان إذن ما يحققه العمل من منفعة مادية فحسب، الميزان هنا أشمل وأوسع دائرة، لأنه يدخل في الحسابات مصير الإنسان والبشرية عامة في دنياهم وفي آخرتهم. ومن هنا كانت المؤسسات التجارية مثلاً، لأن الغاية أسمى والهدف أقدس. فعن رسول الله ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى» [السنن الكبرى للنسائي، ح١١٨٠٤].

○ المسؤولية:

الإدارة وإن كانت من مظاهر السلطة، إلا أن الإسلام ينظر إليها على أنها قيادة وولاية، مما يحمّل المدير ـ في أي مستوىً كان ـ مسؤولية القائد الذي يشكل في مزاياه الخاصة الأسوة والقدوة والمثال.

وفرق كبير بين الولاية والسلطة والتحكمية، لذا تختار النصوص الشرعية مصطلح الولاية والرعاية. فعن رسول الله ﷺ قال: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته» [سنن أبي داود، ح٢٥٤٢]. وتبتعد عن استعمال مصطلح السلطة، لأن السلطة توحي بالهيمنة والتحكم، ورغم أن القيادة والولاية تستلزم

السلطة، إلا أنها كالصريحة بأن السلطة فيها ليست للتحكم والهيمنة، وإنما للرعاية وتحقيق الوضع الأصلح للمُولّى عليهم، وليس الوضع الأصلح لخصوص الولي.

وهذا أمر مشترك في كل واحدة من مفردات الولاية.

لاحظ ولاية الوقف وولاية الأب لأبنائه الصغار وولاية الأب في تزويج ابنته البكر وولاية أمر المجنون وولاية الوقف وغيرها إلى أن تصل إلى ولاية الأمر، كلها شرّعت من باب اللطف والرأفة والرحمة بالمُولّى عليهم ولمصلحتهم ولرعاية شؤونهم باعتبار حاجتهم لتلك الرعاية، وليس ذلك امتيازاً يعطى للولي والقائد بل هو مسؤولية وتكليف.

والإدارة من هذا القبيل، ففي أي مستوى من مستويات الإدارة، هي مسؤولية ووظيفة وتكليف، ينبغي رعايته وأداؤه بأمانة وبدقة وبنجاح.

نظرة المدير إلى دوره من هذه الزاوية سوف تغير بشكل جذري طريقة عمله وأدائه الإداري بلا شك، وفي طريقة اختياره لمعاونيه ومرؤوسيه وفي سلوكه تجاههم وعلاقته بهم.

في هذا المجال يتحدث أمير المؤمنين عليه السلام في عهده للأشتر، فيقول:

«وإن عملك ليس لك بطعمة، ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مسترعىً لمن فوقك»

وفي الرواية عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تصلح الإمامة إلا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله وحلم يملك به غضبه وحُسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم».

وهذه الخصال الثلاث وإن وردت في الإمامة إلا أنها تجري في كل مستوىً من مستوياتها حتى الإدارة في دوائر محدّدة السّعة.

○ الإرتباط بالله عز وجل

أي الإقرار بأن كل توفيق وكل نجاح فهو من فضل الله ورحمته وعطائه، ذلك ان الإنسان في واقعه لا يملك من أمره شيئاً إلا ما أقدره الله عليه وخوّله إياه ومكّنه منه. لنا في ذلك أسوة بسليمان عليه السلام حيث يحكي لنا القرآن الكريم قصته مع عرش بلقيس:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

واقتداءً بذي القرنين بعدما أقام السد لمنع يأجوج ومأجوج من التجاوز والطغيان:

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

بينما نجد بعض النماذج في الطرف المقابل يعمل الجهل والغرور والعجب فيهم عمله، كما حصل لقارون وهو يرى الثروة العظيمة في مُتناول يده فيقول:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص: ٧٨].

فاستحق بذلك الخسف به وبماله ليكون عبرة لمن اعتبر.

والارتباط الدائم والوثيق بالله سبحانه وتعالى والتوكل عليه والاستعانة به تفرض سلوكاً خاصاً يأتي التعرض لعددٍ من مظاهره.

○ الأمانة

الإدارة أمانة في عنق المدير، كموقع وصلاحيات وإمكانات مادية

ومعنوية.. وهو مسؤول عن أدائها على أفضل وجه، ففي الحديث المتقدم عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«وإن عملك ليس لك بطعمة، ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مسترعىً لمن فوقك»

ويدخل في الأمانة كل حق من الحقوق يفرضه الموقع أو العقد المُبرم أو الحقوق التي تفرضها الشريعة بكل تفاصيلها، ومنها الحقوق المادية والحقوق المعنوية على حدٍ سواء.

وعنه عليه السلام قال: «إن الله يحب المُحترف الأمين» [الفقيه: ٣/ ٣٦٧].

فلا يجوز أن يبرر المدير لنفسه الخيانة مهما صغرت ومهما كان نوعها حتى إذا سبقه غيره إليها، ففي الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ولا تَخُنْ من خانك ولا تُذع سرَّه وإن أذاع سرّك».

ولعل الفقرة الأخيرة تشير إلى النوع المعنوي من الحقوق، لأن المدير بحكم موقعه قد يطلع على الأسرار الشخصية والخاصة، والتي تضعه أمام مسؤولية حفظها والاحتراز عن كشفها، إلا بالمقدار الذي تمليه عليه الضرورات وضمن الحدود الموضوعة في الشريعة.

ومن الجدير بالذكر أن الكثير من الأخلاقيات المتعلقة بالعمل الإداري تدخل تحت عنوان أداء الأمانة لأن كيفية الأداء تدخل ضمن العنوان، مما يعني أن الأمانة تقتضي بذل أقصى الطاقات وبفاعلية كاملة وبكيفية أنسب للوصول إلى الهدف بالنحو الأفضل.

ومن مظاهر الأمانة: الابتعاد عن استغلال الموقع لأغراض شخصية، سواء كان ذلك لأمور مادية أو أمور معنوية خارجة عن دائرة الحقوق

المفروضة، وهذا ما يُبتلى به كثيراً في مجال اختيار العاملين، وإدخال الأفراد لحسابات خاصة لا ترتبط بمصالح العمل نفسه.

عن رسول الله ﷺ: «من وُلّيَ من أمر المسلمين شيئاً، فولّى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله».

ومن مظاهر الأمانة أيضاً: الابتعاد عن التشبث بالموقع، حتى كأنه ملك خاص وامتياز له، يحرص على أن لا يفقده، فيشعر بالحيف والظلامة إذا طلب منه التخلي عنه، وقد يبني على ذلك نظرته إلى من فوقه، فيرضى عنهم ما أقروه فيه، ويسخط عليهم إذا اقتربوا منه، مع أنهم ربما دفعهم إلى ذلك التزامهم بالأمانة وأداؤهم للمسؤولية، فينبغي النظر إلى الموقع ـ كما قدّمنا ـ على انه تكليف وفريضة ومسؤولية، فإذا ارتفع ذلك عنه كان فيه تخفيف للعبء ورفع للواجب.

وهذه المشكلة تنشأ عادة من حب الدنيا، والاهتمام باللوازم المترتبة على الموقع والمسؤولية، من احترام الناس له، وارتفاع شأنه الاجتماعي، فيتصور أن فقدانه يؤدي إلى المهانة وخسارة الامتيازات، وهو غالباً لا واقع له.

وأخيراً ينبغي الالتفات إلى أن الحقوق والواجبات بينها نوع من التوازن والتعادل، ولا يتصورن أحد أن له حقاً دون أن يكون عليه في قباله واجب، ولا شك أن أداء الحقوق من أشق التكاليف.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«الحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد إلا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه».

○ الإخلاص

كما أن قيمة العبادة بإخلاص النية وجعلها لوجه الله لا تشوبها شائبة من شرك أو رياء أو سمعة، فكذلك بقية الأعمال، لأن الأعمال المباحة التي يطلب الإنسان بها قوته وكسوته ونفقته عياله، إنما يطلب من خلالها الوصول إلى أمر واجب، فعليه أن لا يخلطها بالحرام ولا يعكر صفوها بالشبهات، وأما الأعمال الرسالية كالتربية والتعليم والتبليغ والخدمات العامة والأمور الخيرية فهي كالعبادة لا تثمر ما لم تكن خالصة لوجه الله، بل يناط التوفيق الإلهي بذلك، والتسديد والنجاح يتوقف أيضاً على مقدار الإخلاص.

يُروى عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إذا عملت عملاً فاعمل لله خالصاً، لأنه لا يقبل من عباده إلا ما كان خالصاً».

ولا ينافي الإخلاص في العمل أخذ الأجرة، لأن العامل بإمكانه أن يجعل قصده منصباً على دور العمل وتأثيره في اصلاح الإنسان والارتقاء به إلى منازل العُباد المُطيعين، وبإمكانه أثناء العمل أن يغفل نهائياً على الأجرة فلا يجعلها المحرك ولا الدافع، فيجمع بين الثوابين. أما إذا لم يقصد من عمله إلى الأجرة، والمنفعة الدنيوية، فاستقام بالقدر الذي يضمن له حُسن السمعة ودوام الأجرة، فليس له من عمله إلا ما يحصل عليه من منفعة عاجلة.

○ الحرص على المصالح العامة:

في الرواية أن رسول الله ﷺ سُئل: من أحب الناس إلى الله؟

فقال: «أنفع الناس للناس».

وهذا باب واسع من أبواب العروج والسمو، فإن الإنسان الذي يضحي والذي يؤثر على نفسه، لا يخسر شيئاً، لأن خدمة الناس ومحبة الناس والحرص على منافعهم، هو في نفسه عمل صالح يعود على صاحبه بالخير والسعادة والثواب الجزيل. وهذه قاعدة تؤسس لنظرة خاصة تجاه حوائج الناس.

في الحديث عن الإمام لحسين: «واعلموا أن حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم، فلا تملّوا النعم فتحور نقماً..». وعن أبي عبدالله عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أصبح ولا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم».

وفي هذا المجال لا يستصغر شيء من المنافع، ففي الحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله: «إماطتك الأذى عن الطريق صدقة».

○ التواضع:

لعل هذه الصفة من أهم ما ينبغي الحرص عليه والعمل على الاتصاف به من صفات الفضيلة عند العاملين، وخاصة إذا كانوا يؤدون دوراً قيادياً في مجال رسالي، والتواضع صفة المؤمنين والمتين، ولها الكثير من البركات والثمرات العظيمة إذا عرف الإنسان قدرها.

فعن علي عليه السلام أنه قال:

«التواضع ينشر الفضيلة».

«التواضع يكسبك السلامة».

«ثمرة التواضع المحبة».

«بخفض الجناح تنتظم الأمور».

ومع ذلك فإن التواضع لا يُوجب المهانة كما قد يتخيل البعض، بل إن

من تواضع رفعه الله. ففي بعض وصايا الرسول ﷺ لعلي عليه السلام: «يا علي... والله لو أن المتواضع في قعر بئر لبعث الله عز وجل إليه ريحاً يرفعه فوق الأخيار في دولة الأشرار».

وربما كان المراد من قعر البئر الكناية عن المنزلة الاجتماعية الأدنى، ورفع الله له بواسطة الريح كناية عن الوسائل والطرق والأسباب التي لا يتوقعها الإنسان، كما ان الساقط في قعر البئر لا يتوقع أبداً أن تكون الريح هي التي تنقذ وتخرجه مما هو فيه.

فما أكثر وما أخطر ما يبتلى به ذوو المواقع الاجتماعية والمناصب الرفيعة بآفة الشعور بالكبر بحسب اختلاف مستوياتهم ومستويات شعورهم، فيؤدي بهم على الاستخفاف بالآخرين، والتطلع نحوهم بدونية. ومن الأسباب المباشرة للتكبر التقييم للنفس وقدرتها، وهو الذي يُورث عند الإنسان الإعجاب بالنفس والغرور، بقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الشأن:

«وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يُعجبك منها، وحب الإطراء فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان».

ويقول أيضاً: «وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم مُلك الله فوقك وقدرته منك».

أما حد التواضع: فأن تُعطي الناس من نفسك ما تحب أن يعطوك مثله. كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام.

وهو في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «أن ترضى من المجلس بدون شرفك وأن تسلّم على من لقيت وان تترك المراء وإن كُنت محقاً».

ثم إن المُعجب بنفسه يعيش حالة الغفلة عن واقعه، وهو يعمى عن

عيوبه، يقول علي عليه السلام: «الراضي عن نفسه مستور عنه عيبه، ولو عرف فضل غيره كفاه ما به من النقص والخسران».

ويقول عليه السلام: «رضا العبد عن نفسه برهان سخافة عقله».

«العُجب يفسد العقل»

«الإعجاب يمنع الازدياد».

«ومن أعجب بحسن حالته قصر عن تحسين حليته»

بينما: «من أنف عن عمله اضطره ذلك إلى عمل خير منه».

○ العدل والإنصاف

وذلك بحفظ التوازن بين المسؤولية وحقوق الآخرين، ومن المعلوم أن الحد الفاصل بين خيانة المسؤولية وظلم العاملين يحتاج مستوى عالٍ من الدقة، فلا يحل بمقتضى المسؤولية والأمانة الشرعية الملقاة على عاتق المدير أو المسؤول، ولا يتجاوز حقوق العاملين ويتعدى حدودهم. وفي هذا المجال تزل أقدام الكثير من فيسقطون ضحية الإفراط أو التفريط.

ويدخل تحت هذا الباب الكثير من الحقوق، المالية منها والمعنوية، وربما كانت الثانية هي الأخطر، خاصة في مجال التقييم والنقد الأصولي وسرد السلبيات والإيجابيات.

وهنا لا يُمكن للمدير والمسؤول أن يتخلّى عن دوره ويتغافل عن مساوئ العاملين لديه أو عن محاسنهم هروباً من مسؤولية التقييم، لأنه عندئذ سيقع حتماً في محذور التقصير في مهامه والإخلال في أداء الأمانة الملقاة على عاتقه.

يقول الإمام علي عليه السلام في عهده للأشتر:

«ولا يكوننَّ المُحسن والمُسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة، وإلزام كلاً منهم ما ألزم نفسه».

ثم ينبغي أن لا يتجاوز المسؤول حدود الحاجة، فيجب حفظ الحيثيات التي لا علاقة لها بالموضوع، فإذا كان التقصير عند العامل في مجال محدود لا يتعدى في الحكم عليه إساءة تقييمه إلى مجالات أخرى لا خلل فيها، كما أن سرعة الحكم على الآخرين قبل التثبت وقبل تقليب الوجوه ومن دون رويّة تؤدي غالباً للظلم والتعدي. وفي الروايات التالية عن أمير المؤمنين علي عليه السلام دلالة على هذه النقطة:

«ولا تعجلنَّ إلى تصديق ساعٍ فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين»، و«قيمة كل امرئ ما يُحسنه»، ويقول عليه السلام أيضاً: «قدر الرجل على قدر همته»، وعنه عليه السلام: «الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق، والتقصير عيّ أو حسد».

ومما لا شك فيه أن العدل والإنصاف يتوقفان على معرفة الحقوق، وهي تارة تكون حقوقاً شرعية فرضتها الشريعة، وأخرى تكون حقوقاً تفرضها العقود وما فيها من بنود منصوصة يتم التوافق والتعاقد عليها، وفي كل ذلك لا بد من الإحاطة الكاملة بمنظومة قبل العمل مصداقاً لقول الإمام علي عليه السلام: «الفقه ثم المتجر» وأمثال ذلك.

○ النصح أو التأنيب:

من واجبات الإدارة أو من وظائفها التوجيه والرقابة، ولكن لكل من هذين الأمرين جملة من الآداب والأصول السلوكية والتي تجعل من الوظيفة منتجة ومجدية.

١ ـ ينبغي أن يكون النصح سراً إذا كان النصح العلني يوجب التوهين. ورد في حديث أمير المؤمنين عليه السلام: «نصحك بين الملأ تقريع».

وعن الإمام العسكري عليه السلام: «من وعظ أخاه سراً فقد زانه ومن وعظه علانية فقد شانه».

٢ ـ الإلتزام بحدود التأنيب الموجب للإصلاح والامتناع عما يدخل ضمن التوهين والانتقام. فعن علي عليه السلام: «إياك أن تكرر العتب فإن ذلك يُغري بالذنب ويُهوّن العتب».

كما أن هذا يجري في حدود المدح والثناء أيضاً: «رب مفتون بحسن القول فيه»، وقد عرضنا بعض النصوص التي لها علاقة بالموضوع.

٣ ـ الحرص على التوجيه الإصلاحي واعتباره واجباً وتكليفاً تجاه العامل قبل أن يكون مسؤولية تجاه الرؤساء. فعن الإمام الصادق عليه السلام:

«من رأى أخاه على أمر يكرهه فلم يردّه عنه وهو يقدر عليه فقد خانه».

٤ ـ التغافل عن الصغير من الأخطاء وليس الغفلة. فإن المطلوب أن يكون المسؤول فطناً دقيقاً في الملاحظة، فيرى كل الثغرات ليحسب لكل شيء حسابه، لكن مما لا ينبغي حصوله هو الاستغراق باللمم لأننا لن نجد من هو خالٍ من كل ثغرة.

والنصوص الواردة في هذا المجال على نوعين منها ما يحث على الفطنة ومنها ما يحث على التغافل. فعن الإمام الصادق عليه السلام:

«صلاح حال التعايش والتعاشر ملء مكيالٍ ثُلثاه فطنة وثُلثه تغافل».

وعن الإمام علي عليه السلام: «من أشرف أخلاق الكريم تغافله عما يعلم».

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «عظّموا أقداركم بالتغافل عن الدّني من الأمور».

وبالإمكان تقسيم التغافل إلى قسمين، أحدهما: ممدوح وحسن وهو ما يدفع للترفع عن الدني ويوجه الاهتمام نحو الثغرات الأساسية والمهمة لمعالجتها، والثاني مذموم وقبيح، وهو ما يأتي نتيجة سوء النية وبقصد نفعي، وعلى خلاف المسؤولية والأمانة.

○ الاستشارة

ورد في الحديث: «من استبد برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركهم في عقولهم».

المشاورة سلوك أخلاقي قبل أن يكون حاجة، وقد يتفرغ هذا السلوك على سجية التواضع المتقدمة، إذ أن الإنسان إذا ابتلي بالعجب والتكبّر، ونظر إلى الغير نظرة دونية، سوف يقوده ذلك حتماً إلى الاستغناء برأيه عن رأي الآخرين والاستبداد دونهم.

من هنا كان المفروض أن يعمل المؤمن على تربية نفسه على هذه الخصال التي تشكل سلسلة مترابطة يجرّ بعضها إلى البعض الآخر.

ومن جهة أخرى فإن المدير المسؤول المعرض للخطأ والاشتباه لا غنى له عن الاستشارة التي تثري لديه الخيارات وتعصف بأفكاره وتفتح أمامه أبواباً جديدة من الرشاد، فعليه أن يدرب نفسه عليها، ويمارسها بشكل دائم، فهي عين الهداية كما ورد في حديث علي عليه السلام: «الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه».

ثم إن الاستشارة لها آدابها وشروطها على مستوى المستشار وطريقة اختياره وعلى مستوى النتيجة وكيفية التعامل مع المشورة، فإذا عرف الإنسان من يشاور وكيف ومتى، ثم عمل بالمشورة التي قدمت له، أصاب الرُّشد وعدم الغيّ وهُدي سواء السبيل.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إنّ المشورة لا تكون إلا بحدودها فمن عرفها بحدودها، وإلا كانت مضرتها على المستشير أكثر من منفعتها له، فأولها: أن يكون المشاور عاقلاً، والثانية: أن يكون حراً متديناً، والثالثة: أن يكون صديقاً مؤاخياً، والرابعة: أن تطلعه على سرك فيكون علمه به كعلمك بنفسك ثم يستر ذلك ويكتمه. لإنه إذا كان عاقلاً انتفعت بمشورته، وإذا كان حراً متديناً جهد نفسه بالنصيحة لك، وإذا كان صديقاً مؤاخياً كتم سرك إذا أطلعته عليه، وإذا أطلعته على سرك فكان علمه به كعلمك به تمت المشورة».

وينهانا أمير المؤمنين عليه السلام عن مشورة بعض الناس فيقول:

«ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك بالفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يُزين لك الشر بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله..»

وبإمكان المسؤول أن يجعل من المشاورة طريقاً لتدريب مساعديه وأعوانه، وتشريكهم معه في تحمل المسؤولية، واختبار قدراتهم وخبراتهم، فيساهم بذلك في تنمية الشعور بالمسؤولية ويزرع روح التعاون.

○ التعاون:

في العمل المؤسساتي لا غنى عن تكامل أفراد الفريق الواحد ليؤدوا عملاً واحداً كبيراً، ولا يتحقق التكامل بين عناصر الفريق ما لم تظهر فيهم روح التعاون بأعلى مستوياته.

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

بل يسعى الإسلام لبناء المجتمع الإسلامي المتوحد والمُتعاون ويعتبره فريقاً متكاملاً فيشبهه تارة بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له

سائر الأعضاء بالسهر والحمى، ويشبه تارة أخرى بالبنيان المرصوص من جهة توادهم وتراحمهم.

وهذا النهج يؤسس لقاعدة إدارية تسري في كل فريق لتحقيق غاية مشتركة، خاصة إذا كانت الغاية مقدسة ترتبط بالرسالة وبناء الإنسان بناءً رسالياً، الأمر الذي يستدعي أعلى مستويات التجرد ونكران الذات، والابتعاد عن الأنانيات، وقد عمل الرسول ﷺ في أول خطوة لبناء هذا النوع من المجتمع على توثيق اللحمة بين أفراده خاصة تلك المرحلة التي كان ﷺ يعدّهم لمواجهةٍ خطيرة، على قاعدة صلبة لا محل فيها للهزيمة، فقام بعملية المؤاخاة بين أفراد المجتمع الإسلامي على الحق والمساواة.

وأهم مدخل لزرع التعاون والتكامل هو التخلص من الأنانيات الفردية، وذلك لأن الأناني لا يرى إلا نفسه، ولا يعنيه من أمر الآخرين شيء، وهذه نظرة ضيقة جداً إلى مصالح الذات، لأن الكثير من السعادات والمنازل السامية الأخروية لا يصل إليها الإنسان إلا من خلال الإيثار والتضحية وخدمة الجماعة ومحبتهم والحرص على مصالحهم.

والمشكلة أن أضرار الأنانية القاتلة تكبر وتزداد خطورة مع زيادة قدرة الإنسان وتوسع دائرة سلطته وتأثيره، فالعامل البسيط المبتلى بالأنانية قد لا يجد مجالاً واسعاً لإرضاء هذا الشعور، فتنحصر دائرة تأثيره في التملص من بعض الأعمال التطوعية والامتناع عن مد يد العون لزميل له وما شابه وهو ضرر محدود، إلا أن هذا الشخص إذا صار في موقع المسؤولية والقدرة على اتخاذ القرار وأصبح بيده من المقدرات والإمكانات الشيء الكثير سوف تظهر أنانيته بشكل أكبر وأوسع، فإذا بها تنخر جسم المجتمع وتفكك عرى المحبة فيه وتقضي على التعاون وتزرع العداء والجفاء والحسد والبغضاء.

ولا تعالج مشكلة الأنانية إلا من خلال التدريب على الإيثار والتضحية والبذل والتحسس بآلام الآخرين ومحبتهم. واستبدال «الأنا» الشخصية بـ «أنا» الجماعة والأمة والمجتمع. فعن رسول الله ﷺ قال:

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى بعضه تداعى سائره بالسهر والحمى».

○ سعة الصدر:

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] في هذه الآية يُخاطب الله تعالى نبيه الذي وصفه بأنه على خلق عظيم وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأنه تذهب نفسه عليهم حسرات، وكلها صفات وسجايا خُلقية تقتضيها القيادة وبالأخص قيادة الأنبياء.

والمقصود من سعة الصدر لين الجانب وحُسن العشرة والتحمّل، لكن دون أن يصل الأمر إلى التآخي تجاه أداء التكاليف والواجبات ونظمة الأمور حفظ الحقوق، والدقة والاستقامة التي لا يجوز التخلي عنها والتساهل فيها.

يقول إمام المتقين أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر في عهده المشهور:

«فألبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة».

ويقول في موضع آخر:

«فاستعن بالله على ما أهمك، وأخلط الشدة بضغث من اللين، وأرفق ما كان الرفق أرفق، واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة، واخفض للرعية جناحك وابسط لهم وجهك وألن لهم جانبك..»

فأكثر ما يُبتلى به ذوو المواقع والمسؤوليات الإدارية ضيق الصدر وقلة التحمل، وسرعة الغضب وقد ورد أنه «لا أدب مع غضب».

وقد يفسد الإنسان بغضبه ما لا يتاح له فرصة إصلاحه بعد ذلك، فتذهب منه الفرص وتغلق أمامه الأبواب، ويقوده ذلك إلى الندم، فعن أمير المؤمنين عليه السلام:

«إياك والغضب فإن أوله جنون وآخره ندم» ويقول عليه السلام أيضاً:

«الحدة ضرب من الجنون لأن صاحبها يندم فإن لم يندم فجنونه مستحكم».

وينبغي أن يعلم أن المتأني الذي لا يسمح للسانه أن ينطلق عند الغضب، فيكظم ويتحمل، مثل هذا الإنسان لن يندم ولن يفوته شيء من حقه، وإن كان محقاً، بل يصبح أقدر على التأمل والتدبّر واختيار خطواته بعيداً عن ردة الفعل والانفعال.

ولنا أسوة بالإمام زين العابدين عليه السلام الذي واجه الشيخ الذي شتمه وأهانه عند دخول موكب الأسرى والسبايا إلى الشام، فواجهه بالرأفة والرحمة والصدر الرحب الأمر الذي قلب الموازين وحوّل ذلك الشيخ إلى محب ومدافع.

○ الصدق والوفاء بالعهد:

الصدق من أهم عناصر التوفيق والنجاح، وإن توهم المتوهمون أنه لا غنى عن الكذب في سبيل الوصول إلى العديد من الغايات والأهداف، ويكفينا الآيات الكثيرة الواردة في مدح الصادقين وذم الكاذبين.

والحقيقة أن هذه المسألة تربوية تُكتسب بالاعتياد وليست دائماً نتيجة حاجة، وإن كانت البداية قد تكون نتيجة حاجة موهومة، في الرواية عن الإمام زين العابدين عليه السلام:

«اتَّقوا الكذب الصغير منه والكبير في كل جدٍّ وهزل، فإن الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير».

ولعل سجايا الخير والشر هكذا تبدأ صغيرة ثم تكبر، يستصعب الإنسان بعض أعمال الخير ابتداء فإذا كرر فعلها صارت عادة وصارت سجية وخلق ربما يستوحش عند تركها، ويستصغر الذنب فإذا ارتكبه هان عليه واستسهل الرتبة التي بعده إلى أن يصل به الأمر إلى التجرأ على كبار الذنوب والمعاصي والاعتياد عليها دون ان يشعر بالرهبة التي رافقت الذنب الأول.

«إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار».

والحديث عن الصدق في القول يجر إلى الحديث عن الصدق بالعمل، أو تصديق القول بالعمل، فإذا وعد المؤمن وفى بوعده، وإذا عاهد عمل بما عاهد عليه، وإذا تعاقد على أمر أداه بدقة وأمانة وإخلاص.

فأما الوفاء بالوعد فيستعان عليه بأمرين:

أولهما: تنظيم الوقت وحسن إدارته.

وثانيهما: التقيد بحدود دائرة القدرة والصلاحيات مسبقاً قبل إبرام الوعد.

وهذا يدخل في دائرة حسن التدبير التي هي من أهم مواصفات المدير، ورد عن رسول الله ﷺ: «إذا أنت هممت بأمر فتدبّر عاقبته فإن يك رشداً فأمضه، وإن يك غياً فانته عنه».

وهذا يعني أن التدبّر قبل إبرام الوعد وقطع العهد وايقاع العقد يُجنب الإنسان من الوقوع بالمخالفة والتقصير.

■ ■ ■

دور التخطيط
في نجاح العمل المدرسي

التخطيط للعمل المدرسي ضرورة للنجاح فيه، والإدارة الفعّالة للمدرسة تنظر إلى العمليّة التعليميّة نظرة عمليّة شاملة وعميقة، وهذا يعني أنها تأخذ بالتخطيط أسلوباً ووسيلة ضرورية لتحقيق أهداف المدرسة، وكلما كان التخطيط أدقّ كلما انعكس ذلك على التلميذ المستهدف من العمليّة وجاءت نتائجه أفضل.

○ **التخطيط المدرسي ينطلق من الإجابة على ثلاثة أسئلة:**

١ ـ ماهو واقع المدرسة الحالي؟ من حيث الإمكانات والتلامذة والأساتذة والأولياء والتجهيزات والوسائل والمناهج والبيئة الاجتماعيّة والقانونيّة وأمثال ذلك.

٢ ـ ما الذي تطمح المدرسة للوصول إليه وما هي الاهداف التي تريد أن تحقّقها؟

٣ ـ كيف يُمكن لها أن تحقّق أهدافها في ضوء الواقع والإمكانات المتاحة والبيئة المحيطة؟

إن الإجابة الدقيقة والواضحة على هذه الأسئلة يشكّل بمجموعه معالم الخطّة التي يجب على إدارة المدرسة وضعها لاستقبال عام دراسيٍّ جديد

منتج وهادف. فالرؤية الواضحة للواقع وللمستقبل والقدرة على تحديد الأهداف الواقعيّة والقابلة للتحقّق ورسم الطريق الموصل إلى تلك الأهداف من بديهيّات العمل الإداري، ولا يُمكن للمدرسة أن تصل بتلامذتها إلى أهدافهم المنشودة ولا يُمكن للمعلمين أن يؤدّوا دورهم المطلوب بشكل كامل ومريح مالم تعتمد المدرسة التخطيط أسلوباً ومنهجاً.

○ أهمّية التخطيط المدرسي:

١ ـ التخطيط يوفّر الوقت ويساهم في استثماره: مع كثرة المهام وتعقيدها وتداخل العمليّات في المدرسة يشكل التخطيط الناظم الذي يوزّع المهام ويحدّد المسؤوليّات ويضع الجدولة الزمنيّة المناسبة للإستحقاقات ممّا يساهم في إنجاز المهام في وقتها المناسب ويمنع الإختناقات ويوفّر الكثير من الوقت الذي يهدر عادةً في تصحيح المسارات واستدراك الأخطاء وحلّ المشكلات التي تنشأ من الفوضى وانعدام التخطيط. والتخطيط للدروس يسهم في استثمار وقت الحصّة بشكلٍ كامل، خاصّة مع محدوديّة الوقت المتاح أمام التلامذة لتحقيق المكتسبات من المعارف والمهارات والمواقف.

٢ ـ التخطيط يساهم في استثمار الموارد والطاقات بشكل أفضل ويحول دون هدر الكثير من الإمكانات.

٣ ـ التخطيط يضع النشاطات المدرسيّة المختلفة في نسق واحد ويحول دون تضاربها في التوقيت والمكان وعلى مستوى الموارد المشاركة في إنجازها أوالمستهدفة منها. خاصة عندما يُكمل بعض هذه النشاطات الآخر ويترتّب عليه.

٤ ـ التخطيط يدفع الإدارة للتنبّؤ بالمشكلات قبل حصولها. فيمكن وضع

إجراءات وقائيّة لها ويمكن الحدّ من آثارها السلبيّة بالعمل المبكّر والإحتياط اللازم.

٥ ـ التخطيط يضفي جوّاً مريحاً على بيئة العمل، سواءً بالنسبة للمعلم أو الناظر أو التلميذ، فهو يخفّف من ضغط العمل ويحول دون الكثير من التعقيدات ويحدّ من المشاكل، وهذا له أثره النفسي الإيجابي.

ولكي لا نبقى في العموميّات ننتقل إلى التفاصيل:

○ ماذا يعني اليوم المدرسي الأول؟

بالنسبة للتلميذ اليوم المدرسي الأول هو دخول إلى عالم جديد يشعر فيه بالغُربة والرهبة، لأنّه مكان جديد عليه، وعادات غير مألوفة، وأشخاص جدد عليه التعامل معهم وهو لايعرفهم، وزملاء لم يلتقهم في السابق، ومستوى جديد من الجدّية والمسؤوليّة.

من جهة أخرى التلميذ ربما لم يكن قد اعتاد على الإبتعاد عن أُمّه بهذا القدر مما يحدث له فراغاً عاطفيّاً يضاف إلى الحاجة الماسّة لها الآن لإشعاره بالإطمئنان في هذه الغربة وإخراجه من التهيّب. كل هذا يساهم في جعل اليوم المدرسي الأول كابوساً بالنسبة للتلميذ.

وبالنسبة للمدرسة: اليوم المدرسي الأول من أكثر الاستحقاقات أهميّة، ويحتاج إلى استنفار لكامل الطاقات المتوفّرة والموارد البشريّة للقيام بما يلي:

١ ـ استقبال التلامذة: وللقيام بالمهام على أكمل وجه تلجأ المدارس الكبيرة إلى توزيع عمليّة الإستقبال على عدّة أيام فتستقبل في كل يوم شريحة معينة، إمّا حلقة دراسيّة أو صفّ محدّد، إدراكا منها لأهميّة القيام بالخطوات اللازمة لإستقبال منتظم من جهة وللحيلولة دون الوقوع في

الإرباك والخطأ ولاستيعاب الأعداد الوافدة من التلامذة في أنشطة اليوم الأول.

٢ ـ أنشطة اليوم الأول: تتضمن أنشطة اليوم المدرسي الأول للتلميذ الذي يدخل المدرسة للمرّة الأولى مجموعة من الألعاب والفعّاليّات المحبوبة التي تهدف إلى بناء صورة إيجابيّة للمدرسة في ذهن الطفل، وإخراجه من حالة التهيّب والوجل التي يعاني منها، هذه الأنشطة تغريه بقبول الإبتعاد عن أمّه وبناء علاقة جديدة بالمربّيات اللواتي سيرافقنه في أيام المدرسة، يجب أن يخطّط لهذه الأنشطة بدقّة لتحقّق أهدافها الترفيهيّة والنفسيّة، ويجب أن تكون مشوّقة وقادرة على الجذب والتأثير الإيجابي السريع، لأن النشاطات الترفيهيّة المعتادة التي هي بمتناول الطفل خارج المدرسة قد لا تشكل عنصر جذب وتشويق له.

٣ ـ تحقيق الاندماج: بعض البرامج البسيطة تؤدّي دوراً فاعلاً في دمج التلميذ في المجتمع المدرسي الجديد، مثل تعريف المعلمين عن أنفسهم وتعريف تلامذة الشعبة على بعضهم، وتعريف التلامذة على الإدارة والنظارة، عبر تنظيم جولة للصف على مرافق المدرسة والتسليم على الناظر والمدير.

٤ ـ تنظيم النقل المدرسي: من الضروري في اليوم الأول أن تكون الإدارة قد أنجزت توزيع وسائل النقل على الخطوط المحدّدة ونظّمت لوائح التلامذة الموزّعين على الباصات، وأصدرت البطاقة الخاصة بالتلميذ التي تحدّد رقم الباص وإسم السائق والمنطقة وزقم هاتف السائق، ليتمّ توزيعها على التلامذة في اليوم الأول للحيلولة دون الوقوع بالفوضى والإرباك،

٥ ـ تحديد الشعب: هذه المهمّة تتطلّب إعداد لوائح التلامذة المسجّلين

وتوزيع التلامذة على الشُّعب وفق معايير محدّدة مسبقاً ووفق السياسة المعتمدة من قبل المدرسة، وتحديد الفصول الخاصّة بكل شعبة بحيث يتم إرشاد التلامذة بعد انتهاء مراسم الإستقبال إلى الفصل الخاص بهم، كما أن ترتيب جلوس التلامذة داخل الفصل يحتاج إلى شيء من الدقة لرعاية الطول والقدرة على مشاهدة اللوح والأستاذ والمشاركة الفاعلة لاحقاً.

٦ ـ التعريف بالنظام المدرسي (الدوام اليومي، الفرص، وقت الصلاة، الخروج من الصف، الامتحان، الترفيع، الثواب والعقاب، الغياب، الضوابط السلوكية، العُطل المدرسيّة...): هذا الموضوع له أهمّيته، حيث أن شرح الأنظمة المدرسيّة للتلميذ يساهم مساهمة مباشرة بالحدّ من الأخطاء والمخالفات، كما أنه من الضروري تعريفه على واجباته، وتعريفه بالمحظورات والممنوعات، ومن المناسب جداً ربط ذلك برسالة المدرسة وقيمها للإبتعاد قليلاً عن الروح السلطويّة والإقتراب من الأداء التربوي. التجربة أثبتت أنّ الشرح التفصيليّ للأنظمة والواجبات والمحظورات في مستهلّ العام الدراسي يحدّ من التجرّؤ على المخالفة، لأنّ التلميذ في البداية يمتلك إستعداداً للإلتزام وليس لديه نوايا عدوانيّة مسبقة، فينبغي مساعدته على الحيلولة دون ارتكاب الخطأ.

٧ ـ وضع جدول توزيع الحصص والدروس: من المؤشرات الإيجابية التي تترك انطباعاً حسناً عند التلميذ والأهل قدرة المدرسة على إعداد جدول توزيع الدروس منذ اليوم الدراسي الأول، خاصةً مع اكتمال كل المعطيات الخاصة بالمعلمين.

من كل ما تقدّم يظهر أن التخطيط المُسبق والإعداد الصحيح للعام الدراسي من شأنه أن يسهّل إنجاز الكمّ الهائل من الاستحقاقات في مواعيدها وبشكل كامل وصحيح، ممّا يضفي جواً من الإرتياح على التلميذ

والأهل والعاملين على السواء، ويساهم في تحقيق أهداف المدرسة أو تمهيد الأرضيّة المناسبة لذلك، وفي المقابل يُمكن التأكيد بأن العام الدراسي الذي يبدأ يومه الأول بالفوضى والإرباك سيكون عامراً بالاختناقات والإرباكات والأزمات، وسنجد أن الأجواء المشحونة نفسياً سوف تكون رفيق الأيام على كافة المستويات.

○ التخطيط للتعليم:

لاتقتصر أهمّية التخطيط على الجانب الإداري ولا على ما يرتبط باليوم المدرسي الأول، وإنّما جرى التركيز عليه لأنّنا على أبواب عام دراسيّ جديد، بل التخطيط للتعليم لا يقلّ أهمّية، وهو يرتبط مباشرة بالهدف الذي قامت من أجله المدرسة، التخطيط للتعليم له مستويات كلها ضرورية، سأتناول هنا ما له علاقة بالمعلم خاصّة دون ما له علاقة بالمستوى الوطني والمؤسساتي، أي التخطيط على مستوى الوطن والسياسات التربويّة العامة والكتاب المدرسي وأمثال ذلك:

١ ـ التوزيع السنوي للمادة التعليمية: فعندما تكون الأيام الدراسيّة معدودة والحصص التعليميّة المخصصة للمادة محدودة كما هو الحال، فلا بدّ من وضع مخطط لتوزيع المادة على الحصص المتاحة يراعي مواعيد الإختبارات والأصول المتّبعة في التعليم، أهمية هذا التوزيع أنه يشكل دليلاً زمانياً للتنفيذ، من دونه يتعرّض المعلم لمفاجآت انتهاء الوقت وتصرم الأيام دون إنجاز المطلوب، وهذا له تأثير قاتل على متابعة التحصيل العلمي في السنوات اللاحقة.

٢ ـ التحضير اليومي أو الأسبوعي: وهذا المستوى من التخطيط يقوم به المعلم ليرسم من خلاله خريطة العمل داخل الصف لكي لايخبط خبط

عشواء، ولكي لايرتجل الخطوات ارتجالاً، ويجب أن يبدأ التحضير بتحديد أهداف الحصة التعليمية بشكل دقيق ومعياري وقابل للقياس، ثم تحديد الخطوات التي سيتبعها المعلم ليوصل تلامذته إلى تلك الأهداف، والوسائل التي سيستعملها ويستعين بها، ثم الطريقة المناسبة التي سيلجأ إليها للتحقّق من الوصول إلى الأهداف...

٣ ـ التخطيط لاستكشاف الخلل عند التلامذة واستدراكه عبر برامج استثنائية داعمة تحول دون تخلّف بعض التلامذة عن ركب الصف، وبالتالي إكساب التلامذة مافاتهم إكتسابه مع زملائهم في الحصة التعليمية.

إن الكثير ممّا يعاني منه المعلمون داخل صفوفهم من مشكلات يرجع إلى عدم التحضير أو الخلل فيه، وينتج عن ذلك سوء إدارة الصف، وعجز التلامذة عن تحقيق المكتسبات المطلوبة، وبالتالي الحدّ من الحماس، وتفاقم الاحباط.

ما يجب التأكيد عليه أنّ هذه الأمور ليست من قبيل الترف وإنما هي مسؤولية تصل إلى مستوى التحكّم بمستقبل التلميذ واتجاهه العلمي والمهني، كم من تلميذ ترك المدرسة نتيجة موقف من معلم أو ناظر، وكم من تلميذ عدل اتجاهه المهني نتيجة تأثّره بمعلم أو ردّة فعله على حادثة، فهل ندرك خطورة دورنا وحجم مسؤوليّاتنا؟!

■ ■ ■

أهمية التدريب وتطوير المهارات

رسالتنا التربوية هي تنمية بشرية بامتياز، بل هي هندسة بشرية ترسم معالم الإنسان في أبعاده الفكرية والمعرفية والثقافية والروحية والاجتماعية وغير ذلك، وهو يقتضي بالضرورة توفير مستلزمات عملية الهندسة والبناء من إمكانات وقُدُرات وموارد مادية وبشرية قادرة على النّهوض بأعباء هذه المسؤولية وتحقيق نتائج تتناسب مع المطلوب.

إنّ أول مراحل البناء هي بناء الموارد البشرية، في الرؤية المستقبلية التي خرجت بها ورشات العمل التي أُقيمت في المؤسسة في آذار الماضي، جرى الإلتفات إلى أنّ كل ما نطمح للوصول إليه يقوم ويبتني على «إمتلاك المؤسسة لجهاز مدرّب ومحترف ورسالي».

ثم إنّ مؤسسة بحجم المؤسسة الإسلامية للتربية والتعليم التي يدير العملية التربوية فيها اليوم جهاز مؤلّف من أكثر من ١٢٠٠ معلم وإداري وعامل في مختلف الحقول، لا يمكنها أن تعتمد في تدريب العاملين وتطوير مهاراتهم على مراكز التدريب حصراً، وليس أمامها من خيار إلا الاعتماد على إمكاناتها الذاتية وكوادرها في التأهيل والتطوير، لأسباب متعددة.

من هنا كان مشروع إعداد المدربين، وهو مشروع طالما فكّرنا به وتحدثنا عن مستلزماته، وهو الآن يتحول من فكرة إلى مشروع ثم إلى برنامج عملي ينطلق على بركة الله.

لديّ نقاط أودّ توضيحها في هذا اللقاء:

١ ـ الإخوة والأخوات الذين وجّهت إليهم الدعوة للمشاركة نعلّق عليهم الآمال ونتوسم فيهم الاستعداد والحرص والإخلاص وهي أمور مهمّة لاستمداد التوفيق والتسديد والرعاية الإلهية والنجاح.

وهناك العديد من الإخوة والأخوات الذين لم يتم إشراكهم ولم تتم دعوتهم هم أيضاً لديهم المؤهلات والاستعدادات التي تجعلهم محطّ أنظارنا إلا أنّ هذه المرحلة لا تستوعب سوى عدد محدود جرى الاقتصار عليه لأسباب تقنية ولأجل إدراك المطلوب، وقد يكون هناك مراحل لاحقة إذا ما تبيّن هناك من حاجة وتوفّرت الفرصة والإمكانات.

٢ ـ ينبغي أن ندرك أن تطوير المهارات وبناء الاستعدادات الذاتية والقدرات هو جزء من العمل الجهادي وهو جزء من مشروع حزب الله الكبير في تنمية موارده البشرية في مختلف المجالات الضرورية لمواجهة التحديات وتلبية الحاجات وبناء المجتمع الذي يريد.

٣ ـ هذا المشروع يساهم في جعل المؤسسة قادرة على تقديم الأنموذج الرائد في التربية والتعليم كما ورد في الرؤية المستقبلية، وكما يتوقّع منا العالم الذي يتطلّع إلى تجربة حزب الله في المقاومة وفي السياسة وفي الثقافة، وينتظر منا أن نقدّم له تجربتنا في التربية بنفس المستوى من التألق والريادة.

٤ ـ المسؤولية الملقاة على عواتقنا في المؤسسة قد لا تقف عند حدود مدارسنا الحالية وبعض ما يُمكن أن يستجد نتيجة التوسّع الأفقي والعمودي، بل يجب أن نلحظ أنّ المستقبل سيفرض علينا (شئنا أم أبينا) وبفضل الانتصارات والتحوّلات الاجتماعية والدينية الكبيرة، ـ سيفرض علينا ـ

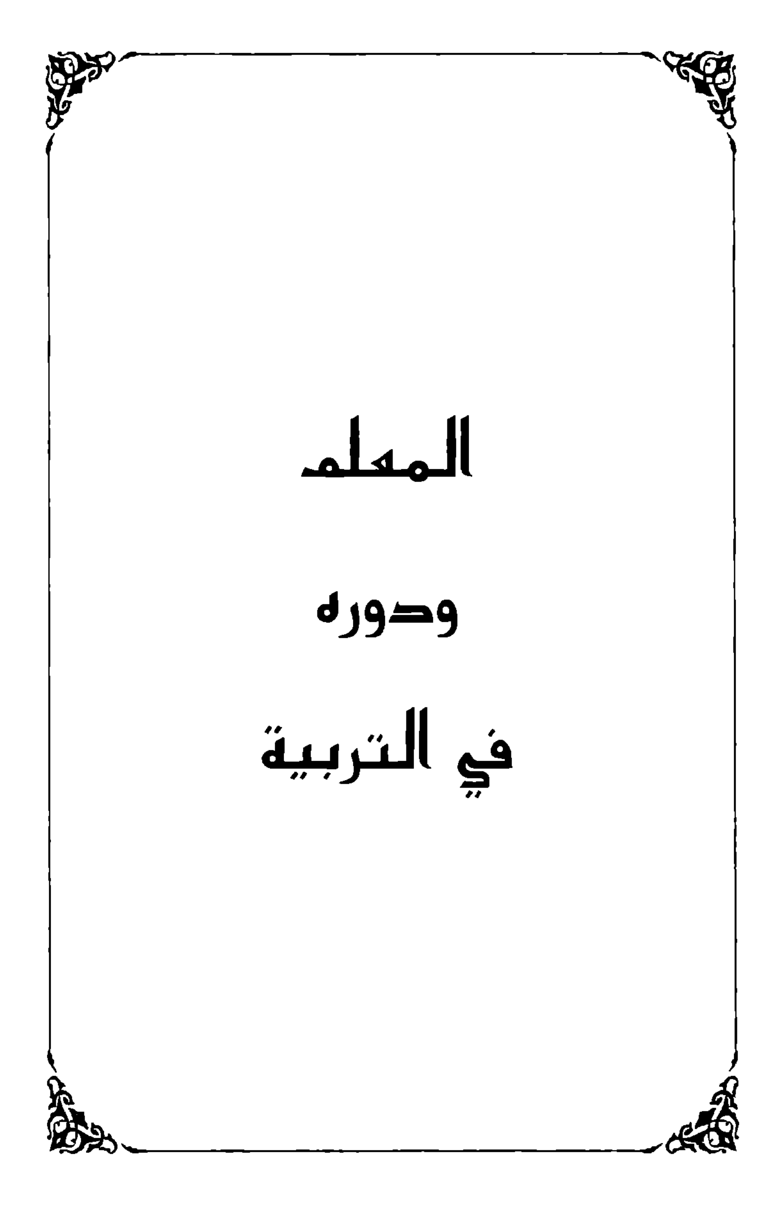
مسؤوليات جديدة تجاه العمل التربوي خارج حدود الوطن، وربما تجاه مؤسسات أخرى داخل حدود الوطن، وهذا نتاج طبيعي للنجاح والتألّق فينبغي توسيع أفق الرؤية والاستعداد.

٥ ـ نحن نبني جيل المهدي عليه السلام ونعدّ العدّة للتمهيد لدولة صاحب العصر والزمان، والشباب هم دعامة جيشه ودولته (فجيش المهدي عليه السلام شباب لا كهول فيهم إلا كالكحل في العين أو الملح في الطعام وأقل الطعام الملح)، مما يفرض علينا أن نكون بحجم هذه المسؤولية وبمستوى متطلباتها، وأن نستحضر هذه النقطة في كل مراحل عملنا، لأنها تعطينا الوقود الخاص للإنطلاق، ونوع معيّن من الدافعية لمواصلة الطريق رغم الصعوبات والتحديات.

٦ ـ الحماس الذي شَهِدناه من الجميع تجاه هذا المشروع يبعث الأمل والتفاؤل، إلا أنّ المثابرة ومواصلة الطريق من أساسيات النجاح، وكلنا ثقة بأنّكم سوف تكونون عند مستوى المسؤولية وعند حُسن ظن قائد مسيرتنا الأمين العام، وقرة عين لسيدنا ومولانا صاحب العصر والزمان أرواحنا لتراب مقدمه الفداء.

شكراً لكم والسلام عليكم

■ ■ ■



المعلم

ودوره

في التربية

الرسول الأمي معلماً

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

في عيد المولد النبوي الشريف تعود بنا الذكرى إلى تلك الإشراقة التي ملأت الدنيا نوراً، بدّد ظلمة الجاهليّة. وكشف للبشريّة طريق الكمال. ودلها على الحياة الخالدة الحقيقيّة.

وصف القرآن الكريم الرسول الأكرم ﷺ بأنّه النبيّ الأمّي. قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾ إلى قوله ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧ ـ ١٥٨].

واللافت أن القرآن الكريم لم يورد هذه الصفة في سياق الذم قطعاً، ولا في سياق إظهار نقطة نقص في الرسول ﷺ، بل في مجال التأكيد على أهمّية اتّباعه والاقتداء به والوصول إلى الهداية، فالنبيّ الأمّي كان معلماً للأمّة، بل هو المعلم الأعظم والأهمّ في تاريخ البشريّة فكيف يكون الأمّي معلماً؟!

القراءة والكتابة التي اعتبرت باستمرار مفتاح الخروج من دائرة الأمّية إنما هما وسيلتان من وسائل التعرف على المضمون الذي تدلّ عليه الرموز المكتوبة والتي تمثّل الوعاء لتوثيق العلوم والمعارف ونقلها وتبادلها،

والقراءة تمثّل قدرة على فكّ رموز الكلمة المكتوبة لاستعادة المضمون والمختزن. فعندما يصل الإنسان إلى منبع العلوم والمعارف مباشرة وبلا واسطة، لا يبقى هناك من ضرورة لأداة ولا وسيلة ولا لرموز تعبر عنها، وهذا هو حال الأنبياء الذين فتح الله لهم أبواب الهدى، وسدّدهم بالوحي وأغناهم عن اكتساب علوم الناس بالأخذ بأيديهم ومداركهم إلى المصدر الأساسي لكلّ علم، فأكمل لهم عقولهم، وطهّر قلوبهم، وفتح بصائرهم، وكشف لهم عن حقائق الأمور.

هنا لا بد من الإشارة إلى نقطتين:

النقطة الأولى: المعلم لا بدّ أن يكون عالماً، فإنّ فاقد الشيء لا يعطيه، وكلما ازداد المخزون العلميّ لديه صار أقدر على إفادة غيره والإفاضة منه عليه، فالإناء ينضح بما فيه، وفي سبيل اكتساب العلم لا بد من توفر مصادر العلم ووسائل الوصول إليها وامتلاك الوعاء القادر على التلقّي والاستيعاب، وتتوقف مراتب العلماء على هذه الأمور الثلاثة، ولا يستغني المعلم عن امتلاكها، فالمعلم يبدأ بتعليم نفسه، كما قال علي عليه السلام:

«من نصّب نفسه إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم» [قصار الحِكَم، ٧٢].

مصادر علم الرسول صلى الله عليه وآله على نحوين:

الأول: ما خصّه الله به من وحي أنزله على قلبه بشكل مباشر منه تعالى أو بواسطة ملك الوحي جبرئيل أو بالإلهام والإلقاء في النفس. وهو علم النبوّة الذي لا يُمكن للناس الوصول إليه إلا بالرجوع إلى الرسول صلى الله عليه وآله.

الثاني: مشترك مع باقي البشر، يستبقون للوصول إليه، ويتميّز فيه الرسول عن غيره من البشر بدرجة الكمال والعصمة والطهارة وامتلاك الوعاء

الأوسع والأهليّة الأكبر على التلقي. ممّا يمنحه مساحة من العلم والمعرفة تكاد تصبح خاصّة به، ولكنها ليست حكراً بالأصالة ولا محجوبة عن غير الرسل، بل يصلون إليها بالسبق والتقدّم.

وهناك تفاوت كبير بين الناس في أوعية العلم لديهم، وفي القدرة على التلقي والاستيعاب، يشير علي ﷺ إلى هذه الأوعية بقوله: «يا كميل.. إنّ ها هنا لعلماً جماً (وأشار بيده إلى صدره) لو أصبت له حملة، بلى أصبت لقِناً غير مأمون عليه..كذلك يموت العلم بموت حامليه» (قصار الحكم، ١٤٧).

ووعاء العلم وإن كان يتسع بالعلم، إلا أنّ أصل الاستيعاب والقدرة على التلقي ترتبط بشكل كبير بنقاء النفس وطهارتها من الأدناس التي تفسد القلب وتضعف البصيرة حتى تعميها، مما يعني أنّ الارتباط وثيق بين التعلم والتربية وبين العلم والعمل.

وعن الإمام الصادق ﷺ: «إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء فإن تاب انمحت وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها ابداً» (الكافي: ٢/ ٢٧١).

وإذا توفرت مصادر العلم النقيّة، والأوعية القادرة على التلقي والاستيعاب، جاء دور البحث عن الوسائل والأدوات، وهي متنوعة وكثيرة وقابلة للتطور.

النقطة الثانية: لكي يتحوّل العالم إلى معلم، يحتاج إلى مهارات وقدرات إضافية تمكنه من نقل علومه ومعارفه إلى الآخرين. ولا يكفي في هذا المجال تدوين العلم، حتى التدوين له شروطه وأساليبه. ولذا كان التعليم مهارة خاصة تكتسب، ولعلّ أهمّ ما ينبغي للمعلم أن يعمل عليه هو التحوّل إلى قدوة. فالمعلم قدوة المتعلم، في أخلاقه وسجاياه ومواقفه. هو

مثال يجسّد كل ما يحمله من مبادئ وعلوم وقيم، ودور المعلم القدوة أكثر تاثيراً وفعّاليّة، لأنه يصعب على المتعلم أن يفكّك بين القول والقائل، بين العلم والمعلم، فهو يرى في سلوك معلمه وفي صدق أفعاله ومواقفه، وفي الانسجام بين قوله وعمله دليلاً وجدانياً على واقعيّة المضمون وصحّة المعنى. فمن المخاطر التي تهدّد دور المعلم في الصميم أن يصبح طبيباً يداوي الناس وهو عليل. ولذلك دعا أئمتنا إلى اعتماد أسلوب التأثير بالقدوة حيث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «كونوا دعاة لنا بغير ألسنتكم».

وهذا هو السر في بعثة الأنبياء الذين اختارهم الله تعالى لأنهم كانوا يمثلون القدوة والمثال فهم أكمل الناس عقولاً وأطهرهم نفوساً وأقومهم مسلكاً وأصدقهم لساناً وأصوبهم فعلاً وأكرمهم أخلاقاً وأكثرهم ثباتاً واستقامة. ولا يدعون الناس إلى خير إلا ويسبقونهم إليه، ولا يأمرونهم بمعروف إلا ويجسّدونه بفعلهم قبل قولهم.

هذا الأمر هو الذي منحهم الأهليّة لقيادة حركات التغيير والإصلاح التي كانت دائماً هدفاً أساسيّاً للرسالات السماويّة.

رسول الله صلى الله عليه وآله كان أمياً إلا انه كان المعلم الأكبر لهذه الأمة، لم يكن بحاجة إلى القراءة ليتعلم العلم عبرها، وليقرأ ما كتبه الآخرون، وهي مسألة لها ارتباط وثيق في الجانب الإعجازي للكتاب الذي نزل عليه، ومن أجل إثبات الارتباط بالوحي، وإبعاد شبهة التعلم بالوسائل المعروفة، قال تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

إذاً الأمّية عند رسول الله صلى الله عليه وآله نقطة قوّة اقتضتها الرسالة والمعجزة الخاصة، وإن كانت نقصاً وضعفاً عند عامّة الناس، لذلك كانت أوّل كلمة نزل بها الوحي القرآني هي كلمة ﴿ٱقْرَأْ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧].

■ ■ ■

دور المعلم في عصرنا
بين الواقع والمرتجى

في إطار اتجاه المجتمعات في العصر الحاضر نحو التخصّص، أخذت المدرسة الحديثة على عاتقها جزءاً كبيراً من المسؤولية التعليمية والتربوية التي كانت ملقاة على عاتق الأبوين بالكامل تقريباً، خاصة أنّ الأهداف والكفايات التعليمية وربّما التربوية باتت تصاغ مركزياً على مستوى الوطن بل الأمّة. ولا شكّ أن المدرسة الحديثة استطاعت أن تبني ثقافة علميّة متنوّعة وواسعة، وعملت على إكساب الطالب كمّاً هائلاً من المعارف العلميّة، إلا أنها لم تعمل بموازاة ذلك بالقدر الكافي على بناء شخصيّة الطالب، وتنمية قدراته، ومهاراته العمليّة إلا في حدود ضيقة، تقتضيها أحياناً طبيعة الاختصاص.

أما في مجال بناء القيم الإنسانية فلم تبذل الكثير من الجهود لإدخالها في سياق أهداف المدرسة، رغم أن العلاقة بين المعارف والمهارات والقيم تجعل التفكيك بينها يمثل تحطيماً للإنسان، حتى أن الوزارات المعنيّة كانت تسمّي نفسها «وزارات المعارف» كنوع من الإقرار ـ ربما غير المقصود ـ بأنها تُعنى بالجانب العلمي والمعرفي فحسب، وحتى بعد أن نزعت هذه الوزارات إلى تغيير تسمياتها إلى «التربية والتعليم» بقيت تمارس ذات الدور الذي لا يولي التربية ولا بناء القيم العناية المرجوّة.

○ دور المعلم في بناء الإنسان:

المعلم يحتلّ الموقع الأهم في عمليّة التربية والتعليم في المدرسة المعاصرة، ولا نقلّل من أهمّية المناهج والوسائل والأنظمة الإدارية والأجهزة الموازية التي تقوم بخدمة العملية التعليميّة وإدارتها وتنظيمها، وإنما نريد الإلفات إلى أن إيصال المناهج والوسائل والأنظمة إلى أهدافها رهن بدور المعلم وقدرته على الاستفادة منها بشكل صحيح، واستخدامها بمهارة وإتقان، وتسخيرها لخدمة الهدف.

المعلم إذن هو صاحب الدور الأهم والأخطر في العمليّة، وهو الذي يمسك بكافة أطرافها، وهو الذي يتعامل مع التلميذ بشكل مباشر، فينسج بيده خيوط آماله وتطلّعاته وأحلامه، ويرسم بيده معالم شخصيّته، ويغذّيه بالعلم والمعرفة يوماً بعد يوم، وهو الذي يأخذ بيده نحو المستقبل.

وهنا تكمن خطورة الدور وأهميّته وحساسيّته. فهو يختلف تماماً عن العامل في المصنع أو المزارع في الحقل أو الموظف في متجر... فهناك إذا أخطأ العامل أو الموظف أو المزارع، أو قصّر في واجباته يترتّب عليه خسارة مادّية محدودة أو ضياع موسم زراعي أو فرصة من الربح، وهو أمر ربما يكون قابلاً للتعويض، ولو لم يعوّض فهو قابل للاحتمال. أما المعلم فإنّه يقوم بصنع الإنسان، فإذا أساء الطريقة، أو قصّر فضاعت الفرصة، أو أخطأ الهدف لا سمح الله، فالنتيجة تزويد المجتمع بإنسان منحرف أو فاشل، أو مفسد، أو عاجز، حيث لا فرصة حقيقية للتعويض والجبران والإصلاح.

فالمعلم إما أن يُحيي الأنفس التي ائتمن على تربيتها وتعليمها وإما أن يُميتها، لأن الحياة الواقعيّة ليست بالحركة والتنفس وخفقان القلب، وإنما

هي بالوصول إلى سموّ الذات وطهارة النفس وصفائها، هذه الحياة هي التي يترتّب عليها فاعليّة الإنسان وصلاح منهجه، وصوابيّة أهدافه.

يقول الإمام القائد السيد علي الخامنئي لجمعٍ من المعلمين:

«... في أي حلقة درس كنتم، وفي أي ظرف أو محيط حللتم، في الجامعات وأمام الطلاب، في المراحل العليا أو في الثانويات أو في المدارس الابتدائية أو التمهيدية، في الحوزات العلمية، وفي أي محيط تعليميٍّ... فأنتم محور حركة المجتمع، وأنتم أيها المعلمون ميزان العمل الصحيح في المجتمع، المهم أن تؤدّوا دوركم في تعليم الآخرين...

ثمّ يقول: إنه لمهمٌّ جداً أن يؤدّي الإنسان دوراً حسّاساً وأساسيّاً في بلده ومجتمعه، مهمٌّ جداً أن يعمل على رفع مستوى المجتمع المحيط به، من هنا كانت حرمة المعلم ومكانته في المجتمع، وتكريم الناس لمقام المعلّم».

ويخاطب الإمام الخميني (قدس سره) المُعلمين:

«يجب أن تنتبهوا كثيراً إلى أنّكم لستم أناساً عاديّين، فأنتم معلمون لجيل ستوضع مقدّرات البلاد في المستقبل بين يديه».

○ التعليم بين الوظيفة والرسالة:

السؤال الذي يطرح نفسه هنا بعد ما تقدّم: هل يدرك المعلم في عصرنا الحاضر كل ذلك عندما يختار التعليم كعمل ووظيفة، أو عندما يدخل إلى قاعة الصف، أو عندما يتصرّف مع التلامذة ويتعامل معهم يومياً؟!

لن أجيب على السؤال وأترك لكل معلم حرّية الإجابة، ولو بينه وبين نفسه، وأنتقل إلى وصف الواقع، ثمّ أبيّن ما نرجوه وما نتطلّع إليه.

عندما يكون الدافع للدخول إلى قطاع التعليم والتربية هو كسب لقمة

العيش والحصول على ما يعين على تأمين مستلزمات الحياة ولو بالحدّ الأدنى، فهذا دافع مشترك يقف وراء خروج الإنسان إلى أيٍّ ساحة عمل، أياً كان العمل الذي يتمّ اختياره أو يفرض عليه أويتورّط به. فقد يكون التعليم بنظر البعض هو العمل الأيسر والأسهل، لكن يفاجأ بعد ذلك بالمتطلبات الفنية والمهارات التي يلزم بالتدرّب عليها، والمعارف التي يُطلب منه اكتسابها، ممّا له علاقة بالدور والمهمّة.

لعلّ القلّة من المعلمين من اختار التعليم لإدراكه أنه رسالةٌ ومسؤولية، النادر من المعلمين من يذهب إلى المدرسة مدركاً أنه يذهب إلى ساحة جهاد (بالمعنى الديني للجهاد)، أي أنه تكليف شرعيّ يتعلق بتغيير الواقع الثقافي والاجتماعي والتربوي للأمة، وإصلاح المجتمع والارتقاء به، وبناء الإنسان وفق الصورة التي أرادها الله تعالى، والتي بها كرّمه على بقية مخلوقاته، مؤمناً تقياً، عاقلاً مدبّراً، قوياً عزيزاً، فاعلاً مؤثّراً... إلخ

على مستوى الأداء، وعلى مستوى الأسلوب والطريقة، وعلى مستوى الأهداف التربوية والتعليمية، فرق كبير بين ممارسة التربية والتعليم كوظيفة وممارستها كرسالة، الوظيفة تؤدّى للحصول على الأجرة، المادية أو المعنوية (الراتب والرتبة)، والرسالة تؤدّى للوصول إلى هدف يتبنّاه المربي والمعلم ويؤمن به، ويشعر بالمسؤولية تجاهه، بقطع النظر عن المردود المادي والمعنوي.

مهمة التربية والتعليم، خطورتها أنها لا تتحقّق نتائجها المرجوة ما لم ترتكز على البعد الرسالي، لأنها على مساس مباشر بصنع الإنسان ـ كما قدّمنا ـ وتشكيل قناعاته وما يتبنّاه من منظومة قيم، وما له من أحاسيس ومشاعر، وليست مرتبطة بخدمة تؤدّى له فحسب.

○ المعلم أو المُربي:

قد يستعمل مصطلح التربية بمعناه اللغوي الذي هو التنمية، فيشمل تنمية معارف الإنسان وقدراته ومواقفه، بل يشمل أيضاً تنمية جسده وقواه الجسدية، كما يقال تربية الدواجن وتربية المواشي التي لا يبتغى منها إلا الجانب الجسدي. هذا الاصطلاح يشمل التعليم باعتباره تنمية معارف ومهارات. لكن التربية قد تستعمل بمعنى أخصّ يقتصر على الجانب السلوكي وزرع القيم والمواقف السلوكية فحسب، ونحن سنستعمل التربية بالمعنى الثاني هنا للتمييز بين دورين يقوم بهما المعلم.

ليس بإمكان المعلم إلا أن يكون مربّياً، حتى عندما يُهمل تحديد أهدافه التربوية ويحذفها من دائرة اهتماماته ويسقطها من حسابه عند التخطيط للدرس، فهو بالحقيقة يمارس تربية غير ممنهجة، ربما تكون تربية سلبيّة ولو عن غير قصد، أومن غير إلتفات، لأن أيّ معلم هو يحمل بلا شكّ جملة من القناعات والقيم والعادات والسجايا الأخلاقية (صحيحة أو فاسدة)، وهي تظهر في تصرّفاته وسلوكه وفي فلتات لسانه وطريقة تعامله مع التلميذ والنظام والزملاء وكل ما يحيط به، وبالتالي فهو يجسّدها في كل واقعه، الأمر الذي يترك تأثيره المباشر أو غير المباشر على تلامذته، فهو يمارس التربية عن غير قصد ومن دون وعي، فهي تربية غير هادفة وغير منهجيّة.

○ ما هو المطلوب والمرتجى

ما يجب على المعلم (المُربي) أن يقوم به، وعلى المدرسة (كمؤسسة تربوية مسؤولة عن وضع المناهج)، بل على الدولة الأمينة والعارفة لمسؤوليّاتها، هو إدخال التربية بالمعنى الأخصّ في جملة الاهتمامات، ووضعها على رأس الأهداف التي يتمّ تحديدها وتصنيفها والتخطيط لها،

ووضع البرامج والمناهج والأنشطة التي توصل إليها. ويجب اختيار الطرق والأساليب المناسبة والوسائل المساعدة والمؤثّرة، لتصبح المدرسة والمناهج للتربية كما هي للتعليم.

عندما يحدّد المعلم لنفسه، أو يُحدَّد له، الكفايات الخاصة بمادته التعليمية، يجب أن توضع ضمنها أو إلى جانبها كفايات ذات بعد تربوي، قيَمي، أخلاقي. وهو ما يطلق عليه في المصطلح الحديث المواقف والاتجاهات لتدخل في خطة الدرس، أو خطة المادة، في التحضير والتقييم والطرائق المختارة.

وعندما يتم إعداد المعلم أو تأهيله، لا يكفي إكسابه المهارات والمعارف التي تتطلبها الكفايات التعليميّة، وإنما ينبغي إكسابه المهارات والمعارف التي تتطلبها الكفايات التربوية.

وهنا الموضوع أصعب، فإذا أمكن اعتماد أسلوب المحاضرة أحياناً في إيصال التلميذ إلى الأهداف المعرفيّة، فإن أسلوب المحاضرة هو الأضعف تأثيراً في التربية، وإذا كنا نبذل جهوداً كبيرة في التحضير للأنشطة ذات الطابع العملي والمعرفي، والتأكيد على الطرق الناشطة فيها، فإنه من باب أولى يجب بذل جهود مماثلة أو أكبر في ابتكار واجتراح طرق وأساليب فعّالة في التربية على القيم والكفايات السلوكية. وهنا لا يكفي أن نقول للمعلم عليك أن تتحمّل المسؤوليّة، بل يجب على مراكز الدراسات التربوية والمؤسّسات التربوية العريقة أن تعمل على تطوير المناهج والبرامج والطرائق التي تخدم هذا الهدف وأن تسعى لتدريب المعلمين عليها، لنرتقي في الاتجاهات التربوية كما ارتقينا في الاتجاهات التعليمية ـ التعلّمية.

فنحن لا نريد عالماً يعجز عن تسخير علمه لخدمة الإنسانيّة لأنه يفتقد

القيم الإنسانيّة، لا نريد عالماً يستخدم علمه لاستغلال الناس وزرع الفساد في الأرض، وإنما نريد عالماً يضع علمه في خدمة البشر وفي إعمار الأرض وإقامة العدل، عالماً يكون علمه رحمة للناس وليس نقمة عليهم.

■ ■ ■

التربية

ومسؤولية الآباء

مسؤولية شرعية على عاتق الآباء

تربية الأبناء وتوجيههم بشكل صحيح مسؤولية تقع على عاتق الأبوين بالدرجة الأولى، وهي مسؤولية شرعية لا يجوز الاستقالة منها، وإذا أمكن الاعتماد على المدرسة الصالحة لهذه المهمة في بعض الأحيان، إلا أن المدرسة لا يمكنها لوحدها أن تحقّق كامل الهدف دون تظافر جهود الأبوين. هذا الأمر يفرض على الأب، بالخصوص، التخطيط السليم والإهتمام الكافي وتخصيص جزءٍ من وقته ومن برامج حياته اليومية للعناية بالجانب السلوكي والروحي والتربوي لأبنائه، فالتربية لا تتحقق من خلال لائحة وصايا وجملة من الأوامر والنواهي، التي يتم إصدارها على نسق المراسيم العسكرية أو الرئاسية أو الحكومية، وإنما هي فعل مستمر وتوجيه دائم، وفنٌّ في الممارسة والتأثير لا يتأتّى إلا من خلال المعاشرة والمتابعة والمصادقة ومخاطبة القلب والمشاعر، فضلاً عن العقل والإدراك، مما يعني أن تخصيص الوقت الكافي أمر لا بد منه، بالإضافة إلى اختيار الأسلوب والطريقة والخطاب، بما يتناسب مع الحالة، ومراعاة الخصوصيات التي يتميز بها كل طفل عمن سواه.

■ ■ ■

دور الأهل في استدراك الخلل في النتائج النهائية للطالب خلال العطلة(*)

ينتهي العام الدراسي ويتجاوز أبناؤنا الأعزاء الامتحانات النهائية، إلاّ أنّ بطاقة العلامات لا تعكس النتيجة التي كنا نتمناها، بعض المواد لم يتمكن الطالب من الحصول على علامة النجاح فيها، بعضها حصل فيها على معدّل وسطي ضمن الحد الأدنى للنجاح، لكنّ مثل هذا المعدل لا يُمكن الركون إليه في المستقبل لاختيار الفرع الذي يرغب به، أو على الأقل سوف يحدّ من فرص الاختيار لديه، ماذا نفعل ـ نحن الأهل ـ ؟ هل نستسلم لهذا الواقع ونترك الطالب يرتاح ويتمتع بعطلة صيفية دون ضغوطات الدراسة وهموم المدرسة والكتاب؟

هل بإمكاننا الاستفادة من هذه المحطة (العطلة الصيفية) لاستدراك ما يُمكن استدراكه من مكتسبات علمية ومهارات وقدرات لم يحصل عليها خلال العام الدراسي؟

هل نختار له معلّم خاص يحوّل صيفه إلى مدرسة وأيام عطلته إلى أيام عمل ودراسة؟

هل نترك للطالب الحرية باختيار الأسلوب الذي يريد لاستدراك ما فاته ومعالجة الخلل لديه، واختيار الجدول الزمني الذي ينسجم مع رغبته؟

(*) مقالة نشرت في مجلة بقية الله العدد ١٧٨ ص ٣٧ تموز ٢٠٠٦.

هل بإمكاننا تقديم المساعدة له وكيف لنا ذلك ونحن لسنا من أهل الاختصاص في التربية والتعليم؟!

كل هذه الأسئلة وغيرها تدور في خلد أي واحد منا وهو يتصفح النتائج النهائية لابنه أو ابنته، ويتألم لأنّه كان يتمنى له أو لها النجاح بل التفوق، وكان يتمنى أن ينظر إليه بافتخار وهو يخطو خطوات ثابتة ومطمئنة على المسرح لتسلّم شهادة التخرج، بينما يرى النتائج بين يديه تحطّم هذه الأمنية وتشعره بالأسى والخيبة، وقد يتذكر الأهل في هذه اللحظات دفعات الأقساط المدرسية التي وفّروها للمدرسة بشقّ النفس وحرمان الأسرة من الكثير من حاجاتها وربما من خلال الجهود الاستثنائية التي بذلها الوالد لتأمينها في أوقاتها لضمان استمرارية الدراسة لأبنائه في المدارس الخاصة.

مهما يكن، فلابدّ من الالتفات إلى أن العلامات المدرسية تمثّل مؤشرات على كمية المكتسبات التي تحققت لدى الطالب خلال العام الدراسي وفق معيار الأهداف والكفايات المحدّدة في المناهج، وبالتالي لابدّ من النظر إلى العلامات على أنّها وسيلة قياس وليست هدفاً بحدّ ذاتها، وعليه فإنّ معالجة مشكلة الطالب الدراسية من خلال الضغط على المدرسة لترفيع الطالب دون استحقاق ومن خلال المطالبة بمنحه علامات استلحاق، ليس صواباً، وليس إنقاذاً للعام الدراسي كما يتوهّم الكثيرون من الأهل والطلاب، لأنّ المنهاج التعليمي والتربوي يعتمد على التراكم، أي تراكم المعارف والمهارات، وربما كان بعضها يترتب على البعض الآخر، مما يعني أن نقص المكتسبات في مرحلة يُفقد الطالب القدرة على تحقيق المكتسبات في المراحل اللاحقة، فليست المسألة مسألة طي سنوات دراسية وإنّما هي مسألة تشييد للبناء العلمي والعملي الذي لا بدّ فيه من أسس متينة وقواعد محكمة وترابط وثيق بين الأعمدة والجسور وتناسب تام بين الطبقات

حتى لا يعكس الخلل في الأسس والقواعد خللاً في البناء، وحتى لا يؤدي الخلل في الترابط إلى خطر الانهيار والعجز عن الاستمرار ومواصلة التشييد.

وعليه، فالعمل على معالجة الخلل باستدراك النقص والحصول على المكتسبات الفائتة ضرورة لا غنى عنها.

المناهج التربوية والتعليمية الجديدة تراعي هذا المبدأ عبر ما أطلق عليه اسم «الدعم المدرسي»، ولعل بعض أنواع الدعم هو ما يتلقاه الطالب في فترات العطل ولا يُمكن تنظيمه أثناء الأيام المدرسية لأسباب ترتبط بحجم الخلل ونوعيته والوقت المتاح لمعالجته من جهة ومتابعة الدروس الاعتيادية من جهة أخرى.

ولذلك لا نرى من بأس بقيام الأهل بمساعدة أبنائهم على تنظيم برامج دعم مدرسية خاصة في فترة العطلة الصيفية الممتدة لما يقرب من ٩٠ يوماً. والتي تشكّل جبراناً للتقصير الحاصل خلال العام الدراسي المنصرم وتأسيساً للعام الدراسي القادم، خاصّة أنّ العام الدراسي في بلادنا لا يرقى إلى استثمار ٥٠٪ من أيام السنة والتحديات التي تنتظر أبناءنا كبيرة، فليس من البرّ أن نتركهم يهدروا نصف أيام الفتوّة والشباب، بل أكثر، فيما ليس فيه نفع، ولا يعود عليهم بالخير، البرّ بهم أن نربّيهم على الجدّية وأن نساعدهم على اكتساب المعارف والمهارات والقدرات الضرورية التي تعطيهم القدرة على مواجهة الحياة بقوة وفاعلية، نتعبهم الآن ليرتاحوا في المستقبل، ولا نريحهم الآن ليتعبوا طيلة حياتهم.

○ ما هو دور الأهل في تدارك ما فات أبناءهم تحصيله خلال العام الدراسي؟

لابدّ للأهل من القيام بعدة خطوات لمساعدة أبنائهم على تدارك الخلل في النتائج:

الخطوة الأولى: تحديد مواطن الخلل عند الطالب بدقّة، فالعلامات الواردة على البطاقة قد لا تظهر مكامن الخلل إلا بنحو إجمالي، فالعلامة المتدنية في الرياضيات أو في اللغة الأجنبية أو في التربية لا تعني أكثر من مؤشر على وجود خلل، لكن من الضروري تحديد مواطن الخلل بدقة، في أي مجال وفي أي من الأهداف، ما هي المهارة التي لم تتحقق وما هو المحور الذي لم يحصل فيه الطالب على المعارف الضرورية وهكذا...

ويمكن تحديد ذلك عبر طريقتين:

أ ـ مراجعة ملف المسابقات والاختبارات والامتحانات التي أجراها الطالب طيلة العام الدراسي، وتنظيم لائحة بالموضوعات التي أخفق الطالب في الإجابة على أسئلتها أو حل تمارينها، مع تحديد أسباب الإخفاق والتي تظهر في كثير من الأحيان من خلال الأخطاء التي وقع فيها.

ب ـ مراجعة المدرسة والاستعانة بمعلمي الطالب الذين يُفترض بهم أن يكونوا قد رصدوا المشكلات عبر وسائلهم التربوية المعتمدة في المدرسة، وبالتالي بإمكانهم تحديد المجالات والكفايات التي ينبغي استدراكها.

هذه الخطوة ضرورية جداً، وأهميتها أنّها تحصر الدعم في محل الحاجة مما يتيح فرصة أكبر لبرامج الدعم وتحول دون هدر الوقت والجهد في غير مواطن الخلل.

الخطوة الثانية: تصميم البرامج المناسبة للدعم، وهنا يُمكن لنا القيام بذلك بالاشتراك مع الطالب نفسه وتحديد الدروس التي ينبغي مراجعتها وإعادة تعلّمها وكيفية تحقيق ذلك، والجدول الزمني المطلوب، وبعبارة أخرى، يجب وضع خطة الدروس بما يتيح إمكانية إنجازها في الفترة الزمنية

اللازمة، وبما يتيح لنا فرصة المتابعة والرقابة والتأكد من قيام الطالب بما هو مطلوب منه.

في هذا المجال يُمكن للأهل إذا كانوا لا يستطيعون تصميم البرامج المناسبة أن يستعينوا بأستاذ خاص، لكن مع التأكد من قيامه بوضع البرامج المناسبة لمحل الحاجة، وقيامه بخطوات التقييم اللازمة بشكل مستمر، والطلب إليه تزويدهم بالمسابقات والاختبارات التي تظهر الوضع الجديد للطالب، للتأكد من تحقّق الأهداف والكفايات المطلوبة.

الخطوة الثالثة: المواكبة الصحيحة للطالب في استثمار وقته بشكل صحيح، ولا يعني ذلك منع الطالب من الاستمتاع بفترات استراحة، أو القيام بنشاطات ترفيهية، فربما كان ذلك مهمّاً وضرورياً لإكسابه القدرة على القيام بالواجبات الدراسية بشكل أفضل، فالمطلوب هو الحفاظ على نوع من التوازن، وإعطاء وقت مخصّص للترفيه أو الاستراحة، وأوقات أخرى للدراسة والتحصيل، على أن تُحترم هذه الأوقات وتُستثمر بشكل سليم.

ومن المهم لمن يقوم بمهمة المواكبة والمتابعة أن يلتفت إلى أهمية الأسلوب وأن يعمد إلى التشجيع والإشادة والتنويه عندما يجد الطالب مجدّاً وعندما يحقّق نجاحاً في أي مسابقة أو اختبار، وأن يعمد إلى الإصلاح والمعاتبة والحث والتنبيه بالتي هي أحسن عندما يكتشف تقصيراً أو خللاً في تطبيق البرامج.

○ معالجة الدافعية:

قد يكون السبب الأساس في تراجع النتائج التعليمية للطالب يعود إلى النقص في الدافعية للتعلم، إمّا من خلال عدم الاعتقاد بجدوى التعلّم أو من خلال الشعور بالعجز والإحباط. وعندئذٍ فإنّ المشكلة التي أدّت إلى خلل

في الدراسة أثناء العام الدراسي قد تؤدي إلى خلل مشابه في نشاطات التعلّم الاستدراكي أثناء الصيف، وبشكل أشد وأقوى لأنّه يشعر هنا بأنه يضحّي بفرصة الراحة والترفيه التي يتمتع بها زملاؤه، مما يزيد من كراهيته للدرس والتعلّم.

الأمر الذي يفترض بنا القيام بمعالجة نقص الدافعية أولاً بالأسلوب المناسب، وذلك بتغيير اعتقاده وموقفه من الدراسة، من خلال إقناعه بأهمية الدراسة أو أهمية المادة الدراسية التي لا يرغب بتعلّمها، ومن خلال إقناعه بأنّه غير عاجز عن الاكتساب والوصول إلى مراتب النجاح والتفوق، ومن المفيد هنا تجزئة الأهداف، حتى إذا حقّق أحدها أدرك قدرته على تحقيق هدف آخر خطوة خطوة.

ومن خلال تدريب الطالب على طريقة الدراسة الصحيحة والوقت المناسب، وتدريبه على تنظيم وقته وترتيب أولوياته، وإشعاره بالرعاية والحنان.

أحد العوامل التي تؤدي إلى موقف سلبي من تعلّم المادة علاقة الطالب بمعلّم المادة إذا كانت تعاني من خلل، هنا يجب على الأهل أو المربّين اكتشاف ذلك والقيام بإصلاح هذه العلاقة أو العمل على التفكيك بين نظرة الطالب إلى المادة ونظرته تجاه المعلّم لكي لا تتأثر الأولى بالثانية، ونستطيع مساعدته على بناء موقف إيجابي من المادة مهما كان الموقف من المعلّم.

هذه الطريقة من الاستدراك ضرورية ومهمة حتى إذا كان الخلل لا يؤثر على نجاح الطالب وترفيعه إلى صف أعلى، يُمكن لنا أن نعمد إلى ذلك في كل مادة نجد الطالب يراوح متوسط علاماته فيها الحد الأدنى للنجاح، ومن

المناسب أن نواكب هذه العملية منذ بداية العام الدراسي اللاحق، فنراجع كل مسابقة أو اختبار، سواء كان جزئياً أو كلياً، ونطلب من الطالب إعادة الإجابة على الأسئلة التي لم يوفّق فيها للإجابات الصحيحة، وإذا أخفق مجدداً نطلب إعادة تعلّم الكفاية أو الهدف ومساعدته في ذلك، لنصل في نهاية العام الدراسي القادم إلى نتائج مرضية لا تضطرنا لبرامج دعم صيفية ثانية.

■ ■ ■

خطاب لأولياء الأمور:
كيف نُنظم أوقات أطفالنا

السادة أولياء أمور، الطلاب الأعزاء أدامكم المولى:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

انطلاقاً من المسؤولية العظيمة التي نتحملها سوياً تجاه أبنائنا وأبنائكم، والتي لا يُمكن القيام بها على أفضل وجه إلا بالتعاون والتكامل، وتوزيع الأدوار، لنقوم نحن في المدرسة بدورنا، وتقومون أنتم في المنزل بدوركم، علّنا نصل إلى ما نطمح إليه من بناء جيل مؤمن واع مسؤول قادر على حمل الراية وبناء مجتمع القيم والحضارة، إننا نشعر ـ انطلاقاً من كل ذلك ـ بضرورة رفع مستوى التواصل بين البيت والمدرسة، ومناقشة كافة الأمور ذات العلاقة بالتربية والتعليم، وتحصين أبنائنا، أخلاقياً وسلوكياً في مواجهة الأخطار المحيطة بنا من كل جانب.

في هذا السياق ستقيم مدارسنا مجموعة ندوات ولقاءات عامة وخاصة، تتناول عدة موضوعات ذات أهمية بالغة تربوياً وتعليمياً، وسنقوم بإعداد نشرات للأهل الكرام تحقق بعض تلك الأهداف وتشكل نوعاً آخر من التواصل والتعاون إن شاء الله، وهذه النشرة خطوة أولى على ذلك السبيل.

○ البرنامج العملي لتنظيم الوقت:

كيف يقضي أبناؤنا أوقاتهم خارج الدوام المدرسي، وفي أيام العطل الأسبوعية والموسمية؟

هل يفكر أحد منا بأن يتفق مع أبنائه على وضع جدول زمني منظّم للنشاطات والأعمال التي يقومون بها في البيت؟..

قد يبدو الأمر لأول وهلة غريباً، وقد يتصور البعض أن ذلك نوع من التقييد لحرّية الأبناء في وقت هم بحاجة إلى الإنطلاق والتحرر من القيود، خاصة بعد يوم مرهق من الدراسة.

إلاّ أن البرنامج الزمني والعملي من شأنه أن يحقق مجموعة فوائد:

أولاً: يمكّن التلميذ من الإستفادة القصوى من وقته، فلا يجد نفسه يوماً ما مقصّراً في دروسه نتيجة عدم استيعاب الوقت، وعدم التمكن من إتمام التكاليف والتحضير الكافي للإمتحانات.

ثانياً: تنظيم الوقت ضمن برنامج محدّد يدرّب التلميذ على النّظام وعلى التخطيط، ويبني منه شخصيّة جدّية وإدارية.

ثالثاً: تنظيم الوقت يمكّن التلميذ من ممارسة هواياته ونشاطاته التي يحبها في وقت معدّ مسبقاً لها دون أن يكون على حساب التكاليف والواجبات.

رابعاً: يتيح ذلك لأولياء الأمور فرصة الإشراف على أبنائهم ومراقبة أعمالهم وأوضاعهم بشكل أفضل، وبعناء أقل.

خامساً: يقطع ذلك أعذار الأولاد الذين يحاولون التهرب من تحمل المسؤولية، والتذرع ببعض الواجبات والتكاليف للتملّص من مسؤوليات معينة يطلب الأهل منهم تحمّلها والقيام بها.

○ كيف نُنظم الجدول الزمني:

ينبغي وضع عدة جداول زمنية، واحد منها لأيام الدوام المدرسي وآخر لأيام العطل الأسبوعية وثالث لأيام العطل الموسمية الطويلة نسبياً. وفي كل واحد من هذه الجداول تُراعى الأمور التالية:

١ ـ تحديد الوقت الموجود بداية ونهاية (مثلاً: من الساعة الثالثة بعد الظهر إلى الساعة التاسعة مساءً).

٢ ـ ملاحظة التكاليف والنشاطات والأعمال المطلوبة بشكل يومي، ووضع إحصاء لها.

٣ ـ ملاحظة حاجات الولد التي ينبغي مراعاتها مثل الراحة والطعام والنظافة والعبادات وأمثال ذلك، ليتم توزيع الجدول بطريقة لا تهملها.

٤ ـ تمييز الأعمال الفكرية عن الأعمال العضلية، والتكاليف الذهنية عن العملية، وإعطاء كل عمل أو تكليف الموقع المناسب في الجدول والوقت المناسب، مع مراعاة الترتيب والوقت.

٥ ـ التشاور مع الولد نفسه لمشاركته في التخطيط وتحمل المسؤولية.

٦ ـ رسم المخطط الأولي للجدول، بحيث يعطى لكل عمل وقته الكافي والمحدد ثم إخضاعه لتجربة مؤقتة (أسبوع مثلاً).

٧ ـ إعادة دراسة التوزيع على أساس النتائج التي لوحظت خلال الفترة التجريبية، ووضع جدول جديد.

٨ ـ مراقبة التطبيق بشكل دائم وتسجيل ملاحظات للتقييم، ومستوى الإلتزام، والعوائق، وأمثال ذلك.

٩ ـ وضع الحوافز والمشجعات والمكافآت اللازمة على التقيّد التام بالجدول والبرنامج المحدد.

يُرفَق مع البرنامج نموذج تجريبي جاهز يُمكن الإستفادة منه.

○ التلفزيون والفيديو والمخاطر التي تواجه أطفالنا:

قلّما يلتفت الأهل إلى مخاطر ما يُبث في وسائل الإعلام المرئي والمسموع، ومع الإلتفات إلى بعض المخاطر قد يجد الأهل صعوبة بالغة في السيطرة على الموضوع وتنظيم مشاهدات أبنائهم على مستوى القنوات والبرامج والأفلام، وربما الدعايات الفاضحة التي تتخلل البرامج المقبولة.

مع العلم أن التلفزيون في عصرنا الحاضر يشكل مصدراً لثقافة الأطفال خاصة والناس عامة، ويؤثر تأثيراً بالغاً في المشاعر العاطفية والجوانب السلوكية، لذا، ينبغي الإلتفات والحذر واستنفار الطاقة للحد من تأثيره، والحيلولة دون سيطرته على واقعنا والتلاعب بفكر أبنائنا وثقافتهم وسلوكهم.

فالكثير من البرامج والأفلام التي يتم بثها على شاشات التلفزة تلعب دوراً رئيسياً في الترويج للعنف والفساد والإنحراف والعادات السيئة، فإن تكرار مشاهدة الخصال السيئة في الأفلام تنقلها من عالم الاستهجان والاستنكار التام عند الطفل إلى المقبولية، وتصبح عادية كونها تمارس بكثرة في الأفلام، مما يدفع الطفل إلى ممارستها وتقليد ما يراه دون وازع ولا رادع.

إننا نرتكب جرماً مضاعفاً بترك العنان للأولاد يشاهدون ما يستحسنون من البرامج والأفلام، لأننا نتخلى بذلك عن تكليفنا ومسؤوليتنا في تربيتهم وتعليمهم ما يصلحهم، ونستعيض عن ذلك بملء وقتهم بما يضرهم ويعرضهم لاكتساب الأخلاق السيئة والعادات القبيحة والثقافة الهجينة.

فلا يكفي حماية الأولاد من البرد والمرض والجوع، بل ينبغي حمايتهم

من هذا العدو الشرس الذي يغزونا في عقر ديارنا، فلا تتركوه يسيطر على واقعنا وحياتنا، فالأمر يحتاج إلى قرار سريع وموقف حاسم، وتقنين منظم لنحصر علاقتنا وعلاقة أبنائنا به في إطارها الصحيح والسليم.

وهناك أضرار جانبية للتلفزيون والفيديو عدا عما يأتينا من قبل البرامج التي تبث، وهي:

١ ـ الحيلولة دون الجلسات العائلية الحميمة، والتي يُمكن من خلالها القيام بتوجيه النصائح والإرشادات ومعالجة المشكلات بهدوء، وبناء علاقة أسرية سليمة، فإن التلفزيون يملأ حياة العائلة ويشد انتباههم، ويسيطر على كل شيء، فيضيع هذه الفرصة الذهبية عادة.

٢ ـ التلفزيون يُثير في كثير من الأحيان النزاعات بين أفراد العائلة، نتيجة اختلافهم على نوع البرنامج الذي يرغبون في مشاهدته، فيفضل الصغار أفلام الكارتون مثلاً والناشئة أو الشبيبة مشاهدة كرة القدم، وربما فضلت الفتيات مشاهدة بعض الأفلام الروائية، فتتعارض الإرادات، ولابد من غلبة إحداها على حساب الأخرى، مما يترك أثراً نفسياً سيّئاً ويزرع روح البغضاء أو الشعور بالإحباط وأمثال ذلك.

٣ ـ العلاقة الوطيدة بالتلفزيون غالباً ما تكون على حساب الأعمال والتكاليف الأخرى التي ينبغي أن تمارس أو يملأ الوقت بها، فقد ينجر أطفالنا ونتيجة حرصهم على مشاهدة مسلسلات معينة إلى التساهل تجاه تكاليفهم المدرسية، وفي التحضير الكافي لامتحاناتهم ومسابقاتهم، وفي حفظ ومراجعة دروسهم اليومية.

٤ ـ المسلسلات والبرامج الليلية تُغري الأطفال بالسهر والتأخر في الذهاب إلى فراشهم عن الوقت المطلوب، مما يجعلهم يستفيقون صباحاً

للذهاب إلى المدرسة بصعوبة ودون تلقي الوقت الكافي من النوم، الأمر الذي يترك أثره السلبي على استعدادهم في المدرسة فيبقى طيلة النهار يعاني من الإرهاق والخمول وتضعف قدراته على التفاعل مع المعلمين واستيعاب الدروس بالشكل المطلوب.

و هناك آثار جانبية سلبية أخرى وكثيرة يُمكن اكتشافها من خلال التدقيق والمتابعة لهذا الواقع المؤلم.

كل ذلك يقتضي أن يتحمل الأهل مسؤوليتهم كاملة في هذا المجال، والتنبه إلى الأخطار والحيلولة دون الوقوع فيها.

○ العُطل المدرسية والموسمية:

أيام العطل عند الطالب تتجاوز الخمسين بالمائة من أيام السنة، حيث تبلغ ما يقرب من ١٩٥ يوماً تتوزع على العطل الأسبوعية والأعياد والمناسبات والصيف. هذا العدد من أيام العطل يعتبر كبيراً نسبياً، وهو مضيعة لأعمار أبنائنا، ويجعل نموهم الفكري والعلمي يسير ببطء، فيسبق نضجهم الجسدي نضجهم العلمي والثقافي والفكري، هذا الأمر ينعكس سلباً على واقعنا ومستقبلنا الذي يجب أن نسعى معاً لبنائه بناءً محكماً متناسقاً.

وليس ذلك دعوة للتخلي عن نظام العُطل، فإن للعطل الفوائد التالية:

١ ـ تحقيق فترة راحة من عناء العمل والكد المتعب.

٢ ـ إعادة الحيوية لمواصلة النشاط والعمل من جرّاء الخروج عن الروتين الممل نتيجة تكرار البرنامج اليومي التقليدي.

٣ ـ إعطاء فرصة ثمينة ومهمة للقيام بنشاطات وأعمال خاصة تتطلب التعطيل، كما يحصل عادة في بعض الأعياد والمناسبات من قبيل زيارة

الأرحام وإقامة الإحتفالات والشعائر الخاصة والاجتماعات العائلية الموسعة وأمثال ذلك.

فمن الضروري جداً برمجة أوقات العطل بشكل يحقق الغايات المطلوبة بأفضل وجه، مع تجنب السلبيات التي تحصل كثيراً وعلى سبيل المثال لا الحصر نستعرض بعض الحالات:

١ ـ عند قضاء العطلة في المنزل، يتم عادة تقطيع الوقت بين مشاهدة التلفزيون، والقيام ببعض الألعاب المتناسبة مع الأعمار المختلفة للأولاد، وهنا نذكر بضرورة انتقاء البرامج التلفزيونية المفيدة، والتي لا تترك أضراراً تربوية وأخلاقية من جهة، وعدم الإستغراق بقضاء أكبر الأوقات أمام الشاشة الصغيرة من جهة أخرى. وعلى صعيد اللعب، فهو أمر مطلوب للأطفال لكن ينبغي توجيههم إلى الأنواع التي تنمي قدراتهم الجسدية والفكرية مع الهدف الترفيهي دون أن تخلق بينهم العداوات وتربي في نفوسهم الأنانيات والكراهية والسفه والإبتعاد عن الجدية.

ومن الممكن توجيه الأطفال نحو الإستفادة من أوقات العطل في برنامج مطالعة شيقة ومفيدة، مع التدخل في اختيار نوع المطالعة التي نثري بها معلوماتهم العلمية وننمي معرفتهم وإيمانهم.

٢ ـ عند قضاء العطلة خارج المنزل، بين أحضان الطبيعة أو على شاطئ البحر وفي الأماكن العامة، يجب اختيار المكان البعيد عن الأجواء الموبوءة والمنحرفة والمفسدة كتلك التي يرتادها أهل الفسق والتحلّل من القيود الأخلاقية ومن القيم الدينية.

و أمثال هذه الرحلات تشكّل مناسبة لأعمال تربوية متعددة يُمكن للأهل أن يدربوا أبناءهم عليها من قبل ضوابط التعاطي مع الطبيعة (الأنهار ـ

الأشجار ـ الأزهار)، والحفاظ على البيئة العامة ونظافة المحيط (عدم رمي النفايات بشكل عشوائي، والإحتراز من الحرائق والأخطار)، وتنمية الحس التعاوني والعمل الفريقي، وقواعد التدبير وأمثال ذلك.

٣ ـ عند قضاء العطلة في زيارة الأرحام وفي اجتماعات عائلية، يُمكن الإستفادة من الفرصة للتأكيد عن أهمية صلة الأرحام، وقواعد التعامل مع الآخرين، والآداب واللياقات الاجتماعية، والتسامح، والحيلولة دون خلق أجواء الفوضى والتوتر.

٤ ـ من الحلول أيضاً توجيه الأطفال نحو المشاركة بالنشاطات والدورات التي تقام أيام العطل (خاصة الصيفية) في المدارس أو الانخراط في الفرق الكشفية، وأمثال ذلك شرط التأكد من سلامة المحيط والبرامج والإطمئنان للجهة المنظّمة لها.

خلاصة الأمر، أننا، وانطلاقاً من مسؤوليتنا المشتركة تجاه أبنائنا وفلذات أكبادنا، وانطلاقاً من حرصنا الدائم على نشأتهم السليمة ومستقبلهم المشرق، ينبغي أن نعطي قدراً كافياً من الإهتمام بالجانب التربوي والتخطيط له والمراقبة الدقيقة والدائمة.

وفقنا الله وإياكم لما فيه خير أمتنا وجعلنا من المتمسكين بأبواب الهداية الإلهية.

■ ■ ■

مشكلات تربوية

تُواجه

الأطفال

عدم الرغبة في التعلّم عند الأطفال

كثيراً ما تتعرّض حياة الطفل الدراسية لانتكاسات يتراجع على أثرها في علاماته، وربما أدّى به الأمر للفشل والرسوب المتكرر، ولدى البحث عن أسباب التراجع أو الفشل يتبيّن أنّ الطالب ليس لديه رغبة بالدراسة والتحصيل ولا يبدي اهتماماً كافياً بذلك، ومن البديهي أنّ أي نشاط علمي أو عملي يقوم به الإنسان يعتمد في انطلاقه واستمراره على توفر الرغبة والدافع، فإذا انعدم ذلك أو ضعف تجمّد النشاط أو توقّف، ولا يجدي هنا اللجوء إلى الإكراه واستعمال وسائل الضغط، خاصة عندما يكون النشاط ذهنياً وفكرياً ويرتبط باكتساب مهارات وقدرات تقوم بالأساس على الاختيار والرضا والرغبة.

السؤال المطروح: لماذا تتراجع الدافعية للدراسة وتضعف عند الطالب في بعض المراحل الدراسية وكيف يُمكن معالجتها؟

هناك عدة أسباب تؤدي إلى ضعف الدافعية للدراسة والتعلّم نُلخّصها فيما يلي:

١ ـ **أسباب معرفية**: لا يمتلك البعض من أبنائنا المعرفة الكافية بأهمية التحصيل العلمي، خاصة إذا كان يعتقد بأن المهم هو الحصول على المال وفرص العمل وأنّ قيمة الإنسان ترتبط بما يملكه من ثروة وهو يرى أباه مثلاً أو غيره ممن يعتبرهم مثالاً يحتذى استطاعوا الوصول إلى الثروة والجاه عبر

التجارة والاغتراب ولم يكن لديهم أي مستوى علمي، وعلى العكس فالكثير من العلماء والمتعلّمين وأهل الشهادات العليا عاشوا حياتهم ممزوجة بالفقر والفاقة أو أنهم اضطروا للعمل كموظفين عند أولئك الأغنياء.

أحياناً تكون المشكلة في إدراك أهمية مادة معيّنة أو في معرفة التسلسل الطبيعي للدروس والمطالعات وأمثال ذلك من الأسباب ذات الطابع المعرفي، فعندما لا يبيّن للطالب تطبيقات القواعد التي يتعلّمها وعندما لا يتمّ ربط العلم بالحياة يصبح التعلّم أمراً غير ذي معنى لديه فلا يجد الدافع لبذل الجهد في سبيل تحصيله.

هذه الأسباب يسهل معالجتها من خلال التعريف بأهمية العلم الذاتية وقيمة التعلّم بقطع النظر عن البعد المادي، وكشف الكثير من الجوانب الخفية لمعاناة الأغنياء نتيجة عدم التعلّم وما يُمكن أن يساهم به العلم في زيادة الثروة أيضاً والحيلولة دون مجموعة من أوجه المعاناة، والتعريف بالأمور المساعدة على ترتيب الأولويات وأمثال ذلك، ومن خلال ربط العلم دائماً بالحياة وبمجالات الاستخدام.

٢ ـ **أسباب نفسية**: مثل الشعور بالكراهية للدراسة لأنها تحول بينه وبين أمور محبوبة لديه، أو الشعور بالإحباط أو عدم الثقة بالنفس والشعور بالعجز عن تحقيق النجاح، أو وجود أزمة نفسية تجاه أستاذ المادة، فكثيراً ما تنعكس مشاعر الطالب تجاه الأستاذ على المادة التعليمية وتنتقل الأزمة إلى نفس المادة أو إلى الموقف من المدرسة ومن التعلّم بشكل كلّي.

من هنا يتم التأكيد دائماً على أهمية بناء الثقة بين الطالب ومدرسته وبينه وبين معلّميه، ومن جهة أخرى ينبغي اعتماد الحوافز وأساليب التشجيع

المعنوي والمادي، ودفع الطالب للوثوق بقدراته وإثبات ذلك من خلال تجزئة مراحل الإنجاز.

قد يساهم الأهل بخلق بعض المشكلات النفسية من خلال رفع سقف الأهداف التي يحدّدونها لأبنائهم فيطلبون منهم إنجازات غير مقدورة ويضعون مقياساً للتفوق بعيد المنال مما يوقع الطالب بالإحباط واليأس، وفي المقابل يلجأ البعض إلى تخفيض سقف الأهداف ليصبح الحصول على المطلوب أمراً يسيراً لا يحتاج إلى جهد وتعب، وهذا أيضاً يقتل الطموح ويؤدي إلى فقدان الدافع للجدّ والاجتهاد لأن ما يصبو إليه من مكافآت وحاجات يحصل عليه دون حاجة لبذل الجهد وإتعاب النفس بما هو فوق ذلك.

فالصحيح هو وضع أهداف واقعية ومنطقية وتحديد الحوافز المناسبة لحجم الإنجاز ورفع مستوى الأهداف بشكل تدريجي بعد كل مرحلة.

الأسباب النفسية غالباً ما يصعب على الأهل والمربّين اكتشافها أو تحديدها بدقة إلا أنّ الكثير من المؤشرات والتصرفات والمواقف تعبّر عنها إذا ما تمّ ملاحظتها وتحليلها.

٣ ـ أسباب صحية: أحياناً تتراجع الدافعية للدراسة نتيجة بعض المشاكل الصحية، فعندما يُعاني الطالب من مشكلات في السمع أو النظر ولا تتم المبادرة لعلاجها تترك أثرها على التحصيل العلمي مما يشكّل صعوبات تواجه الطالب ولا يجد سبيلاً للتغلب عليها، خاصة إذا كان محل جلوسه في الصف بعيداً عن اللوح أو المعلّم، وفوّت عليه ذلك الاستفادة الكاملة من الاستماع إلى المعلّم ومشاهدة ما يدوّن على اللوح أو وسائل الإيضاح الأخرى.

كما أنّ آلام الرأس أو الضعف الجسدي أو الشعور بالنعاس أو الإحساس بالتعب وأمثال ذلك، كلّها تساهم بشكل أو بآخر بتراجع الدافعية للدراسة وربما الفشل ونقص المتابعة.

٤ ـ **أسباب اجتماعية**: لا يُمكن التقليل من الآثار السلبية للمشاكل الأسرية على التحصيل العلمي للطالب، ففي كثير من الأحيان تؤدي المشاكل بين الأبوين أو بينهما وبين الأبناء أو بين الأبناء أنفسهم إلى حالة من التوتر والقلق والاضطراب، الأمر الذي يعيق قدرة الطالب على التركيز، ومع التكرار يُسلب منه الأمل والطموح، ويفقده الإرادة اللازمة للبذل والاجتهاد وتحقيق النجاح المطلوب.

المشاكل الاجتماعية المؤثرة تتجاوز الأسرة إلى المجتمع والأمن الاجتماعي والبيئة الاجتماعية، فالخلل الأمني وانتشار الخوف والقلق، وحالات الفقر الحاد، وانتشار المفاسد الاجتماعية كلّها تؤثر سلباً على الدافعية وتحدّ منها.

من هنا ينبغي الالتفات إلى ضرورة إبعاد الأطفال عن أجواء النزاعات الأسرية، وتوفير الحضن الدافئ الذي يشعرهم بالأمان ويدفعهم إلى الاهتمام بشؤون المدرسة والتحصيل والنمو السليم، الجميع يتحملون مسؤولية توفير البيئة الاجتماعية الصحية والسليمة ليتربى الأطفال بشكل طبيعي.

٥ ـ **الأجواء غير المناسبة للدراسة** تؤدي دوراً سلبياً في الحدّ من الدافعية عند الطالب، فعندما تزداد عوامل التشتت الذهني في الفترات التي يحتاجها الطالب للدراسة يفقد القدرة على التركيز، وعندما تكون أجواء الإضاءة غير مناسبة أو المكان غير صحي أو غير طبيعي لجهة البرودة أو

الحرارة أو الرطوبة أو الروائح أو الفوضى، كل ذلك يساهم في إعاقة التحصيل وبالتالي خلق صعوبات جمة توقع الطالب باليأس والشعور بالعجز وانعدام القدرة على تحقيق الإنجاز، وبالتالي تراجع الدافعية للدراسة.

٦ ـ **الطريقة الخاطئة في الدراسة** على مستوى الأسلوب أو التوقيت أو الترتيب ورعاية الأولويات أو تجاوز بعض المقدمات الضرورية وأمثال ذلك، كلّها تشكّل عوائق وعقبات أمام الحصول على النتيجة المرجوّة وتحقيق النجاح، ومع الاستمرار بالدراسة الخاطئة تنعدم الدافعية، لذا يعتبر من المفيد جداً تدريب الطلاب على أساليب الدراسة الصحيحة والناشطة وتنظيم الوقت وتوزيع الجدول الزمني بما يتناسب مع الاستحقاقات والأولويات، ومراعاة التسلسل الطبيعي للدروس والمكتسبات لأنّ بعضها يتوقف على البعض الآخر.

كما أنه من المفيد تعويد الطالب على الطريقة الصحيحة في إشباع حب الاستطلاع لديه، والمفاتيح التي تمكّنه من الاعتماد على نفسه في البحث والاكتشاف وتوسيع دائرة المعرفة لديه، دون تقديم الإجابات الجاهزة.

■ ■ ■

الأطفال والإنترنت

○ تعلُّقي بالأنترنت تسبّب... بضياعي(*)

«ربما يألف الكثيرين منكم منظر الأولاد في قاعة الأنترنت، ولكن قد لا يتصوّر البعض نتائج ما قد يحصل جراء وجودهم في تلك الأمكنة المُغلقة والمفتوحة في آن على كل ما يُمكن أن يخطر ببال أحد منكم، أو قد لا يخطر على باله. في هذا الإطار بدأت قصتي منذ ست سنوات، مذ كان عمري ١٣ سنة، عندما كنت وقتها لا أزال تلميذاً على مقاعد الدراسة، فعمدت إلى الهروب من المدرسة تحت تأثير رفاقي، فقد كانوا يتردّدون إلى أحد مقاهي الأنترنت الموزّعة في أحيائنا. أجل لقد كنا نهرب من المدرسة لنذهب إلى مَحال الأنترنت، ولم يكن يُثنينا عن ذلك قانون مدرسي أو غير ذلك. لطالما اختلقنا الأكاذيب وتذرعنا بالمرض بحجة العودة إلى المنزل خلال دوام المدرسة، وكان مقر المنزل حينها مَحال الأنترنت، توالت الأيام على هذا المنوال لمدّة ٣ سنوات. لقد أسفر هذا الأمر عن الكثير من النتائج والتبعات، ليس أقلها أني تعرّفت على الكثير من الأمور التي سبّبت لي أزمات نفسية في أكثر من جانب وعلى غير صعيد، لقد تفتّحت عيناي على

(*) عنوان حلقة على تلفزيون المنار (برنامج مشكلة ورأي)، وقد شارك سماحة الشيخ مصطفى قصير فيها وقدم رأيه في علاج هذه الظاهرة المنتشرة وسط التلاميذ والطلبة اليوم.

صور ومشاهد وأفكار عدّة، وفُتحت لي أبواب شتى كنت أجهل الكثير عنها في الجوانب العاطفية وما شابهها...

لا أنكر أني اكتسبت أموراً أعتبرها جيّدة سواء بالنسبة لتحسين لغتي الإنجليزية، أو بالنسبة للتعارف مع عدد كبير من الناس ممّن لا أعرفهم وفي غير دولة ومن حضارات مختلفة. لقد وصل الأمر بي إلى أنّي شعرت بالإدمان على هذه الملهاة الرائعة، لقد ألهاني هذا الإدمان عن دروسي، وعن كل ما يجب القيام به، لقد غدوت كسولاً لا جلد لي حتى على الذهاب إلى المدرسة، ولا قدرة لي على ترك هذا الجهاز الذي أخذ يسرق مني كل وقتي، ممّا أدّى إلى إهمالي واجباتي المدرسية، فتراجعت معدلاتي، وهذا ما دفع أهلي إلى الإلتفات مؤخّراً لما أصابني، ولا أخفي عليكم القول بأنّه لا يمكنني أن ألومهم لأنّي كنت أخدعهم...

استمرت حالي على هذا المنوال حتى اتخذت قراري، وشعرت أني سأخسر مستقبلي، وبدأت تساؤلاتي حول الأنترنت وما قدّمه لي، لدرجة بدأت أقنع نفسي بأنّه لم يُقدّم لي شيء، وبدأت أحاول أن أساعد ذاتي للخروج من أزمتي، وأعتقد بأنّي نجحت في تبديل حالي على عكس العديد من زملائي الذين رافقوني في مسيرتي الإدمانية تلك، حيث ينطبق عليهم القول المعروف «مكانك راوح». ما يشغل بالي في هذا السياق، وبعد أن غزا الأنترنت أكثر منازلنا بسهولة أكبر من الماضي، ازدادت مخاوفي بالنسبة لمن هم في ربيع العمر، وأسأل هل من نصيحة يُمكن توجيهها للأهل للتمكّن من مساعدة أولادهم على الإبتعاد عن التجربة التي سبق لي أن مررت بها».

قصّة رامي هذه، هي إحدى القصص الكثيرة التي حصلت عليها أثناء إجراء تحقيق حول الموضوع، أحببت أن أضع معطياتها بين أيديكم علّ

العديد من المشاهدين يُتابعون بعضاً من القصص التي قد تدور في تلك الأماكن التي لا يعلم إلاّ الله ماذا يُمكن أن تحمله لأولادنا.

(المُرسلة ـ رنا)

ـ الشخصيات:

١ ـ رامي، ١٩ سنة.

٢ ـ رنا، منتصف العشرينات.

ـ أحداث تفصيلية تخدم القصّة:

١ ـ عندما تراجعت معدلات رامي في المدرسة، لاحظ الأهل هذا الأمر فتوجهوا له بالسؤال لكنّه لم يعطهم أي إجابة، واللافت أنّ أهله لم يعرفوا ماذا جرى معه في حياته حتى الآن.

٢ ـ قال البعض لرنا:

أ ـ «أفعل على الأنترنت ما لا أستطيع فعله في بيتي، أشاهد أفلاماً إباحية، وأعيش مغامرات شيّقة».

ب ـ نجد فيه ملاذنا وتسليتنا.

ج ـ تطوّرت معرفتنا ضمن هذا العالم من المراحل التمهيدية إلى المراحل التنفيذية على الأرض.

د ـ أشعر بنشوة في محل الأنترنت، هناك أستطيع التحدّث براحة، أدخّن وأفعل ما أريد....

هـ ـ لقد تملّك بي الأنترنت، لدرجة أفقدتني دراستي، فقد كان والدي يصحبني إلى المدرسة، فأنتظره ليغيب عن ناظري فأقصد محل الأنترنت، وأقضي فيه نهاري وكأنّ شيئاً لم يكن.

و ـ حسب متابعاتي أعتقد أنّ هذه الأمكنة أضحت ملجأ لكل باحث عن

إشباع غرائزه وحاجاته، وليست تلك الأمكنة التي يقصدها الطلاب لإجراء الواجب الدراسي، إلاّ ما ندر...

- **الجواب وتعليق الشيخ مصطفى قصير:**

ينبغي أن لا ننظر إلى أي وسيلة من وسائل الإتصالات بطريقة مجتزأة، شبكة الانترنت شكّلت قفزة مهمة جداً على مستوى الربط والاتصال ونشر المعلومات وسرعة الوصول إليها، لكن كل نعمة محفوفة بمخاطر لها علاقة بطريقة استخدامها غالبا. فشبكة الانترنت تقدّم خدمات جليلة لايمكن انكارها، لكنها استغلت بشكل كبير لنشر الثقافات الغريبة والأضاليل وتشويه الحقائق والترويج للإباحية والتحلل الأخلاقي...

القلق الذي يُساور الآباء والأمهات والمربّين هو في جوانب عدة:

الجانب الأول: يرتبط بالإدمان، حيث أن هذه النافذة تستهوي المراهقين والشباب وربما الاطفال بدافع الفضول بداية والتواصل مع من يعرفون ومن لا يعرفون، ثم يتحول إلى ادمان يؤدي إلى هدر الوقت وتضييع العمر فيما لا نفع فيه واعاقة النمو الطبيعي والمتوازن لشخصيته وقدراته العقلية والجسدية، بقطع النظر عن المواضيع والمضامين والمواقع التي يطرق بابها، الأمر الذي يشكل ضرراً من الناحية التربوية.

هذا الخطر يشترك فيه معه التلفزيون وربما كل إدمانٍ آخر، قبل حوالي عشرين سنة كتبت الباحثة الأمريكية ماري وين عن مخاطر الإدمان التلفزيوني على الأطفال بقطع النظر عن المادة التي يشاهدونها، حيث رأت أن نفس المشاهدة لمدة طويلة له مخاطره النفسية والتربوية وله تأثيراته السلبية على النمو والتوازن في الشخصية، وهو بحث نشر ضمن سلسلة عالم المعرفة عام ١٩٩٩. ما ورد في الدراسة ينطبق تماماً على إدمان الإنترنت، وإدمان الألعاب الإلكترونية أيضاً.

الجانب الثاني: يرتبط بالمضمون، ونحن هنا يساورنا قلق شديد للواقع المأساوي الذي ربما لا يعلم به الكثيرون ممن يسهلون لأبنائهم التعامل مع هذه الوسيلة في المنزل أو في المقهى دون رقابة، بعض الإحصاءات تقول بأنّ عدد المواقع الإباحية تتجاوز العشرة آلاف موقع، وفي كل يوم يفتتح عشرات المواقع الجديدة، تقوم هذه المواقع بنشر ثقافة الشذوذ والإنحلال والإباحية بما لا نظير له في السابق، وأكثر مستخدمي هذه المواقع تتراوح أعمارهم بين **١٢** و**١٧** عاماً، **٦٣٪** من هؤلاء المراهقين لايدري أولياؤهم طبيعة ما يتصفحونه من مواد إباحية.

لكن لماذا التزايد السريع لعدد هذه المواقع؟ الأمر يعود لسببين:

الأول تجاري، فالعدد الهائل من الزائرين يجعل هذا النوع من الصفحات محلاً للإعلان والربح، فقد ذكرت بعض الاحصاءات أن أكثر صفحات الإنترنت بحثا وطلبا هي صفحات إباحية.

والثاني سياسي، أريد أن أركز عليه لأنه الأخطر.

وهنا أتوجه إلى الشباب بالذات، فإن الصراعات التي يشهدها عالمنا اليوم تستخدم كل الوسائل المتاحة، لاتتقيد بمحرمات أو بحدود، ومن أهمها القضاء على منابع الحيوية والقدرة عندنا، أعني الشباب، لأن مجتمعاً بلا شباب يعني مجتمعاً بلا أفق وبلا إمكانات وبلا مستقبل، ولذا هم يلجأون إلى كل وسيلة من شأنها إغراق الشباب في اللهو والعبثية واللامبالاة وإدمان المخدرات والتحلل والبحث عن اللذة، وهؤلاء هم ضحايا لمشروع كبير يموّل بمليارات الدولارات.

لا أقول ذلك من باب المبالغة والتبرير وإلقاء التبعات على الآخرين وإنما من باب دق ناقوس الخطر لنتحمل جميعاً المسؤولية ونضع الخطط والبرامج التي تنقذ أبناءنا وتحميهم من مخاطر ما يخطط لهم.

الجانب الثالث: البيئة الموبوءة لمقاهي الإنترنت ولنوعيّة الاشخاص الذين يتم التعرف عليهم في المقهى أو من خلال الشبكة، والتواصل معهم والانجرار إلى مصائدهم والتأثر بهم واكتساب عاداتهم واخلاقهم وانحرافاتهم، وهو واقع قد لا نكتشفه إلا بعد فوات الأوان.

هذا كله لايمنعنا من الإقرار بضرورة التعامل مع الشبكة والاستفادة من الخدمات المهمة التي تقدمها، والحاجة الماسة لتوجيه أبنائنا إلى الكنوز العلمية التي يُمكن الوصول إليها من خلالها، لكن وفق ضوابط تحصنهم من الانجرار إلى ما تحمله أيضاً من مساوئ وأخطار.

العلاج يتم على مراحل:

أولاً: العلاج الموضعي يتمثل بـ:

١ ـ العلاج التقني (عبر برامج الترشيح أو الحجب أو الفلترة) التي يُمكن الحصول عليها بسهولة، من خلال الشبكة ذاتها، أو من خلال مراكز تسويق البرامج الالكترونية.

٢ ـ التوجيه والإرشاد والتوعية، لترشيد الاستفادة من هذه الوسيلة، وبأسلوب مقنع، لتشكيل الحصانة الذاتية.

٣ ـ تفعيل الرقابة عند الاستعمال وبعد الاستعمال من خلال رصد المواقع التي تم الدخول إليها، واختيار المكان المناسب، والتحكم بالتوقيت والكيفية والكمية.

ثانيا: العلاج الاستراتيجي يتمثل بـ:

١ ـ التربية الصحيحة والتحصين الذاتي الذي يجعل الشباب يستعصون على عوامل الإغراء والجذب سواء من خلال الإنترنت أو غيره، وهو ما يستدعي وضع الخطط والبرامج التربوية المناسبة.

٢ ـ إيجاد مشروع وطني للتحكم بالشبكة على مستوى البلد، والحيلولة

دون تمرير المواقع الإباحية، كما هو معتمد في بعض الدول الحريصة على شبابها وأغلى ما عندها، بالمناسبة هذه الدول تواجه هجوماً دائماً من قبل الجمعيات المدافعة عن حقوق الإنسان، مما يجعلنا نضع علامات استفهام كبيرة على دور هذه الجمعيات في خدمة السياسة التي ذكرتها.

○ دور المؤسسات التربوية

المؤسسات التربوية بلا شك تتحمل مسؤولية في هذا المجال إلى جانب كل الآباء والأمهات وليس لوحدها، وإلى جانب كل المسؤولين في البلد الذين عليهم أن يتعاونوا لحماية الأطفال والمراهقين والشباب من كل خطر ومنها مخاطر الإنترنت.

نحن على هذا الصعيد قُمنا ونقوم بجملة خطوات:

* اعتماد نشرات خاصة ترسل للأهل، على سبيل المثال: نحن لخصنا دراسة الباحثة ماري وين ووزعناها على أولياء الأمور ليستفيد منها من يُطالع منهم (طبعاً).

* استخدام وسائل الترشيح والرقابة والتوجيه، ولدينا مشروع ندرسه على مستوى اللقاء التنسيقي للمؤسسات التربوية الإسلامية.

* تشكيل ندوات للطلاب والأهل.

* هناك دور كبير لمسؤولي الإرشاد والتوجيه والمُرشدين الدينيين.

لكن تبقى كل هذه الخطوات عقيمة إذا لم يتم التعاون من قبل الأهل لأن الخطر الأساسي هو خارج المدرسة وبعيداً عن رقابتها.

■ ■ ■

أوقات الفراغ نعمة أو إشكاليّة

تطرح اليوم قضية أوقات الفراغ وأساليب ملئها كمشكلة اجتماعية، تعاني منها العديد من المجتمعات، وبالأخص المتمدّنة منها، ويجري دراسة أسبابها وكيفيّة علاجها، والحدّ من تأثيراتها السلبيّة.

هذه المشكلة وإن لم تكن حديثة الولادة إلا أنها استفحلت وتعاظمت في عصر الحضارة الماديّة التي أنتجت نظاماً اجتماعياً يحدّد ساعات العمل من جهة، ويوزّع الاختصاصات على نحوٍ يحوّل الإنسان في حركته الرتيبة إلى آلة من آلات المصنع وأداة من أدوات الإنتاج. ولسنا هنا في وارد الحديث عن سلبيّات أو إيجابيّات هذا النوع من النظام، ونكتفي بالإشارة إلى أنّ مشكلة أوقات الفراغ من نتاجات مثل هذا النظام.

في أيّ مجتمع من مجتمعاتنا المعاصرة لو طلبنا من أيّ فرد تصنيف ساعات يومه فسيقوم بتوزيعها بشكل عفوي وطبيعي إلى أربع فئات:

١ ـ ساعات العمل اليومي.

٢ ـ ساعات النوم والراحة الضروريّة.

٣ ـ ساعات الأمور الخاصّة والعائليّة اللازمة.

٤ ـ ساعات الفراغ.

○ كيف تنشأ المشكلة؟

لا شكّ أنّ وجود أوقات الفراغ له ارتباط وثيق بنظرة الإنسان للحياة وفلسفتها، وطريقته التي يعتمدها في تنظيم مختلف شؤونه، فغالباً مّا نجد أنّ الذين يحملون رؤية قاصرة تجاه فلسفة وجودهم، ولا يتطلعون لأكثر من حياة رتيبة غير هادفة إلا في دائرة الحاجات الماديّة، همّهم تحضير متطلبات المعيشة فحسب، وإذا تهيأت لهم استغرقوا بها وانتهى كل شيء، غالباً ما نجد أمثال هؤلاء أكثر ابتلاءً بمشكلة أوقات الفراغ من غيرهم.

بينما لا نجد ذلك لدى الأفراد الذين يدركون حقيقة وجودهم، ويعرفون مصيرهم، ويتحرّكون باتجاه أهداف بعيدة تتجاوز متطلبات معيشتهم، بل تتجاوز دائرة حياتهم الدنيويّة، ولا تشكّل متطلبات المعيشة في نظرهم إلا بعض الوسائل التي لا بدّ منها في مسيرتهم. مثل هؤلاء لا معنى لأوقات الفراغ في قاموس حياتهم، إذ أنهم يوظّفون كلّ لحظة من لحظات عمرهم وكلّ فرصة من الفرص التي أنعم الله بها عليهم في سبيل الوصول إلى هدفهم المنشود، فلا يبقى لديهم أيّة لحظة فراغ.

فالإنسان الذي يعمل من أجل بناء نفسه بما يتناسب مع حياته الأبديّة الدائمة ويدرك أنّه يسير نحو الخلود، وأنّه يبني من خلال حياته الدنيا الفانية حياةً دائمة له في عالم آخر غير هذا العالم، وأنّ الطاقات التي يمتلكها الآن يُمكن توظيفها في إعداد أكمل الظروف وتهيئة أفضل المستويات من النتائج التي تحقّق له هناك حالة رفيعة ومستوىً عالٍ من المنازل، مثل هذا الإنسان لن يكون لديه وقت يُمكن التعبير عنه بأنّه «وقت فراغ»، لأنّه لا محدوديّة للعمل في منهجيّة حياته، لا كمّاً ولا كيفاً.

* الإمام موسى الكاظم عليه السلام عندما يُعتقل من قبل سلطان الجور ويُودع السجن يناجي ربّه قائلاً:

«اللهم إنّك تعلم أنني كنت أسألك أن تُفرغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت فلك الحمد».

بينما نجد الذين يتحدّثون عن مشكلة أوقات الفراغ ويعانون منها يرون أن السجون من أبرز مصاديق هذه المشكلة.

نحن لا نريد أن ننكر وجود هذه المشكلة الاجتماعية، وإنما أردنا أن نسلّط الضوء على العوامل التي نشأت عنها وأدّت إلى قيامها، فإنّ ذلك له مدخليّة في معالجتها.

○ الآثار السلبية لأوقات الفراغ:

ربما يتعجّب البعض من الحديث عن الآثار السلبيّة لأوقات الفراغ، متوهماً أنّ المشكلة غالباً عند الناس تكمن في ضيق الوقت عن استيعاب الأعمال التي يحتاج الإنسان لإنجازها، فضيق الوقت هو المشكلة التي تحتاج إلى علاج، وهؤلاء ينظرون إلى الطبقة أو إلى الأفراد الذين تُلجئهم الظروف الاجتماعيّة والمعيشيّة الصعبة لمضاعفة العمل وبالتالي استهلاك أغلب ساعات اليوم، وربما يوصلون الليل بالنهار، فهؤلاء هم الأتعس حظاً والأحوج إلى معالجة معضلتهم.

إلا أنّ هذا النوع من الرؤية ناشئ من النظر إلى الأمور بعين واحدة ومن خلال نافذة ضيّقة، فصحيح أنّ هؤلاء هم أسوء حالاً من الذين يكتفون بالقليل من العمل لتحقيق متطلبات العيش، ولا ينبغي للإنسان أن يستهلك كل لحظات حياته في الكدّ والسعي لتحقيق حاجاته المادية ومتطلبات العيش فحسب، وإذا كنا أحياناً ونظراً لتعقيدات العصر نقتل زهرة حياتنا وأعزّ طاقاتنا في السعي وراء لقمة العيش، فإنّ هذه مشكلة ينبغي أن تدرس في إطار الأنظمة الاجتماعية والسياسيّة التي أدّت إلى مثل هذا الأمر.

إلا أنّ الحديث عن مشكلة أوقات الفراغ ينشأ من كونها تشكّل أرضيّة خصبة لتفشي الكثير من الأمراض الاجتماعيّة، وساحة مناسبة لتحرّك روّاد المفاسد الاجتماعية والأخلاقيّة، والانحرافات الخطرة، والمزالق المهلكة.

فللفراغ انعكاسات سلبيّة قاتلة على الجانب النفسي عند الإنسان من جهة، وهو الذي يفسح المجال أمام ملأ الفراغ بوسائل اللهو والعبث، وذلك بلا شك ينطوي على أخطار عظيمة، ويبدّد طاقات الإنسان وإمكاناته بلا فائدة وبلا نتيجة، وإذا لم يدرك مخاطر بعض تلك الوسائل من الناحية الروحيّة والتربوية والاجتماعية، فسوف يستغرق في التعاطي معها حتى الدخول في أسرها والإنشداد إليها لتتحول إلى جزء من حياته وممارسته اليومية، والنتيجة لا يُمكن التنبؤ بحدودها.

فالإنسان بطبعه وغريزته يسعى لملأ أوقات فراغه، وكثيراً ما يلجأ إلى طريقة غير مدروسة يستجيب فيها لهوى النفس ومغريات الشيطان، والذي يزيد المشكلة تعقيداً توفر الوسائل المفسدة بشكل واسع، وجهوزيتّها وحضورها في كل وقت وفي كل مكان دون عناء ودون كلفة كبيرة.

○ كيف نُسيطر على المشكلة؟

١ ـ هناك مدخليّة لثقافة الفرد والمجتمع في اختيار الأسلوب الأنسب لملأ أوقات الفراغ، فالإنسان الذي يحمل ثقافة دينيّة كما قدّمنا ويلتزم بعقيدة سليمة، سوف يجد الباب مفتوحاً أمامه لملأ ساعات فراغه بالنشاطات الدينيّة والعباديّة وأعمال الخير وما شابه، ولا شك أنّ الفرد الذي ذاق طعم المعرفة واستطعتم حلاوتها لن يجد بديلاً عن ملأ فراغه بالمطالعة وطلب العلم والمعرفة.

أما الإنسان الذي حُرم من كلّ ذلك وهو يحمل بين جنبيه غرائز

وشهوات حيوانيّة فسوف تدفعه لاختيار ما يتناسب مع تلك الدوافع الغريزيّة، فينطلق لإشباعها في أوقات فراغه بنهم بما تمكّنه منه طاقاته وإمكاناته، ممّا يجعله عرضة للوقوع في أحضان حركات منظّمة تسعى لتخريب المجتمع والقضاء على القيم الأخلاقيّة، أو عرضة لاستغلال عناصر جشعة توظّف طاقات مثل هذا المسكين لمآربها ومصالحها الخاصّة.

وبناءً عليه فإنّ الدولة بشكل خاص والمؤسّسات العلميّة والثقافيّة بشكل عام تتحمّل هنا مسؤوليّة كبرى تجاه هذه المشكلة، وعليها أن تقوم بدورها وتضع خططاً وبرامج مكثّفة للحيلولة دون استغراق وسائل التخريب الاجتماعي والأخلاقي في دورها الهدّام، وتوجيه الشباب خاصّة وجميع أفراد المجتمع بشكل عام على ثقافة سليمة ملتزمة بالقيم والأخلاق الصالحة، كي تضع كل فرد على الطريق الصحيح في اختيار نشاطاته المناسبة التي تخدم الهدف الأسمى الذي ينبغي للإنسان أن يسعى لتحقيقه.

ولا شكّ أنّ المنابر الدينيّة التي نظّم الإسلام لها مراسم خاصّة يوميّة وموسميّة كصلاة الجماعة والجمعة والأعياد، والمناسبات العديدة التي لا يخلو منها أسبوع من أسابيع السنة، هذه المنابر يُمكن أن تؤدّي دوراً هامّاً في هذا المجال.

والثروة الكبيرة من التوجيهات المؤثرة والعظيمة التي تضمّنها القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة وسنّة أئمّة أهل البيت عليهم السلام تشكّل مدرسة هامّة في رسم معالم ثقافة الفرد والمجتمع لو أتيح لها أن تحتلّ موقعها المناسب.

٢ ـ المدرسة في عصرنا الحاضر تتحمّل المسؤوليّة الأكبر في تربية الأجيال الصاعدة، وبإمكانها أن تشارك في حلّ المشكلات الاجتماعيّة بشكل أكثر فعّاليّة، ومنها هذه المشكلة، هذا إذا أعدّ لهذه المدارس هيئات

تعليميّة سليمة من الأمراض الروحيّة خالية من الانحرافات السلوكيّة والأخلاقيّة، جديرة بالمسؤوليّة، خبيرة بالأمور التربويّة.

والحقّ يُقال أنّ إعداد المعلّم إعداداً خاصّاً أهمّ بكثير من إعداد الطبيب والمهندس وغيرهما من الأفراد الذين يحتاجهم المجتمع.

والمؤسف أنّ بلدان العالم الثالث بشكل عام لا يُولون أهمّية لمعلمي المراحل التعليميّة الابتدائية، بينما اللازم إخضاع هؤلاء للتأهيل التربوي قبل النظر في تأهيلهم العلمي، مع أنّ الفرص متاحة أمام القيّمين والمسؤولين لتنظيم برامج خاصّة للتأهيل التربوي لجميع معلمي المدارس.

٣ ـ وسائل الإعلام المختلفة خاصّة التلفزيون والإذاعة والصحف يُمكن أن تؤدّي دوراً في توجيه المجتمع بشكل مباشر وغير مباشر لاختيار الأسلوب الأفضل لملأ أوقات الفراغ بشكل يحقّق ثمرات كبيرة وبعيداً عن الآثار السلبيّة.

دور هذه الوسائل وخاصة التلفزيون في ترويج الألعاب الرياضيّة في أوساط الشباب لا يُمكن إنكاره. فإنّ الألعاب الرياضيّة وخاصّة كرة القدم تحتلّ مساحة كبيرة من برامج التلفزيون، والعديد من الصحف والمجلات المحلية قد خصصت بالكامل لهذا الغرض، فضلاً عن النوادي الرياضية الكثيرة جدّاً المنتشرة في طول البلاد وعرضها، ولعل الغرب أوّل من أدرك أهمّيّة هذه الطريقة في جذب الشباب وملأ أوقات فراغهم، حتى أنّ العالم الغربي يحاول الإفادة من هذه الألعاب في الأغراض السياسيّة وفي شغل الأنظار عن المشاكل الأخرى التي تعاني منها بلادهم، ولعله وفّق في ذلك إلى حدٍ بعيد.

المؤسف أنّ المجتمع الإسلامي هذا اندفع وراء هذه الطريقة بلا وعي حتى تجاوزت حدودها وباتت تخلق مشكلة اجتماعيّة.

ولا شكّ أنّ الألعاب الرياضيّة لها جوانب إيجابيّة عديدة إلا أنّه يجب أن لا تتجاوز حدودها الطبيعيّة، وأن لا يُعتمد عليها كأسلوب وحيد لملأ فراغ الشباب، على حساب الأساليب والطرق الأخرى التي لها مدخليّة مباشرة في بناء المجتمع الصالح.

فمن هنا نحن نطالب وسائل الإعلام أن تُولي اهتماماً بالوسائل والطرق الأخرى بنفس المستوى الذي تهتم به الآن تجاه الألعاب الرياضيّة، ويمكن الاستفادة في هذا المجال من الخبراء والمتخصّصين في المجالات كافة.

٤ ـ نريد أن نطرح في هذه الفقرة من بحثنا بعض الوسائل التي يُمكن دراستها بجدّيّة وبرمجتها بالشكل المناسب لتكون خططاً لملأ الفراغ.

أولاً: افتتاح النوادي العلميّة على غرار النوادي الرياضيّة لتنمية الإبداعات العلميّة عند الأطفال والشباب وزرع روح الإبداع عندهم وإجراء مسابقات خاصّة في هذا المجال بعد أن توضع الإمكانات اللازمة في متناولهم.

ثانياً: تشجيع النوادي الأدبيّة وتكثيرها وتنظيم مسابقات شعريّة وأدبيّة خاصّة في المناسبات العظيمة التي ترتبط بأهل البيت عليهم السلام، وإقامة مهرجانات واستعراضات أدبيّة للأطفال والشباب وإصدار نشرات خاصة لعرض نتاجاتهم.

ثالثاً: القرآن الكريم والسنّة المطهّرة من أهمّ مميزات المجتمع الإسلامي، والمجتمع الإسلامي الآن يشهد حالة من الاهتمام بحفظ القرآن الكريم وتلاوته وتنظيم المسابقات والأمسيات لأجل ذلك. إلا أنّ المطلوب

زيادة هذه الحركة نشاطاً وسعةً، وتطويرها إلى الاهتمام بروح القرآن فضلاً عن شكله وألفاظه.

رابعاً: يُمكن الاستفادة من المخيمات الطلابيّة لتنظيم دورات تربويّة أخلاقيّة في أجواء طبيعيّة سليمة، تجمع بين جمال الطبيعة وجمال الروح الإنسانية الباحثة عن الكمال، هذه الدورات تحتاج إلى مؤسّسة كبيرة ترعاها وتشرف على تنظيمها وتهيّء لها المربّين الكفوئين، على أن يتم خلالها تدريب الطلاب على الممارسات الأخلاقيّة خلال فترة المخيّم وتدربهم على تحمّل المسؤوليّة والاعتماد على النفس من خلال توزيع المهام عليهم، فمخيّمات الطلاب إذا أُحسِن الاستفادة منها وتنظيم برامجها من أفضل الوسائل لتربية الشباب وتدريبهم الأخلاقي.

خامساً: المطالعة وسيلة مهمّة لنشر الثقافة وملأ ساعات الفراغ، إلا أنّ طبقة كبيرة من المجتمع الإسلامي لا تعرف قيمة المطالعة، أو لا تعرف كيف تدخل إلى هذا البحر المترامي الأطراف من الكتب والنشرات، أو لم تتذوّق حلاوة المطالعة ولذّة المعرفة.

فلا بدّ من وضع خطّة بعيدة المدى تقوم ببناء العلاقة المتينة بين الناس والكتاب، وذلك من خلال توجيه كل شريحة من شرائح المجتمع نحو الكتاب المناسب، وترغيب القراء بالمطالعة وتعريفهم بالكتب، وتسهيل حصولهم على الكتاب المناسب. وينفع في هذا المجال زيادة عدد المكتبات العامة وصالات المطالعة، وتزويدها ببرامج التعريف بالكتاب والإعانة على اكتشاف كنوزه.

سادساً: على صعيد كبار السن والمتقاعدين المشكلة وإن كانت أقلّ خطراً من مشكلة الشباب إلا أنها تترك آثاراً سلبية من نوع آخر على نفسيّة

المسنّ عندما يجد نفسه عاطلاً عن العمل فينمو عنده الإحساس القاتل بالفراغ وأنّه أصبح عنصراً زائداً مستغنىً عنه فيذهب ضحيّة اليأس وعقدة الشعور بتاقل الآخرين منه حتى أقرب المقرّبين.

وحلّ مشكلة هؤلاء تتحقّق بتنظيم مؤسّسات خيريّة توظّف هؤلاء بعمل الخير تطوعاً حسب الإمكان، ومجتمعاتنا الإسلاميّة أقلّ معاناة في هذا المجال من مجتمعات الغرب، حيث أنّ المساجد والحسينيّات وما فيها من نشاطات تشكّل فرصاً مناسبة لشغل أوقات فراغ هؤلاء إلا أنّ تطوير منظّمات العمل الخيري التطوعي ومؤسّساته للإفادة من هؤلاء تبعث روح الأمل فيهم وتؤدّي إلى إحياء طاقاتهم المعطّلة، وفي هذا المجال هناك فكرة قابلة للدرس وذلك بأن يعلن عن مؤسسة عمل خيري تطوّعي تحدّد أعمال الخير التي يُمكن مشاركة كبار السن فيها بشكل تطوّعي ثم تستدعي المتطوّعين للتسجيل في هذه المجالات في ساعات معيّنة يوميّاً وأسبوعيّاً.

فمثلاً يُمكن أن تكون من جملة أعمال الخير:

١ ـ إرشاد الزائرين والسائحين، وتنظيم حركتهم.

٢ ـ حراسة الأماكن المقدسة.

٣ ـ الإشراف على أماكن عبور الأطفال خاصة بالقرب من المدارس.

٤ ـ القيام بأمور تبليغيّة مختصرة وإرشاديّة في الأماكن العامة، من قبيل توزيع كراسات صغيرة أو بطاقات إرشاديّة أو ما شابه، ويمكن توسعة هذا الأمر إلى منشورات تذكر السائقين بضرورة الحفاظ على أنظمة السير، وروّاد الحدائق العامّة بضرورة الحفاظ على النظافة والنظام ورعاية الأخلاق الإسلامية، وأمثال ذلك.

٥ ـ يُمكن إعطاء المتقاعدين دوراً في أجهزة الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، لكونهم أبعد عن التهمة بعد توجيههم إلى الأساليب الجذّابة في هذا المجال، خاصة على صعيد ترويج الحجاب وتنبيه النساء اللواتي لا يلتزمن بدقة بذلك.

إضافة إلى أمور أخرى كثيرة يُمكن ابتكارها وإعطاء الكبار والمسنّين دوراً هامّاً فيها.

وختاماً: أودّ الإشارة إلى الحديث النبوي الشريف الذي يتحدث عن تقسيم ساعات النهار، فقد روى العلامة المجلسي (قدس سره) في [بحار الأنوار ١/ ١٣١] عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي أنه قال:

«ينبغي للعاقل إذا كان عاقلاً أن يكون له أربع ساعات من النهار، ساعة يناجي فيها ربه وساعة يُحاسب فيها نفسه، وساعة يأتي أهل العلم الذين يُبَصِّرونه في أمر دينه وينصحونه، وساعة يخلي بين نفسه ولذّتها من أمر الدنيا فيما يحل ويُحمد».

أخيراً القاعدة: أن يكون لدينا عمل نبحث له عن وقت فارغ لأدائه، وليست القاعدة أن يكون لدينا وقت نبحث له عن عمل.

■ ■ ■

أطفالنا
والمُستقبل

الولد الصالح

ورد في الحديث عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: «مِنْ سَعَادَةِ الرَّجُلِ الْوَلَدُ الصَّالِحُ» [الكليني: الكافي ٦/٣].

يحب الإنسان بدافع غريزي فطري لديه بأن يُرزق أولاداً وبنين، وأن يكون له ذرّية، وقد يجد في أولاده نوعاً من الامتداد له، فهم يرثون اسمه وماله، وأحيانا يرى فيهم عوناً له على حياته يوم عجزه، أو غير ذلك.. ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٦]. لكن الأهم أن يعرف الإنسان كيف يُربي أبناءه، وكيف يُنشئهم نشأة صالحة ليكون في وجودهم خير الدنيا والآخرة، وليكونوا من أهل الصلاح في مجتمعاتهم وعشائرهم.

الأنبياء والأوصياء لم يطلبوا من ربهم أن يرزقهم ذريّة ارضاءً للنزعة الغريزيّة البشريّة، وإنما سألوا الله تعالى ذرّية طيبة وأولاداً صالحين.

فقد حكى الله سبحانه وتعالى عن زكريا عليه السلام في القرآن الكريم قال: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقال في موضع آخر: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ [مريم: ٦].

ويقول أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فيما روي عنه: «وَاللهِ مَا سَأَلْتُ رَبِّي وَلَداً

نَضِيرَ الْوَجْهِ وَلا وَلَداً حَسَنَ الْقَامَةِ وَلَكِنْ سَأَلْتُ رَبِّي وُلْداً مُطِيعِينَ للهِ خَائِفِينَ وَجِلِينَ مِنْهُ حَتَّى إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ مُطِيعٌ للهِ قَرَّتْ بِهِ عَيْنِي» [بحار الأنوار، المجلسي، ٢٤/ ١٣٢].

فلا ينبغي للمؤمن أن يكون اهتمامه في الحفاظ عل صحة أولاده وسلامتهم الجسدية، وحرصه على تأمين حاجاتهم المعيشيّة ومستلزمات راحتهم ورفاهيتهم، أكبر من اهتمامه بصحتهم الروحيّة وسلامتهم الأخرويّة، وأشدّ من حرصه على إيمانهم وصلاحهم وتقواهم. لأن العمل على ضمان آخرتهم أولى من الاهتمام بسلامة دنياهم، «الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر» [بحار الأنوار، ٧٥/ ٧٦، عن الإمام علي عليه السلام] وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدنيا مزرعة الآخرة» [عوالي اللآلي، الأحسائي، ١/ ٢٦٧] كما ورد في المأثور عن أهل بيت العصمة والطهارة.

○ الولد من ثمرات الأعمال

يقول أمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً ولده الحسن عليه السلام: «وجدتك بعضي بل وجدتك كُلّي حتى كأنّ شيئاً لو أصابك أصابني» [نهج البلاغة للشريف الرضي، الوصية ٣١]، ليست العبرة هنا بالخصائص الجسديّة والشكليّة، فليس الإنسان مسؤولاً عن طول أولاده وقصرهم ولا عن لون بشرتهم وشعرهم ونضارة وجههم أو عدمها، وان كانت خصائصه الوراثية تشكل منشأً لذلك من الناحية العلمية والطبيعية. فهذه أمور خلقية وراثية لا تقع غالباً في دائرة اختيار الابوين ليتحكّموا بها في الجملة. ولذا ليس من الصواب أن يفتخر الوالدان بشيء من ذلك أو يلام أيّ منهما على عدم وسامة الوليد أو عدم امتلاكه القامة أو الطلعة أو ما شابه.

ما يقع ضمن دائرة التكليف وضمن دائرة الاختيار هو الجانب المعرفي

والسلوكي والأخلاقي الذي يتأتّى من خلال التعليم والتربية والتنشئة، مع التسليم بتعدد العوامل المؤثرة في تكوين الصورة النهائية للشخصيّة العلميّة والأخلاقيّة والسلوكيّة، إلاّ أنّ البيئة التربويّة الداخليّة اللصيقة تبقى الأقوى والأكثر تأثيراً، وهي بيئة يُمكن للأبوين اختيارها وتشكيلها بوعي وارادة، والتحكّم بها، فعندئذ يصحّ أن يقال أنّ الأبوين يتحمّلان مسؤولية النتائج المترتّبة على الفعل التربوي والمنهجية المعتمدة واختيار العوامل المؤثرة والبيئة الملائمة أو غير الملائمة.

وعلى هذا الأساس يُمكن إدخال الأولاد وما ينتج عنهم من قول وفعل وموقف ضمن دائرة الأفعال العائدة للأبوين أو أحدهما بحسب نسبة التأثير، فينطبق على ذلك ما ورد من نصوص كثيرة في المضمون التالي:

عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «مَنْ عَمِلَ بَابَ هُدًى كَانَ لَهُ أَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهِ وَلا يُنْقَصُ أُولَئِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ وَمَنْ عَمِلَ بَابَ ضَلالٍ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهِ وَلا يُنْقَصُ أُولَئِكَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ» [وسائل الشيعة، الحر لحاملي، ١٦/ ١٧٤].

ومع ذلك فقد ورد في خصوص الولد الصالح ولحوق الوالدين من الأجر الناتج عن عمل الخير الذي يقوم به الأولاد عدة نصوص نتناول بعضاً منها:

عن النَّبيُّ صلى الله عليه وآله: «إِذَا مَاتَ الْمُؤْمِنُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» [بحار الأنوار، ٢/ ٢٢].

وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «لا يَتْبَعُ الرَّجُلَ بَعْدَ مَوْتِهِ إِلا ثَلاثُ خِصَالٍ: صَدَقَةٌ أَجْرَاهَا للهِ فِي حَيَاتِهِ فَهِيَ تَجْرِي لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَسُنَّةُ هُدًى سَنَّهَا فَهِيَ يُعْمَلُ بِهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ» [الكافي، الكليني، ٧/ ٥٦].

وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: «مَرَّ عِيسَى ابْنُ

مَرْيَمَ عليه السلام بِقَبْرٍ يُعَذَّبُ صَاحِبُهُ ثُمَّ مَرَّ بِهِ مِنْ قَابِلٍ فَإِذَا هُوَ لا يُعَذَّبُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ مَرَرْتُ بِهَذَا الْقَبْرِ عَامَ أَوَّلَ فَكَانَ يُعَذَّبُ وَمَرَرْتُ بِهِ الْعَامَ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ يُعَذَّبُ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنَّهُ أَدْرَكَ لَهُ وَلَدٌ صَالِحٌ فَأَصْلَحَ طَرِيقاً وَآوَى يَتِيماً فَلِهَذَا غَفَرْتُ لَهُ بِمَا فَعَلَ ابْنُهُ» [الكليني، الكافي، ٦/ ٣].

○ الولد الصالح يشفع لوالديه

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ يَلْقَى سِقْطَهُ مُحْبَنْطِئاً عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ حَتَّى إِذَا رَآهُ أَخَذَهُ بِيَدِهِ حَتَّى يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَإِنَّ وَلَدَ أَحَدِكُمْ إِذَا مَاتَ أُجِرَ فِيهِ وَإِنْ بَقِيَ بَعْدَهُ اسْتَغْفَرَ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ» [وسائل الشيعة، ٢١/ ٣٥٧].

فاذا كان هذا حال السقط فكيف بالولد الصالح؟ فينبغي أن يكون كذلك من باب أولى، خاصة إذا كان من أهل المنزلة كالشهيد الذي ورد أنّه من أهل الشفاعة، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«ثلاثة يشفعون إلى الله عزّ وجلّ فيُشفّعون: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء» [بحار الأنوار، ٨/ ٣٤].

○ الولد الصالح يدعو لوالديه

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «كَانَ أَبِي عليه السلام يَقُولُ: خَمْسُ دَعَوَاتٍ لا يُحْجَبْنَ عَنِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: دَعْوَةُ الإِمَامِ الْمُقْسِطِ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لأَنْتَقِمَنَّ لَكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، وَدَعْوَةُ الْوَلَدِ الصَّالِحِ لِوَالِدَيْهِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ الصَّالِحِ لِوَلَدِهِ، وَدَعْوَةُ الْمُؤْمِنِ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ فَيَقُولُ وَلَكَ مِثْلُهُ» [الكافي، الكليني، ٢/ ٥٠٩].

حاجة الوالد إلى دعاء خالص من قلب خاشع يدعو له بالمغفرة والعفو بعد موته وانقطاعه عن الدنيا أشدّ وآكد من حاجته إلى ذلك في حال حياته،

لأنّه في ذلك العالم ينقطع عن العمل ويدخل عالم الجزاء، لذا لاتبقى له سوى نافذة ماتركه من صدقة جارية أو علم يُنتفع به أو دعاء أهله ومُحبيه فهو ينتظر منهم المدد والدعاء الخالص والهدية التي يبعث إليه بثوابها من العبادات أو الصدقات أو أبواب البرّ، فإنها تنفعه في ذلك العالم وتُخفف عنه.

وأخيراً.. يجب الالفات إلى أن التربية الصالحة لا تتم إلا إذا عملنا على توفير شروطها ومستلزماتها، فالإسلام يحث على أن يلحظ القادم على الزواج في اختيار الشريك الشروط المساعدة على صلاح الولد لأن الأسرة الحاضنة للطفل تكسبه الكثير من الأخلاق والصفات التي تنطبع بها شخصيته، ويحث أيضاً على اختيار البيئة الاجتماعية المناسبة التي تساعد على التربية السليمة، فهذا إبراهيم عليه السلام يهاجر بأهل بيته ويسكنهم في أرض مقطوعة معللاً بذلك:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

نحن نشاهد في عصرنا الحاضر حالات واسعة من الهجرة والتغرب في سبيل طلب الرزق والبحث عن حياة أكثر رفاهيّة وأمناً، ولكن قلّما نرى هجرةً بدافع البحث عن البيئة التربويّة الأنسب والآمن لضمان صلاح الأولاد وسلامة دينهم وآخرتهم، مع أن هذا هو الواجب وهو الذي ينبغى أن يُضحى من أجله بالمال والراحة والغالي والنفيس وليس العكس.

■ ■ ■

الخطاب الثقافي الإسلامي الموجّه للناشئة(*)

○ أهمية الموضوع:

أطفال اليوم هم مفاتيح التغيير وبوابة التطوير وتحقيق ما نصبو إليه في المستقبل، رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «عليك بالأحداث فإنهم أسرع إلى كل خير».

كما أن أطفالنا اليوم في دائرة المنافسة الحادة بيننا وبين كل الناشطين في العالم الذين يرسلون أفكارهم وثقافاتهم عبر مختلف الوسائل والتقنيات التي تدخل بيوتنا ومهاجعنا بدون استئذان، وقد رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «بادروا أحداثكم [أولادكم] بالحديث قبل أن تسبقكم إليهم المرجئة».

لم يعد بالإمكان حبس الأطفال والناشئة في بيئة مغلقة ومحصورة ثقافياً وتربوياً، وبات من العسير إخضاعهم لنمط خاص من التوجيه والتعليم بُغية ضمان الاتجاه التربوي لهم، بعد أن شهد العالم المعاصر ثورة المعلوماتية والاتصالات التي جعلت الناشئ أمام بحر هائل من المعلومات، وفي مواجهة سيول من الخطابات تبث بشكل حي عبر المواقع الالكترونية

(*) ورقة قُدمت في مؤتمر الخطاب الثقافي الموجه للناشئة الذي نظمته وحدة الدراسات والمتون في قاعة جمعية المعارف الإسلامية الثقافية في ٨/ ١٠/ ٢٠٠٩م.

والقنوات التلفزيونية والمطبوعات الورقية والإلكترونية وغيرها من الوسائل والوسائط، التي تحمل إليه الغثّ والسمين والضار والنافع والمفيد وغير المفيد، الأمر الذي يصّمه عن الاستماع إلى الخطاب الثقافي والتربوي التقليدي الذي يتلقّاه في الأسرة أو المدرسة، ويشغله عن الالتفات إليه، الأمر الذي يدعو إلى تحديث الخطاب الإسلامي الموجّه للناشئة مضموناً وشكلاً وأسلوباً بما ينسجم مع الواقع القائم للوصول به إلى مستوى الجذب والتأثير والمنافسة.

وإذا كان الكلام البليغ هو المطابق لمقتضيات حال الخطاب، فلا بدّ من تجديد دراستنا لمقتضيات أحوال المخاطبين من الأطفال والناشئة من جهة القدرات اللغوية والأحوال النفسية والاهتمامات والاستعدادات الذهنية، يجب أن يرتقي الخطاب الثقافي الإسلامي ليتناسب مع كل ذلك مضموناً، وليكون قادراً على جذب انتباههم وتلبية حاجاتهم والأخذ بأيديهم وبأذهانهم نحو الهدف المُرتجى.

إنَّ الأسلوب الوعظي الذي كان يغلب على الخطاب الثقافي الموجّه للناشئة لم يعد مقبولاً، ولم يعد قادراً على التأثير ومنافسة المواد المهيمنة على اهتمامات أطفالنا. حتى الأسلوب التعليمي المدرسي لم يعد لوحده كافياً لتحقيق الأهداف دون الاستعانة بالطرق والأساليب والوسائل المعينة الأخرى.

○ مضمون الخطاب:

يخضع المضمون الثقافي الإسلامي الموجّه للناشئة لعدة حاجات:

أولاً: الحاجات الأساسية التي تلحظها الشريعة الإسلامية وإن لم يلحظها الناشيء، وهي مادة ثقافية واسعة تتضمن ما يلي:

أ ـ المعارف العقائدية الضرورية، كالتوحيد والنّبوّة والإمامة والإيمان بالآخرة والحساب والثواب، بما يناسب الاستعدادات الذهنية والعقلية للمرحلة العمرية.

ب ـ المعارف الفقهية التي تلامس المرحلة التي يعيشها الناشئ أو تلك التي هو مقبلٌ عليها.

ج ـ القيم والأخلاق الفردية والاجتماعية الضرورية.

د ـ العادات العبادية والصحية والاجتماعية.

هـ ـ السير التاريخية التي تربط الناشئ بتاريخ الإسلام وخاصة المعصومين، والتي تتضمن دروساً وعبراً ومواقف تربوية.

ثانياً: الحاجات التي يعبّر عنها الناشئ عبر أسئلته التي يطرحها على والديه أو على المرّبين، وهي حاجات تظهر نتيجة حب الاستطلاع، أو الملاحظة، أو التواصل مع الزملاء، أو غير ذلك مما يدفعه للبحث والاستفسار وطرح الأسئلة وقد لا يكون المضمون هنا مناسباً للمرحلة العمرية، مما يفرض نوعاً من الصياغة الدقيقة تطوّعه حسب الواقع.

ثالثاً: الحاجات التربوية التي يحدّدها المربّون من الأهل والمعلمين لمعالجة حالة أو انحراف يتعرض له الناشئ في حياته اليومية مما يستلزم التصويب والعلاج.

مهما يكن، فيجب أن يكون المضمون متّصفاً بالبساطة المفهومية وبالمستوى المتناسب مع الاستعدادات الذهنية للناشئ، ويمثّل حاجة فعلية أو قريبة من الفعلية.

○ صياغة الخطاب:

في صياغة الخطاب الثقافيّ الإسلاميّ لا بدّ من رعاية ما يلي:

أولاً: اعتماد البساطة المناسبة للمرحلة العمرية لغةً ومفهوماً، وتبسيط المصطلحات والأفكار بما يجعل المضمون قابلاً للفهم والاستيعاب.

ثانياً: الابتعاد عن الطريقة الوعظية المباشرة.

ثالثاً: استخدام أنماط حديثة للخطاب غير المباشر، كالحوارات والأساليب القصصية والمسرحيّة والألعاب، والمسابقات التي تدفع الناشئ للتعرّف على الهدف، وغير ذلك.

رابعاً: التزام الحدود الشرعية، لأنّ أيّ خطاب محكوم بأسقفٍ وحدود شرعية، فالخطاب الهادف لا يجوز أن يسعى لتحقيق هدف على حساب هدف آخر.

○ وسائل الخطاب الثقافي:

١ ـ القصة:

تمثّل القصة أسلوباً ناجحاً في زرع القيم والعادات بطريقة سهلة وغير مباشرة، وفي ايصال الكثير من المفاهيم وصور السيرة التاريخية، لكن هذا يتطلب الإلفات إلى ما يلي:

أ ـ الصياغة الأدبية الجذّابة والجميلة، وحبك فصول القصة وأحداثها بطريقة تستدرج القارئ إلى المضي فيها حتى النهاية.

ب ـ وضع الأهداف التربوية والمفاهيم الدينيّة والقيم والعادات الاجتماعية فيها بطريقة ذكيّة تنساب بشكل طبيعي في أحداثها دون إقحام. وهذا هو بيت القصيد. إنّ القصص الأجنبية التي ترجمت إلى العربية أو تمّ

اقتباسها والتي تملأ رفوف المكتبات تتمحور حول موضوعات وحول اهتمامات تُزرَع في نفوس الأطفال من حيث لا ندري، فهي تتمحور حول الأميرة والبحث عن المال وعن الشهرة أو الانتقام وما شابه ذلك، وأحيانا تقوم ببناء موقف سلبيّ من أمور طبيعيّة يعيشها الطفل في واقعه وبيئته الاجتماعية من خلال تقديمها بصورة منفّرة مع البعد عن الصواب.

نحن بإمكاننا أن نكتب قصصاً للأطفال تتمحور حول قيم العدالة والمودّة والرحمة والتعاون والوفاء والصدق والإخلاص والاستقامة وغيرها من القيم الإسلامية التي نريد أن يتربى عليها الجيل.

ج ـ الإخراج الفني الجميل والجذاب، فإنّ الطفل يقرأ الصورة قبل أن تقع عينه على الكلمات، إنّ قراءة الصورة لا تحتاج إلى مهارات كبيرة ولا إلى بذل جهد على خلاف الكلمات، فالرسوم والصور تفرض نفسها على الطفل وتشدّه إليها، ولذا، فإنّ الرسام والمخرج يجب أن يكونا على مستوى من الثقافة والوعي بحيث يدرك أهميّة كل عنصر من العناصر الموجودة في الصورة ودوره في إيصال رسالة معيّنة، فالصور والرسوم ليست مجرد حشو وملء فراغ وديكور بمقدار ما هي وسيلة تعبير وأداة تأثير، فيجب أن تكون موجّهة بإتقان، وأن تكون قادرة على إيصال الرسالة المطلوبة بوضوح وقوّة وجاذبية.

٢ ـ الرسوم المتحرّكة:

غالباً ما يشاهد الطفل الرسوم المتحركة بدافع التسلية، ولكنها شئنا أم أبينا هي وسيلة تربية وتثقيف وتوجيه، فلا يُمكن إغفال تأثيرات الرسوم المتحركة على سلوك أطفالنا وتشكيل مواقفهم، إنّ الميل نحو استخدام العنف مثلاً لتحقيق الأهداف قد يكتسبه الطفل من مجموعة من أفلام الرسوم

المتحركة التي تبعد الطفل عن استخدام أسلوب التفكير والبحث عن الوسائل المنطقية. أفلام الرسوم المتحركة التي يشاهدها أطفالنا في الغالب وُضعت من قبل الآخرين على أساس قيمهم وعاداتهم وحاجاتهم، وقد تكون وضعت لأهداف تجارية محضة، وربما لوحظ فيها أهداف تربوية فاسدة عن عمد.

من الممكن إذا لم يكن من الضروري العمل على إنتاج دائم ومستمر لرسوم متحركة تناسب المراحل العمرية وبحرفية عالية تركّز على محاور تربوية مغايرة لما هو موجود في السوق.

ولكي يتحقق هذا الهدف يجب ان ترعى إنتاج هذه الوسائل مؤسسات تحمل تخصصاً تربوياً إسلامياً فبل التخصص الفني، لأن العبرة بصياغة الاهداف التربوية والثقافية بدقة وبما يناسب الشرائح المستهدفة قبل العمل على وضعها في القوالب الفنية بالتأكيد.

٣ ـ الأفلام الروائية:

أيضاً هي وسيلة خطاب ثقافي إذا أًحسن اختيار الرواية والسيناريو والإخراج وجودة التمثيل والمؤثرات الأخرى، ويُمكن لهذه الوسيلة أن تؤدّي دوراً فاعلاً يتجاوز بتأثيره المحاضرات والكتب والدروس وغيرها.

ويكمن التأثير في كون الطفل لا يملّ مشاهدة الأفلام لساعات متواصلة ويبقى منشداً إليها متسمراً امامها دون تعب ويتابع بدقة كل التفاصيل وترسخ في ذهنه، بل هو لا يملّ من تكرار المشاهدة لنفس الفيلم، بينما يشعر بالملل سريعا عند الاستماع للموعظة ولا يتحمل تكرار استماعها على الإطلاق.

وتبقى العبرة في المضمون الموجّه والأسلوب الجذّاب، إنّ إنتاج أفلام

الأطفال والناشئة أكثر صعوبة وتعقيداً من إنتاج أفلام الكبار، كما أنّ خطابهم كذلك أصعب بكثير.

٤ ـ الكتاب المدرسي:

هذه الوسيلة في الخطاب الثقافي الإسلامي أهميّتها تكمن في كونها واقعاً قائماً لا زال معتمداً حتى الآن، لكنّ الكتاب المدرسي يجري فيه ما يجري في القصّة من حاجته دائماً إلى التحديث واختيار الأسلوب الجذّاب وتدعيم الكتاب بالرسوم الموجِّهة، ووسائل الإيضاح.

الكتاب المدرسي اليوم لم يعد بغنى عن القصّة المنفصلة والرسوم المتحركة التي تتمّم له دوره، وربما الأفلام والألعاب التي باتت جزءاً من الكتاب تقدّم عبر أقراص رديفة، بل ربما تتجه الأمور إلى التحول نحو الكتاب الإلكتروني بالكامل، وعليه فالوسائل المساعدة تشكل خطوة على هذا الطريق. فلم يعد الكتاب المدرسي بغنى عن تطعيمه بالوسائل الأخرى التي تتكامل معه.

الكتاب المدرسي الناجح هو الذي يُحرّك المتعلّم نحو التفكير والاستكشاف والتحليل والاستنتاج، قبل أن يقّدم للتلميذ الهدف التعليمي، لأن الطفل غالباً لا يفضل الأسلوب التلقيني.

٥ ـ المسرح:

المسرح من الأساليب المؤثرة جداً في التوجيه والتعليم، لأنّ المسرح يصنع واقعاً ملموساً ويعالج إشكاليات معاشة بأسلوب محسوس عبر التمثيل فيمكن استخدامه كأسلوب في الخطاب الديني والثقافي الإسلامي، لكن يجري فيه مايجري في القصة وبقية الوسائل من حيث المضمون والصياغة الادبية ومهارة الأداء والإخراج والمؤثرات المتنوعة التي تعطي العمل

المسرحي قوة في التأثير ومخاطبة الأحاسيس المتنوعة. إننا نعاني من فقر مُدقع في الإنتاج المسرحي بشكل عام والموجه للناشئة بشكل خاص، فضلاً عن المسرح الذي يحمل مضموناً دينياً وقيمياً هادفاً.

٦ ـ الألعاب الإلكترونية:

الالعاب والمسابقات الإلكترونية وسيلة قابلة للإنتاج بدون الكثير من التعقيدات، وهي وسيلة شيّقة، تمزج بين التسلية المحبّبة للناشئة والتدريب على الملاحظة والاستكشاف والتفكير والاستنتاج، ويمكن من خلالها إيصال المفاهيم الثقافية، هناك محاولات موفّقة شهدناها لإدخال هذا الأسلوب إلى الساحة الإسلامية لكنها لا زالت في بداية الطريق من حيث التنوع والجودة والانتشار، مقارنة بما يملأ الدنيا ويغرق اسواقنا من ألعاب إلكترونيّة خطيرة تتمحور حول العنف والقتل والاحتيال وجمع المال والثروة وامثال ذلك مما نحن بحاجة إلى استبداله بما يخدم اهدافنا التربوية والثقافية.

○ الصعوبات والتحديات:

رغم أهميّة ما نشهده اليوم من نقلة نوعية باتجاه مأسسة العمل التربوي الإسلامي، وتطوير وسائل الخطاب الثقافي الإسلامي بشكل عام والموجّه للناشئة بشكل خاص، ورغم النجاحات التي تحققت حتى الآن، إلا أنه لازال هناك العديد من الثغرات والكثير من الصعوبات التي تحتاج إلى تذليل، لقد انتقلنا من المبادرات الفرديّة التي كانت سائدة لقرون في تحديد أولويات الخطاب وطريقة عرضه واختيار وسائله، إلى العمل المنظم والممنهج، ومن النظرة الآنية والتشغيلية إلى الرؤية الاستراتيجية والشمولية، لكننا إذا قارنا ما تحقق مع حجم الحاجات الفعليّة والمستقبلية، وإذا قارنا

جودة المنتج مع ما يعرضه المنافسون لنا ولثقافاتنا، سوف ندرك ما يجب فعله وما يجب العمل عليه وهو كبير جداً.

تواجه المؤسسات التعليميّة والثقافية في سبيل إنتاج الخطاب الثقافي الإسلامي المناسب على مستوى المضمون والكيفية ومهارات المثقْف والمربي والوسائل المساعدة صعوبات عدة أهمها مايلي:

١ ـ صعوبة الخروج لدى الكثيرين من النمطيّة التي تربّى عليها الأجيال السابقة، والطريقة التقليديّة التي كانت معتمدة في الخطاب الثقافي، والتي بات تأثيرها اليوم محدوداً في ساحة مُحتدمة في المنافسة.

٢ ـ النقص الكبير في الإعداد والتأهيل المسبق للمربّين والمتصدين للشأن التثقيفي في مجال الخطاب الثقافي الموجه للناشئة وفق تقنيات العصر وأساليبه المتطوّرة، فإن الاكاديميات التي تعنى بتخريج المربين نجحت باعداد معلم وفق المناهج الاكاديمية المعتمدة ولكنها لم تلحظ أبداً دور هذا المعلم في بناء الثقافة الإسلامية، ولم يتمّ توفير البدائل في ساحتنا الخاصة، والجهود المبذولة في الاعداد على أهميّتها لا زالت دون المستوى المطلوب والمناسب، والمبادرات القائمة لم ترتق إلى مستوى العمل المُمنهج الثابت.

٣ ـ غياب أو ندرة العديد من المهارات المهمّة المطلوبة لتطوير الخطاب الثقافي، وصعوبة توفير بعض الاختصاصات الفنّية في الوسط الإسلامي المتديّن والمثقف إسلاميّاً لاثراء الساحة بمتطلباتها من الوسائل والتقنيات، وتسخير التطور التقني لخدمة الخطاب الثقافي الإسلامي بشكل عام والموجه للناشئة بشكل خاص.

٤ ـ مشكلة التأخر في الصياغة المنهجيّة للمادة الثقافيّة المطلوبة في مختلف الأوساط العاملة في هذا الحقل، فنحن لا نجد منظومة القيم مصاغة

بطريقة منهجيّة حديثة لتوضع في تصرّف العاملين في التربية، ولا نجد السيرة مثلاً مدوّنة بطريقة منهجيّة تعليميّة مهذّبة تعكس مايجب عرضه من مواقف للاعتبار والتعلم والتحليل والاستنتاج... فعن الإمام الصادق عليه السلام: «لو علم الناس محاسن كلامنا لاتّبعونا».

٥ ـ الكلفة العالية لإنتاج الوسائل الحديثة المساعدة والمؤثرة، مما يعني ضرورة تبنّي الجهات المموّلة لهذه المشاريع، كما يجب إنشاء مؤسسات إنتاج وتسويق للوسائل السمعية والبصرية والمقروءة تتمكن من عرض هذه المواد باثمان مناسبة، وزهيدة، حتى لاتتحمل جهة واحدة كلفة الإنتاج وتعجز عن استردادها، خاصة مع الأوضاع الاقتصادية الصعبة لدى أغلبية الشرائح المستهدفة.

إننا إذ نطرح هذه الصعوبات لا نعني أننا نُعلق على إيجاد الحلول، وإنما نعتبر أن تجاوز الصعوبات يُسرِّع العمل ويسهل الوصول إلى ما هو أفضل بلا شك.

في الختام:

يبقى هنا أن نشير إلى أنّ ما تقدّم يفرض الحاجة إلى مجموعة من الاختصاصات الفنية والمهارات التي تحتاج إلى إعداد مُسبق، وإلا فسنبقى نسترجع صدى نداءاتنا دون جدوى.

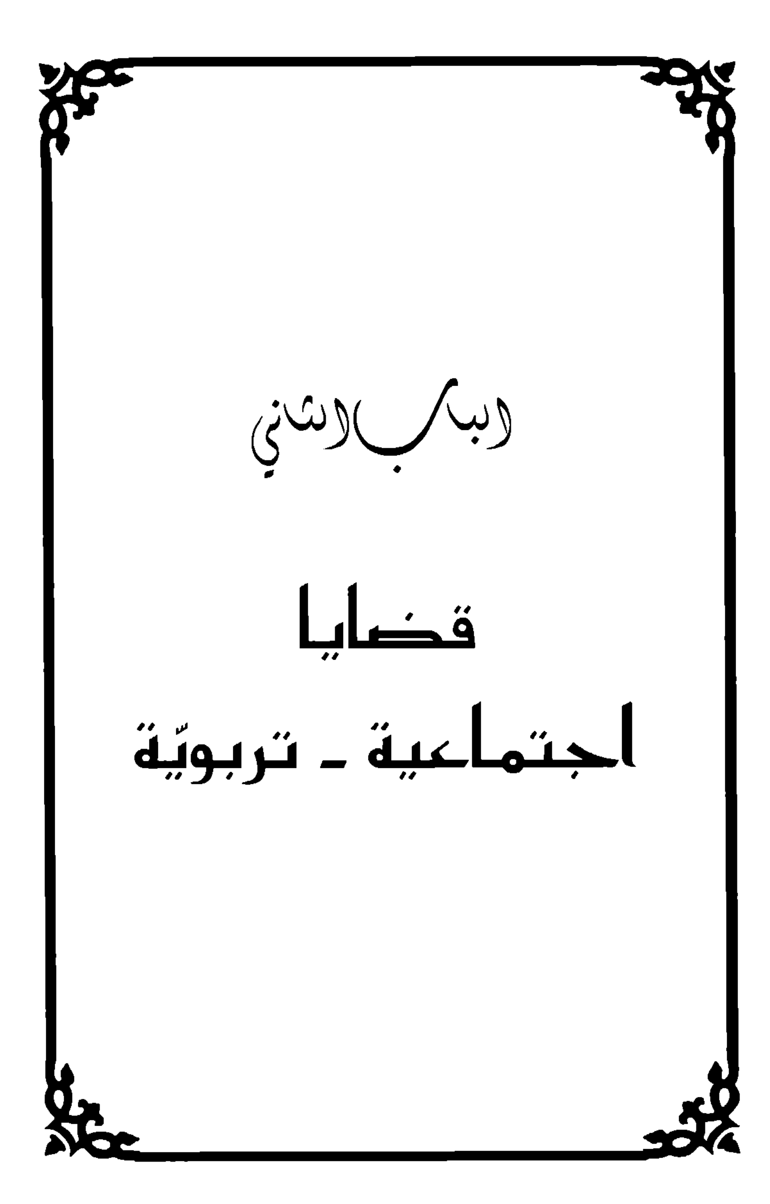
- نحتاج إلى مجموعة كبيرة من الخبراء الماهرين في مجال أدب الأطفال لكتابة القصّة والمسرحية وإعداد السيناريوهات، مع توفر الحد المقبول من الاطلاع الثقافي الإسلامي.

- نحتاج إلى مُخرجين مسرحيين ومخرجي أفلام على مستوى عالٍ من الاحتراف.

- نحتاج إلى كتّاب ومصممين ماهرين في صناعة أفلام الكارتون والرسوم المتحركة والألعاب الإلكترونية.

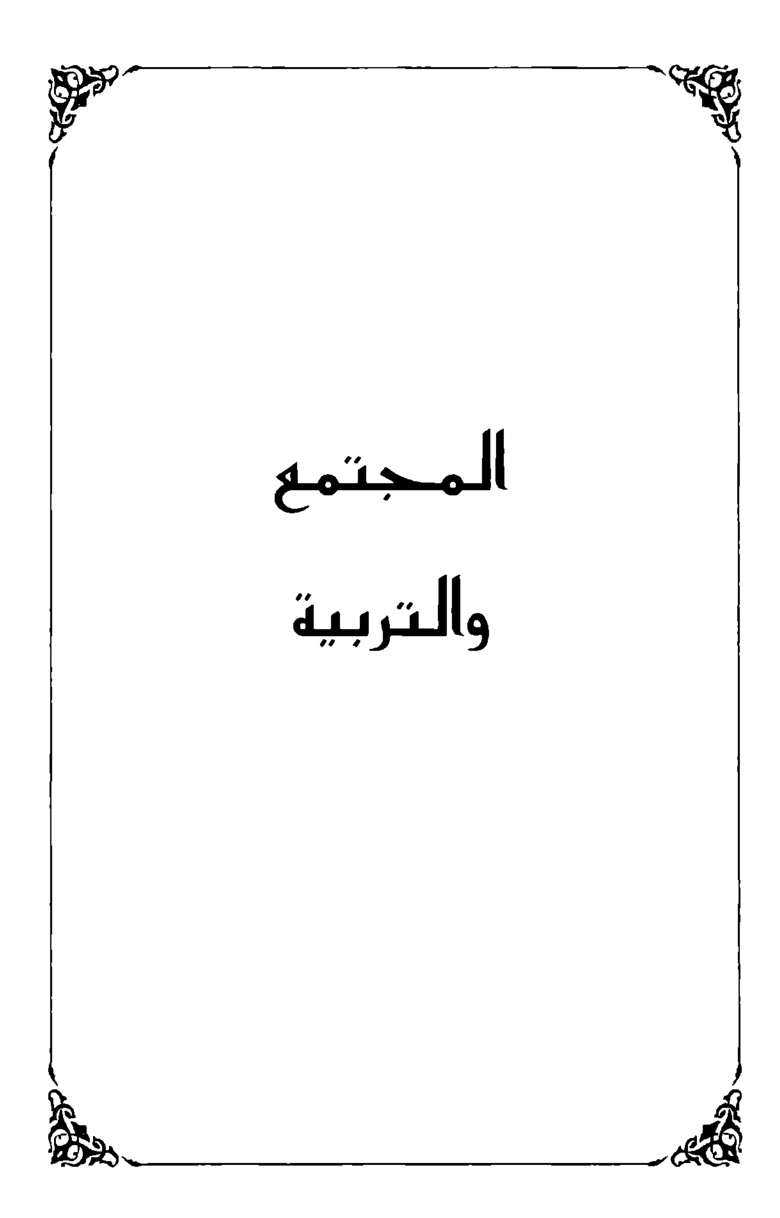
لكن يجب أن يكون هؤلاء جميعاً يحملون خلفيات ثقافيّةً إسلاميّةً تمكّنهم من صبّ نتاجاتهم في القوالب الفنية التي تُراعي الأهداف الإسلامية وتراعي شروطها وحدودها، وهذا ما يجب أن تعمل عليه مراكز التوجيه والإرشاد المهني والجهات المانحة التي تقوم بدعم الدراسة الجامعية، وهذا من أهم الاستثمارات في عصرنا الحاضر.

■ ■ ■



الباب الثاني

قضايا
اجتماعية - تربويّة



المجتمع
والتربية

العلاقات الاجتماعية
كما يُريدُها الإسلام

البنية الاجتماعية لأي مجتمع بشري تتوقف على طبيعة العلاقات والأواصر التي تربطهم، فهي كلما ازدادت متانة وقوة انعكس ذلك على المجتمع تماسكاً ومنعةً وعزةً، الأمر الذي يفرض علينا دراسة العوامل المؤثرة في البناء الاجتماعي المتين، والظواهر الصحيحة أوالمرضيّة التي تلعب دوراً مؤثراً في تركيب المجتمع.

وسنتناول في الصفحات التالية هذه المواضيع عبر حلقات تتدرج من الأسرة باعتبارها المجتمع الصغير والنواة للمجتمع الأكبر، ثم نتوسع إلى دراسة العلاقة بين الأرحام والجيران، فالأمة بكل شرائحها وأبنائها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

○ الأسرة أو المجتمع الصغير

الخلية الأولى التي يتشكل منها المجتمع هي الأسرة، ولطبيعة العلاقات الأسرية وتماسكها تأثير مباشر في بناء المجتمع الكبير، ذلك أنّ الكيان المؤلَّف من وحدات متعددة يكتسب من خصائصها خصائصه وصفاته.

هذا الأمر يفرض العناية الفائقة بالأسرة وتشكيلها وسلامتها، ودراسة

الأسس والقواعد والعوامل التي تحفظ لها تماسكها وصحّتها، وقد لمسنا عمليّاً الآثار السيئة للتفكك الأسري على البناء الاجتماعي بشكل عام في المجتمعات الغربية المعاصرة، وغيرها ممن حذى حذوها.

ونحن هنا نتناول البحث عن الأسرة في محورين: محور العلاقة الزوجية، ومحور علاقة الأبوين بالأبناء.

○ المحور الأول: العلاقة الزوجية

يقول تعالى في محكم كتابه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم/ ٢١].

الرابطة الزوجية تمثل أول خطوة نحو قيام الأسرة، ونحن هنا لسنا بصدد دراسة الأطر الفقهية للعَقْد الذي يُحدث هذه الرابطة من الناحية الشرعية، وإنما نريد تسليط الضوء على طبيعة هذه العلاقة، والعوامل المؤثرة في جعلها علاقة متينة ومثمرة وفاعلة في إنتاج جيل صالح ومجتمع سليم.

والآية الشريفة المتقدمة تُلقي الضوء على أمرين:

الأول: الغاية من الزوجيّة، التي عبّرت عنها الآية بقوله تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾، فطبيعة الإنسان وفطرته تجعله يبحث عن شريكة له في الحياة ليسكن إليها ويطمئن لها، ويتآلف معها، ويتكامل. فالزوجيّة استجابة طبيعيّة وفطريّة لهذا الدافع ولهذه الغريزة، وقد أقرّت ذلك الشريعة الإسلامية، ونهت عن الرهبانيّة والتبتّل، بل حثّت على التبكير ببناء هذه الرابطة.

وقد رد عن رسول الله ﷺ: «النكاح سُنّتي فمن رغب عن سُنّتي فليس مني».

ولئن شرّع الإسلام الطلاق، إلا أنّه وصفه بأنّه «ما أبغض الله مباحاً كالطلاق» ولا شكّ أنّ هناك حكمة اقتضت إباحته، فالرابطة الزوجية غير الموفّقة في كثير من الأحيان تُدخِل الطرفين في ميدانٍ من الصراع والإختلاف يصبح معه الطلاق انقاذاً ورحمة للطرفين.

والثاني: طبيعة العلاقة بين الزوجين كما يريدها الله، وقد عبّرت عنه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

فالعلاقة الزوجية وإن كانت قائمة على عقد اتفاق فيه إيجاب وقبول، كما في كل العقود، إلا أن هذه العلاقة تختلف عن أي عقدٍ للشراكة يحدث بين شريكين، لأن العلاقة الزوجية تتجاوز إطار العقد إلى حالة من الإرتباط الروحي والقلبي والمودّة والرحمة، وهو أمر ينبغي العمل على تغذيته وتنميته وتوثيقه، لأنه المؤشر الصحيح لنجاح العلاقة وموفقيّتها.

ولا شك أن العقد لوحده لا يُحدث ذلك، ولا يخلق بنفسه الرحمة والمودّة بشكل تلقائي، ولذا نجد الكثير من الزيجات الفاشلة، هذا جعل البعض يتوهّم أنّ المودّة والرحمة حالة ينبغي حصولها قبل عقد الزواج، فاسهبوا في التنظير للعلاقة السابقة للزواج.

إنّ ما يزرع المودّة والرحمة هو طبيعة النظرة تجاه الرابطة الزوجيّة، والخلفيّة الفكريّة والثقافيّة التي تحكم العلاقة وتفرض طريقة سلوكيّة مبنيّة على ما زرع في المرتكزات. وهذا يعني أنّ هذه المسألة تربويّة وثقافيّة تقع ضمن دائرة مسؤولياتنا جميعاً، وهي تتأثر بمنظومة القيم والأخلاق والآداب التي تسعى الشريعة الإسلاميّة لتربية الأمّة عليها.

والنقطة الأساسيّة في هذه القضيّة أنّ النظرة تجاه العلاقة الزوجيّة تارة تُبنى على ثقافة العطاء والبذل، وتارة أخرى تبنى على ثقافة الأخذ والإكتساب، والأولى هي القادرة على زرع الحبّ والرحمة والمودّة، واضفاء الرابطة الروحيّة والعاطفيّة التي لا تهدّدها العواصف والمتغيرات المعيشيّة. لأن كلّ واحد من الزوجين ركّز اهتمامه على إسعاد الطرف الآخر وتوفير راحته وبذل ما يحبّ، بحيث تصبح سعادته في رؤية الآخر سعيداً، هذا النحو من التعاطي يخلق جوّاً منَ الإرتباط الروحي الوثيق جداً.

أما الثقافة الأخرى فهي تنطلق من نظرة كلٍّ من الزوجين إلى ذاته، وهو لا يرى في الآخر إلا ما يحقّق له مراده وحاجته وراحته وسعادته. فهو يريد أن يأخذ فقط، وإذا اضطر للعطاء فلأنّه لا يمكنه الأخذ دون ثمن. هذا الأسلوب من التعاطي وهذه الثقافة لا يمكنها أن تزرع حُبّاً ولا مودّة ولا رحمة، وهي تعرّض العلاقة للإهتزاز والإنقطاع عند أوّل استحقاق، وعند أوّل حاجةٍ لا تقضى، وطموحٍ لا يتحقق.

صحيح أنّ الإنسان يحبّ من يعطيه ويشعر بالإمتنان لمن ينعم عليه ويرزقه، إلاّ أنّ العطاء إذا انقطع زال الحبّ وانتهت الرابطة، لأنها كانت مبنيّة على الإنتفاع.

هذا هو السرّ الذي يجعل من الحياة الزوجيّة رابطة موفّقة ومستقرّة، وما تبقّى يدخل في التفاصيل الثانويّة، علينا أن نربّي الجميع على الإهتمام بالواجبات قبل الإهتمام بالحقوق، وأن نوجّه الزوجين للقيام بالدور المطلوب قبل مطالبة الآخر. علينا أن نقتل روح الأنانيّة ونزرع روح الإيثار والبذل والعطاء.

ولكي تكون الرابطة الزوجيّة تكامليّة وثيقة، وضعت الشريعة الإسلامية جملة من الآداب والتوجيهات نتناول البعض منها :

١ ـ الاختيار عل أساس الصفات الإيمانية.

ففي الرواية عن رسول الله ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخُلُقه فزوّجوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

وفي أخرى: «من تزوّج امرأة لمالها وكله الله إليه، ومن تزوّجها لجمالها رأى فيها ما يكره، ومن تزوّجها لدينها جمع الله له ذلك».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مالها يُطغيها وجمالها يُرديها، فعليك بذات الدين».

٢ ـ قلة المهر.

في الرواية عن رسول الله ﷺ: «يا فاطمة أيّما امرأة خفّفت عن زوجها من صداقها ولو ديناراً أو درهماً إلاّ كتب الله لها بكلّ درهم حجّةً مبرورةً وعمرةً مقبولةً وغفر الله ذنوبها».

المهر ليس ثمناً للمرأة، بل هو حقّ فرضته الشريعة لحكمةٍ، ولا ينبغي أن ينصبّ الاهتمام على غلاء المهر، ولا يتوهّمنّ الأب أو الأم بأنّ غلاء مهر ابنتهم يمنحها العزّة ويوفّر لها الكرامة والمنزلة عند زوجها أو في نظر الناس، فهو توهّم بعيد عن الصواب، لأنّ المرأة عندما تعيش حياتها الزوجيّة الفاشلة ويدفعها ذلك للشعور بالشقاء، سوف تفتدي نفسها بكلّ ما أخذت وأكثر لتخرج من تلك الرابطة. غلاء المهر يزرع ثقافة الأخذ والإكتساب، ويكرّس الأنانيّة، ولا يشكّل ضمانة لاستمرار العلاقة بالشكل السليم، فالمهم هو المودة والرحمة والإيمان، وممّا يدل على أنّ المهر ليس ثمناً أو أجرة بالمعنى المعروف للأجرة ما ورد من استحباب تخفيفه ومن جعله في تعليم آية أو سورة من القرآن الكريم، وتحديد مهر السنّة وهو ٥٠٠ درهم، وكراهية زيادته عن ذلك.

ففي الحديث: «شؤم المرأة كثرة مهرها».

وعن الصادق عليه السلام قال: «من بركة المرأة خفّة مؤونتها وتيسير ولادتها، ومن شُؤمها شدّة مؤونتها وتعسير ولادتها».

أما لماذا أقرت الشريعة المهر كعنصر من عناصر العقد فربما كان من باب التكريم، وربما ليجعل المهر دليل جدّية، وربما كان داخلاً في تفاصيل النظام الاقتصادي الإسلامي الذي يفترض الإنتاج في جملة مسؤوليّات الرجل لتتمكّن المرأة من التفرّغ لدور آخر فتتكامل الأدوار.

٣ ـ الإلتزام بآداب العِشرة وأخلاقيات التعامل.

في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لاغنى بالزوج عن ثلاثة أشياء فيما بينه وبين زوجته، وهي: المُوافقة ليجتلب بها موافقتها ومحبّتها وهواها، وحسن خُلُقه معها، واستعماله استمالة قلبها بالهيئة الحسنة في عينها، وتوسعته عليها. ولا غنى بالزوجة فيما بينها وبين زوجها الموافق لها عن ثلاث خصالٍ وهنّ: صيانة نفسها عن كل دنس حتى يطمئن قلبه إلى الثقة بها في حال المحبوب والمكروه، وحياطته ليكون ذلك عاطفاً عليها عند زلّة تكون منها، وإظهار العشق له بالخلابة والهيئة الحسنة لها في عينه».

المقصود من الموافقة الدنوّ، والوفاق مقابل الخلاف والنزاع.

ومما يجدر الإشارة إليه هنا أن الله تعالى لم يفرض على الزوجة خدمة زوجها وعائلتها فرضاً لأنّه أراد أن يحصل ذلك تطوّعاً، وحثّ عليه، لأن التطوّع فضل له أثر كبير في توثيق الصلة وتأصيل العلاقة، ولأن العمل التطوعي يشعر الآخرين بالامتنان، ويزرع روح التسابق في عمل الخير، ويكشف عن صفاء نفس وطيب خلق ومحبة تأسرهم وتغسل قلوبهم ـ كما هو معروف ـ، على خلاف العمل الواجب أو المأجور.

أخيراً... إذا كانت حياتنا الزوجيّة تعاني من مشكلات فلنبحث عن الأسباب في أنفسنا على القاعدة المتقدّمة لا في الآخرين، لأن الخطوة الأولى نحو الإصلاح تنطلق من الذات لا من الغير.

○ المحور الثاني: علاقة الأبوين والأبناء

في الرواية عن رسول الله ﷺ قال: «لكل شجرة ثمرة، وثمرة القلب الولد».

تواجهنا تجاه أبنائنا عدة مسؤوليات، ولهم علينا عدة حقوق، وإذا كان هناك من واجبات على الأبناء تجاه أبويهم، فلا شك أن هناك العديد من الواجبات في المقابل على الآباء والأمهات تجاه أبنائهم، أثبتتها الشريعة وحثّت على أدائها.

بعد أن تتشكل الأسرة يتوجه طموح الأبوين للحصول على ثمرة الزواج وهو الولد، وإذا رزقهم الله إيّاه، توجّه السعي نحو تربيته والسهر على صحّته وعافيته وسلامته ليترعرع ويكبر، وإذا ظهرت عليه علامات النضج شعرا بالإعتزاز والفخر، إلاّ أنّ المهمّ هو النظر إلى هذه الثمرة هل هي ثمرة صالحة أو هي ثمرة غير صالحة.

فالأبوان الصالحان المؤمنان ينبغي أن يوجّها كل اهتمامهما إلى صلاح أبنائهما، وسلامة عقيدتهم، وسموّ أخلاقهم، وكمال عقولهم، قبل أن ينظروا إلى سلامة أجسادهم، وصحّة أبدانهم، لأن الأهمّ سلامة الروح وطهارة النفس.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «مَا سَأَلْتُ رَبِّي وَلداً نَضِرَ الْوَجْهِ وَلا سَأَلْتُهُ وَلَداً حَسَنَ الْقَامَةِ وَلَكِنْ سَأَلْتُ رَبِّي أَوْلاداً مُطِيعِينَ للهِ وَجِلِينَ مِنْهُ حَتَّى إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ مُطِيعٌ للهِ قَرَّتْ عَيْنِي».

ويقول الرسول ﷺ: «الولد الصالح ريحانة من رياحين الجنة».

لذلك نجد الأنبياء الذين حدّثنا القرآن الكريم عنهم يسألون الله تعالى أن يرزقهم ولداً صالحاً، ولم يسألوا الله ولداً كيفما كان.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥ ـ ٦].

فعلى الآباء أن يركّزوا كل جهودهم واهتمامهم على التربية الروحيّة والخلُقيّة، وإعانة أبنائهم على الصلاح والتقوى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ...﴾ [التحريم: ٦].

في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «وتجب للولد على والده ثلاث خصال: اختياره لوالدته وتحسين اسمه والمبالغة في تأديبه».

فاختيار الوالدة يعني أن يتخيّر لنطفته المرأة العفيفة المؤمنة صاحبة الخلُق الحسن، لأنّ المرأة ذات السجايا السيّئة قد تؤثّر سلباً في أطباع الولد بحسب قانون الوراثة، أو نتيجةً لتأثير البيئة التربويّة. وهو ما أكّدت عليه الكثير من النصوص وقد تقدم بعضها.

واختيار الإسم الحسن لأنه يُرافقه طيلة حياته، وهو شعار له وعلامة عليه، وخير الأسماء ما حُمِّد، وأصدقها ما عُبِّد، أي ما فيه حمد للباري عزّ وجلّ أو عبوديّة له. ولا يحقّ للأب أن يُرضيَ نزوة لديه بإطلاق اسم قبيح على ابنه أو اسم مُستهجن، حتى لو كان هذا هو اسم أبيه أو أمه.

وأمّا الحقّ الثالث فهو المبالغة في تأديبه، وهو يتناول التعليم والتربية. وخاصّة ما فيه صلاحه، فلا يصحّ الاقتصار على العلوم المدرسيّة رغم

أهمّيتها، وإنما الواجب الحرص على تربيته على الصلاح والأخلاق والقيم وما يقرّبه إلى الله تعالى، ولذا نجد الشريعة تعنى بالتربية الدينيّة منذ اللحظات الأولى لانعقاد النطفة، وهذه جملة محطات:

١ ـ مجموعة وصايا للأبوين لتنعقد نطفة الولد في أفضل الشرائط الزمانيّة والمكانيّة والأحواليّة، ليكون أبعد عن مشاركة الشيطان، كالطهارة وذكر الله والدعاء، واختيار الأوقات الخاصة، والإبتعاد عن كل مداخل الشيطان كالسكر والخيالات الشاذّة والذنوب والمعاصي.

٢ ـ في فترة الحمل ومراحل تخلّق الجنين، هناك توجيهات للأم باجتناب الحرام، والمواظبة على الطهارة وقراءة القرآن والأدعية والمستحبّات.

٣ ـ عند الولادة هناك خطوات تربويّة هي بداية التعليم الديني:

ـ الأذان في الأذن اليمنى والإقامة في اليسرى.

ـ الختان للذَكَر.

ـ العقيقة عنه.

ـ الصدقة بوزن الشعر من الفضة.. وأمثال ذلك.

٤ ـ طهارة اللّبن الذي يرتضعه، والنهي عن ارتضاع ذوات الخُلق السيّء، والحث على الوضوء عند الإرضاع، وذكر الله تعالى.

٥ ـ كل مولود يُولد على الفطرة وأبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصّرانه، فالطفل بحاجة لتربية تنسجم مع الفطرة وتحفظ سلامتها ونقائها.

٦ ـ مرحلة التأديب بالآداب الإسلامية والتربية على الأخلاق والسجايا الفاضلة، فـ «قلب الحدث كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قبلته».

٧ ـ تعليم العبادات والتعويد عليها في وقت مبكر، لأن «الخير عادة»

وقد ورد أن الولد يؤمر بالصلاة لست سنوات أو سبع ويؤمر بالصيام لسبع أو تسع سنين.

○ حدود ولاية الأبوين

الولاية في جميع مواردها هي مسؤولية الحفظ والرعاية، وحدودها تنحصر في ما هو مصلحة للمولّى عليهم، وهم هنا الأبناء، فالأبوين ليسا مالكين للأبناء، وسلطتهم ليست سلطة المالك يتصرف كيفما شاء، وإنما هي سلطة الراعي والوليّ، وهي لم تُشرّع إلاّ من باب الإشفاق والرحمة واللطف بالأبناء لضعفهم وحاجتهم إلى الرعاية، ولذا فهي تنتهي عند انتهاء هذه الحاجة، عندما يبلغون أشدّهم ورشدهم.

فلا يجوز للأب أن يتصرّف بطريقة الطاغية والسلطان والحاكم الذي لا يجرؤ أبناؤه على التكلم معه، وإنما الواجب أن ينظر إلى مصلحتهم لا إلى مصلحة نفسه، ويرعاهم بالرحمة والشفقة ويحميهم ويؤدّبهم ويربّيهم على الأخلاق الفاضلة والأفعال الحميدة، وهذا هو البرّ بهم.

○ برّ الأبناء بالأبوين

قرن الله سبحانه بر الوالدين بعبادته وطاعته حيث قال:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء/ ٢٣ - ٢٤].

هذه الآية ترسم حدود وآداب العلاقة مع الأبوين، وقد ورد في تفسير الإحسان إليهما عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «الإحسان أن تُحسن

صحبتهما، وأن لا تكلّفهما أن يسألاك شيئاً ممّا يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيين، أليس يقول الله عزّ وجلّ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾» [الكافي ٢/ ١٥٧].

وفي رواية «إن الله عزّ وجلّ أمر بالشّكر له وللوالدين، فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله».

وفي رواية أخرى: «بر الوالدين واجب وإن كانا مُشركين، ولا طاعة لهما في معصية الخالق».

ولا يقتصر البرّ على حال الحياة، بل يتعدّاه إلى ما بعد الموت، ففي الرواية: «ما يمنع الرجل منكم أن يبرّ والديه حيّين أو ميّتين: يصلّي عنهما، ويتصدّق عنهما، ويحجّ عنهما، ويصوم عنهما، فيكون الذي صنع لهما، وله مثل ذلك، فيزيده الله عزّ وجلّ ببرّه وصلته خيراً كثيراً».

وما ورد في التأكيد على برّ الأم أكثر بكثير، وهذا غاية الاختصار في المقام.

○ الأواصر الدينيّة والإنسانيّة

عندما هاجر رسول الله ﷺ من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة (يثرب)، قام بعدّة خطوات استهدفت تنظيم المجتمع المدني وإعداده إعداداً يتناسب مع قيم الدين وتعاليم الشريعة الإسلاميّة. وقد جسّد رسول الله ﷺ عمليّاً في خطوتين تنظيميّتين طبيعةَ الأواصر والعلاقات التي أرادها الإسلام أداة بناءٍ وتوحيدٍ للمجتمع.

ومن المعروف أنّ المجتمع المدني آنذاك كان متنوّعاً يضمّ مجموعة شرائح أهمّها ثلاثة:

الشريحة الأولى: الذين آمنوا من الأوس والخزرج، والذين هاجروا مع

رسول الله ﷺ. وهم شريحة المؤمنين الذين أصبحوا فيما بعد دعامة المجتمع الإسلامي (المهاجرين والأنصار).

الشريحة الثانية: مُشركو العرب من أهل يثرب الذين تناقص عددهم فيما بعد مع انتشار الإسلام، إلا القلّة الذين لعبوا دور المنافقين بعد ذلك وتآمروا على الرسول ﷺ وعلى المسلمين وتحالفوا تارة مع قريش وتارة أخرى مع اليهود.

الشريحة الثالثة: اليهود الذين كانوا يشكّلون شريحة واسعة متمايزة في المدينة ويتوزعون على قبائل أهمها قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع، وقد دخلوا في حروب مباشرة مع رسول الله ﷺ مما أدّى إلى إخراجهم من المدينة.

فكيف نظّم رسول الله ﷺ مجتمع المدينة هذا؟ وكيف رتّب العلاقات بين أفراد الشريحة الأولى وبين الشرائح الثلاث؟

لقد أقدم الرسول ﷺ على خطوتين لهما الكثير من الدلالات الاجتماعيّة والسياسيّة والتنظيميّة:

الخطوة الأولى: المُؤاخاة بين المسلمين.

والخطوة الثانية: عقد معاهدات مع قبائل اليهود وتنظيم العلاقة معهم وموادعتهم.

○ إنما المؤمنون أخوة

عندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة كانت شريحة المؤمنين مؤلفة من فريق المهاجرين الذين جاؤوا مع الرسول ﷺ أو وفدوا على المدينة بعد ذلك على مدى عدة سنوات، وفريق الأنصار الذين كانوا يسكنون المدينة ودعامتهم قبيلتا الأوس والخزرج اللتان كان بينهما قبل الإسلام الكثير من

الوقائع القتاليّة والتي كان اليهود يُغذونها ويستغلونها للنفوذ والسيطرة على المجتمع المدني.

وقد تمكن الرسول ﷺ بحكمته وتدبيره أن يعيد بناء مجتمع المؤمنين على أسس جديدة جعلها القاعدة للعلاقات التي تربط المؤمنين وتحفظ منعتهم وتماسكهم، ولتحل هذه الأسس محل العادات والتقاليد الجاهليّة السابقة.

فقد جعل العلاقة بين المؤمنين علاقة أخوّة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقام بعمليّة مؤاخاة بين الفريق الوافد (المهاجرين) والفريق المقيم (الأنصار)، بل المؤاخاة بين كافة المسلمين على أساس الحق والمواساة. ليكون الحق رائدَهم دائماً وضالّتَهم المنشودة، والمواساة في الشدة والرخاء، يتشاركون حلاوة العيش ومرارته، وصعوبات الحياة ونعمها.

ولقد كان ﷺ يريد التأسيس لمجتمع مترابط متماسك كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً في مقابل الهزاهز والأخطار المتوقّعة وقد عالج بالفعل الأمور التالية:

١ ـ قضى على العصبيات القبلية التي كانت تحكم المدينة بل الجزيرة العربية بشكل عام، وحالة التنازع والتناحر بين القبائل والتي كانت تستغل من قبل اليهود ـ كما قدّمنا ـ. واستعاض عن روح الأنانية والغزو والغارة بروح الإيثار والتضحية.

٢ ـ أوجد حالة من الإنسجام التام بين الفريق الوافد (المهاجرين) والفريق المقيم صاحب الدار (الأنصار) الذين آووا الرسول ﷺ ونصروه وآووا المهاجرين الذين كان أغلبهم لا يملك شيئاً، فحال من خلال

المؤاخاة دون استشعار الأنصار بالثقل والعبء وهو ما كانوا سينوؤن بحمله ولو بعد حين، مما كان بإمكانه أن يرشّح المجتمع إلى الدخول في باب من أبواب الفتنة والشقاق، فجاءت المؤاخاة لتزرع بينهم لحمة قويّة وتربط بينهم برابطة الأخوة الوثيقة التي تلغي الطبقيّة والفاصل الكبير الذي ينتج عادة عن مثل هذه العوامل.

٣ ـ حصَّن ﷺ المجتمع في مقابلة الشدائد المحتملة وأوجد لديه مناعة تجاه الفتن والهزّات. فالمؤاخاة إذن ليست مجرد عمل تجميلي، وإنما هي خطوة في العمق رسمت معالم العلاقة التي يريدها الإسلام في المجتمع، وقد تركت بالفعل أثرها الإيجابي بشكل سريع، فقد تقاسم الكثير منهم أموالهم وممتلكاتهم مع المهاجرين وذابت عناصر التوتر والنزاع.

○ وثيقة المدينة

والخطوة الثانية جاءت بعد مدة وجيزة، وبعد أن انتهى من تنظيم وضع المؤمنين، فيقال أنه بعد خمسة أشهر فقط كان قد عمل خلالها على مدّ الجسور مع مختلف القبائل، فعقد مع اليهود ومشركي المدينة معاهدات نظّمت العلاقة بينهم وبين المسلمين، وأقرّ أهل الكتاب على دينهم، وودع الجميع ممن كانوا لا يرغبون بالدخول معه في نزاع وحروب. وقد نقل لنا التاريخ وثيقة مفصّلة تبيّن وتوضح تفاصيل المعاهدة مع القبائل، وأسس تنظيم العلاقة، وأهمها ما يلي:

١ ـ أكدت وحدة الأمة الإسلامية ليكون الإسلام هو محور وحدتهم كما في حركة المؤاخاة.

٢ ـ أقرت المهاجرين على عاداتهم وسُننهم في التعامل لأنه مظهر من مظاهر التكافل والتعاون.

٣ ـ كما أقرّت حالة التكافل بالمعروف وعلى أساس الحقّ بين أفراد كل قبيلة كما كان معهوداً.

٤ ـ أكدت على المعروف والبرّ دون الإثم لتكون القاعدة التي تحكم العلاقات بين الجميع.

٥ ـ ألغت روح العصبيّة القبليّة التي كانت سائدة على مستوى التعصّب ولو على الباطل.

٦ ـ وفّرت ضمان أمن واستقرار المدينة من خلال صيغة الدفاع المشترك ومنع التحالف والتعاون مع العدوّ.

٧ ـ ضمنت حريّة الأديان في المجتمع الجديد شرط عدم التعرض للإسلام بالعداء.

٨ ـ وضعت حدّاً للبغي من خلال إلزام الجميع حتى قبيلة الباغي نفسه بالوقوف في وجهه.

٩ ـ ترسيخ أسس التعاون في الدفاع عن طريق الاشتراك في نفقات الدفاع ونفقات أهل الحاجة من الغارمين ومن الأسرى الذين هم بحاجة إلى فداء وأمثال ذلك.

○ أصالة الفرد أم أصالة المجتمع

عندما تطرح مسألة العلاقات الاجتماعيّة على بساط البحث، يبرز سؤال مهم، مفاده أن مصالح الفرد غالباً تتعارض مع مصالح المجتمع فأيّهما يقدّم؟ ومن الطبيعي الخروج بنتيجة هي تقديم مصالح المجتمع على مصالح الفرد، إلا أنّ المهمّ هو بيان فلسفة ذلك.

وفي البداية لا بدّ من التأكيد على حاجة الإنسان للمجتمع الذي يعيش

فيه، لأنّه اجتماعي بالطبع، وليس بإمكانه أن يعيش منفرداً، وهذا يعني أن ما يصيب المجتمع يصيبه، وما يعود على المجتمع بالخير يعود عليه أيضاً بلحاظ أنه فرد من أفراده وبلحاظ أنه بيئته ومحيطه الذي يعيش فيه. وعليه فإن كل ما فيه مصلحة للمجتمع، وكل ما فيه خير له، هو مصلحة لكل أفراده، وخير لهم.

وبهذا نحن ننقل التعارض المفترض بين مصلحة المجتمع ومصلحة الفرد، إلى التعارض بين مصلحتين فرديّتين. كما لو تعارضت مصلحة الإنسان بالحفاظ على صحته التي تقتضي الراحة والإستجمام مثلاً مع مصلحته في الكسب وزيادة إيراداته، فيضحّي بالثانية لحساب الأولى لأنها أهمّ في نظره. لكنّ الأفراد في طريقة حسابهم للأولويّات وفي طريقة إدراكهم للأهم مختلفون، ولذا نجد من يقدّم لذّة مؤقتة وعابرة على مصلحة دائمة، فيعرض صحته للخطر في سبيل نزوة وإشباع شهوة، بينما نجد من يتدبّر الأمر فلا يبيع الباقي بالفاني ولا الدائم بالمؤقّت.

وهذا نفسه يجري في مجال نظر الأفراد لمصالح مجتمعهم، فقد يسوقهم ضيق النظر وقلة الإدراك إلى التضحية بمصلحة عامّة لمصلحة خاصّة، مع أهمّية المصلحة العامّة وإنعكاسها على نفس الفرد بالتالي. ومن أوضح الأمثلة أولئك الذين يبيعون أمن وطنهم وكرامته وعزّته بحفنة مال أو موقع وهمي يرضي نزوة في نفوسهم ودناءة لديهم، ولكنّهم يفقدون ما هو أهمّ وما هو أعظم وما هو أبقى لهم ولأمّتهم، وسرعان ما يجدون أنهم كانوا يركضون وراء سراب.

هذا إنما نتناوله بعيداً عن دور القيم والأخلاق، فلو بقينا نحن والحسابات الذاتيّة والمادّية، فإنّ المساهمة ببناء المجتمع السليم، والمشاركة في حفظ مصالحه وعزّته وكرامته وعنفوانه، يدخل في المصالح

الخاصة أيضاً من جهة أنّه مساهمة في صناعة بيئة ومحيط لنفس الأفراد لا لغيرهم.

وهو لا يعني إهمال الجانب الأخلاقي، الذي يكفي لوحده في دفع الإنسان للعمل في سبيل المصالح العامّة، والتضحية في سبيل الغير وخاصّة إذا كان هو الأمّة والوطن، وبذل الغالي والنفيس من أجله، فالعقيدة والقيم والأخلاق كلّها تدعو لذلك، وليس فيه خسارة في النهاية لأن الأجر والثواب والمنزلة الأخرويّة تشكّل هدفاً، وكل ذلك يدخل في حسابات الربح والخسارة بلا شك.

وهذا بالذات يفتح الباب لدراسة الحرص على المصالح العامّة بطريقة أقرب إلى الرؤية الدينيّة، فإنّ المضحّي في سبيل دفع العدوّ عن وطنه وفي سبيل حفظ الإستقلال والكرامة والعزّة، هذا المضحّي إنّما يعمل في سبيل الوصول إلى منازل أخرويّة لا يصل إليها إلا بامتلاك روحيّة المضحّي وروحيّة المجاهد، لا يصل إليها إلّا من تخلّق بالإيثار مثلاً وعمل بالتكليف الشرعيّ وإن كان يتطلّب منه البذل.

وهذا هو الذي دعا الشهيد مطهري لعدّ مصلحة الفرد هي الأصل لكن بهذا الاعتبار لأن الفرد في النتيجة لن يخسر شيئاً، بل هو يفوز بالشهادة والمنزلة العالية ودرجات المقرّبين والأجر والثواب، وهو ما تهفو إليه القلوب ويعمل من أجله العاملون.

فعلى الإنسان أن يُعمّق مستوى إدراكه ولينظر إلى الأمور نظرة دقيقة وواقعيّة، فسيجد أنّ خدمة المجتمع وقضاء حوائج المؤمنين والإيثار والتضحية والبذل والعطاء والجدّ والجهاد كل ذلك يعود عليه مباشرة

بالفوائد الجمّة فضلاً عن آثارها الاجتماعيّة التي هي بحدّ ذاتها تشكل دافعاً ومنطلقاً وهدفاً.

○ إرادة الفرد وإرادة الأمة

ونختم بالإشارة إلى أن إرادة الأمة ليست سوى إرادة أفرادها، وصلابة إرادة الأمة تأتي من صلابة إرادة أبنائها بما فيهم القادة. وما تعرّضت له الأمّة من ويلات ومآسي إنما جاء من انعدام إرادة الأمّة ونتيجة ضعف إرادة أبنائها أو عدم التفاتهم إلى المعادلة السابقة.

في الكوفة مثلاً عندما تخلّى الناس عن مسلم بن عقيل في الساعة الحرجة، كانت المشكلة في انعدام إرادة الأفراد، فكان الأب أو الأم أو الزوجة تأتي للرجل فتقول له: «يكفيك الناس»، وهو يعني أنهم يريدون النصر ودفع العدو، ولكنّ كلّ واحد منهم تخيّل أنّه إذا ترك الساحة فلن ينقص شيء، وهذا معناه أنّه توهّم أن قيمته في المجموعة ليست سوى صفر، أي لا قيمة لوجوده، فهو لا يزيدهم قوّة بحضوره ولا ينقصهم بغيابه، ولما فكر الجميع بهذه الطريقة انعدمت الإرادة لأنهم أصبحوا أربعة آلاف صفر، أربعة آلاف رجل بلا إرادة، فتفرّقوا. فالإرادة الصلبة للأمّة التي تصنع الانتصار هي إرادة الأفراد الصغير والكبير، النساء والرجال، القادة والقاعدة، لأنَّ الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

○ القيم والأخلاق الاجتماعية

المجتمع الإسلامي يمتاز بالفكر والعقيدة التي تشكل قاعدة تقوم عليها مجموعة من الضوابط العملية التي تحكم حركة المجتمع في شتى المجالات، هذه الضوابط هي:

١ ـ منظومة القيم والخلاق.

٢ ـ منظومة الحقوق.

٣ ـ منظومة الأحكام الشرعية.

والانتماء الصحيح للإسلام يستلزم الاحتكام إلى هذه المنظومات في كل تفاصيل الحركة، والمنهج العلمي الذي نتبنّاه ونسلكه، وتجسيد ذلك في كل خطوة عمليّة أو موقف أو قبول أو رفض. ومن العناوين البارزة التي تمثل القيم الاجتماعية ما يلي:

١ ـ التعاون:

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

يسعى الإسلام لبناء المجتمع الإسلامي المتوحد والمتعاون ويعتبره فريقاً متكاملاً، لكنّه يريد التعاون على محور التقوى والبرّ، ومن أجل الوصول إلى هدف مشروع وغاية رساليّة، فعندما يكون التعاون على الإثم فهو مرفوض، لأن مقتضى فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منع الإثم والعدوان والحيلولة دون حدوثه مما يتعارض مع فرض التعاون عليه، ولذا قلنا سابقاً أنّ الإسلام يريد مجتمع التواصي بالحق، «قل الحق ولو على نفسك».

ومن هنا كانت العصبية مرفوضة بكل أشكالها لأنها تدعو إلى التعاون في المجالات كافة ومنها الإثم والعدوان، وفي مواجهة الحقّ والبرّ والتقوى. وما ينقل في المأثور: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فليس المراد منه الإعانة على الظلم وإنما المراد انصره مظلوماً بدفع الظلم عنه وإعانته على ذلك، وانصره ظالماً بالحيلولة دون ارتكابه للظلم ومنعه من ذلك لأنّه

نصرة له، لإنقاذه من الاتّصاف بهذه الصفة وارتكاب هذا الجرم، وهو أهمّ بكثير من إعانة المظلوم.

وعن الرسول ﷺ قال: «من تعصّب أو تُعُصّب له فقد خلع ربق الإيمان [ربقة الإسلام] من عنقه».

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبيّة أن يحبّ الرجل قومه ولكن من العصبيّة أن يُعين قومه على الظلم».

والحقيقة أنّ التعاون على الخير والبرّ والتقوى يحتاج إلى التربية والتخلص من أسر الأنانيّة وتنمية روح الانتماء إلى الجماعة والحرص على مصالحها، والاعتياد على نكران الذات والتحسس بآلام الآخرين.

وجاء في الخبر: «خير إخوانكم من سارع إلى الخير وجذبك إليه وأمرك بالبرّ وأعانك عليه».

٢ ـ الحرص على المصالح العامّة:

أحد الصفات التي تدلّ على تماسك المجتمع وقدرته على مواجهة التحديات، حرص أبنائه على المصالح العامة، والتعامل معها بما لا يقلّ عن المصالح الخاصّة أهميّة.

في الحديث: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى».

وسُئل رسول الله ﷺ: مَن أحبّ الناس إلى الله؟ فقال: «أنفع الناس للناس».

وقال ﷺ: «من أصبح لا يهتمّ بأمور المسلمين فليس منهم».

فالمؤسف جدّاً أن نُربي أبناءنا على استباحة الأموال العامة، وإهمالها،

وكأنها لا تعنينا مطلقاً، بينما الواجب هو العمل على حفظها وتحمّل مسؤوليّتها وهو مظهر الحضارة والنَّظم الاجتماعي.

٣ ـ قضاء حوائج المؤمنين:

يتفرع عن الخصلة السابقة مبادرة المؤمنين لقضاء حوائج بعضهم، وهذا أيضاً من مظاهر التعاون، لأنّ الحرص على المصالح العامّة التي منها مصالح كل إفراد المجتمع يملي الحرص على التعاون معهم وقضاء حوائجهم، وهو ينمّي عند الإنسان روح التضحية والإيثار والتحسّس بآلام الآخرين، ويذيب الذاتيّة والأنانيّة.

في الحديث عن الإمام الحسين عليه السلام: «واعلموا أنّ حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم فلا تملّوا النعم فتحور نقماً..».

وفي هذا المجال لا يُستصغر شيء من الحوائج والمنافع، فقد ورد في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله: «إماطتك الأذى عن الطريق صدقة».

٤ ـ الإنصاف والعدل:

الإنصاف والعدل لا ينحصر في الحقوق الماليّة والماديّة، وإنما هو أهمّ وأصعب في الحقوق المعنويّة، وهو يقتضي معرفة الأحكام الشرعيّة والحقوق التي فرضها الله سبحانه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠].

وفي قول علي عليه السلام: «نظام الدين خصلتان إنصافك من نفسك ومواساة إخوانك».

وغاية الإنصاف أن ينصف المرء من نفسه فإنّه كالعدل في الحكم والإمرة، لأن من ينصف الناس من نفسه مع قدرته على الحيف، فيلزم نفسه

أداء حقّ غيره ولو كان مرّاً، يقف موقف الحاكم العادل المقتدر. ومما كان يوصي به أمير المؤمنين عليه‌السلام عمّاله ما ورد في كتابه لهم:

«.. فأنصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم، فإنكم خُزّان الرعيّة، ووكلاء الأمّة وسُفراء الأئمّة».

ومن الجدير بالإشارة أن إنصاف الناس من النفس لا يدخل نقصاً على المنصف ولا هواناً، فإنّ الله تعالى يزيده عزّاً ورفعة «ألا إنّ من ينصف الناس من نفسه لم يزده الله إلاّ عزّاً».

وهناك ما هو أشدّ من الإنصاف وهو الإيثار، وهو درجة أسمى بكثير، روي عن أمير المؤمنين عليه‌السلام قوله: «عامل سائر الناس بالإنصاف وعامل المؤمنين بالإيثار». ومن المعلوم أن الإنصاف له أثر كبير في توثيق اللحمة الاجتماعيّة، وقد وردت كلمات عدّة لأمير المؤمنين عليه‌السلام تُشير إلى ذلك منها:

«الإنصاف يرفع الخلاف ويُوجب الائتلاف».

«الإنصاف يتألّف القلوب».

«بالنصفة تدوم الوصلة» «بالنصفة يكثر المواصلون».

«المُنصف كثير الأولياء والأوِدّاء».

وأصعب الإنصاف ما يرتبط باللسان، وقد ورد «قلّما ينصف اللسان في نشر قبيح أو إحسان» لأن اللسان سريع الزلّة يسترسل فيظلم، مما يقتضي لجم اللسان والإمساك به لئلا يتجاوز حدّه.

٥ ـ التواضع والعفو:

أوّل ما يفسد العلاقة الاجتماعيّة، ويصيبها في الصميم، التعامل بالتكبر والتعالي، لأن المتعالي على الناس يجهل قدر نفسه وقدر غيره، ويغفل عن

موازين التفاضل الصحيحة، فيتعلّق بمقاييس باطلة، وفاسدة، حيث أنّ المعجب بنفسه والمتعالي على الناس يجهل واقعه المليء بالضعف، ويعمى عن الكثير من سيّئاته وسلبيّاته، ويتوهّم أنّ المال والقدرة والموقع السياسي أو الاجتماعي يجعله أرفع شأناً من باقي الناس، مع أنّ كل ذلك من النعم الإلهيّة التي يُسأل عنها، والتي يُمكن أن تزول، وبالتالي فهي لم تزده في الواقع شيئاً، مع أنّ كلّ إنسان له جوانب امتياز خاصٍّ به، فإذا كان فاقد المال أو الجاه فلعله صاحب إيمان وتقوى فهو عند الله أكرم وأوجه.

هناك الكثير من الشواهد التاريخيّة التي تدلّ على أنّ التكبر يُردي صاحبه، كما هو شأن قارون وفرعون ونيرون وغيرهم. بينما التواضع يعود بالبركات والثمرات، وهو صفة المؤمنين والمتّقين، وبالتواضع تسمو النفوس وتطهر وتنال درجات القرب الحقيقيّ. وقد ورد في الأحاديث والروايات:

«ثمرة التواضع المحبّة».

«بخفض الجناح تنتظم الأمور».

«إياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها، وحبّ الإطراء فإنّ ذلك من أوثق فرص الشيطان».

وقد بيّن الإمام الرضا عليه السلام حدّ التواضع في قوله:

«أن تُعطي الناس من نفسك ما تحبّ أن يُعطوك مثله».

وفي حديث الإمام الصادق عليه السلام: «أن ترضى من المجلس بدون شرفك وأن تسلّم على من لقيت وأن تترك المِراء وإن كُنت محقّاً».

٦ ـ النصيحة:

من أخلاقيّات المجتمع الإسلامي النصيحة، وذلك لأنّ النصح يمثّل الحرص على مصالح الغير والبرّ بهم وحفظهم.

يقول الإمام علي عليه السلام: «ناصحك شفيق عليك، محسن إليك، ناظر في عواقبك، مستدرك فوارطك، ففي طاعته رشادك، وفي مخالفته فسادك».

والنصيحة للمؤمنين تدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من بعض الجوانب، وإن كانت أعمّ من جهة أخرى. وللنصيحة آداب وسنن لا تكتمل إلا برعايتها والتزامها، من أهمها حفظ التوازن، وعدم تجاوز حدود الإنصاف، فقد يستنصحك شخص في مشروع زواج أو عقد شراكة أو اتفاق عمل، فإن النصيحة للمستشير لا تبيح تجاوز حقوق الطرف الآخر، بل يجب إنصافه وحفظ العدل معه.

كما أنّ من آداب النُّصح رعاية الطريقة التي لا توجب توهيناً أو إهانة، يقول الإمام علي عليه السلام: «نُصحك بين الملأ تقريع».

وعنه عليه السلام قال: «من وعظ أخاه سرّاً فقد زانه ومن وعظه علانيّة فقد شانه».

ويقول أيضاً: «إياك أن تُكرّر العتب، فإنّ ذلك يُغري بالذنب ويهوّن العتب».

وإذا كان المؤمن مرآة أخيه، فإنّه أيضاً ينبغي أن يكون حريصاً عليه، ساتراً لعيوبه عن غيره، يتلطّف في إلفاته إليها ويعينه على إصلاحها لا الانتقام منه بسببها.

٧ ـ حفظ جماعة المسلمين ووحدتهم:

وحدة المجتمع هدف يجب السعي لتحقيقه لأنه يحوّله إلى كيان متماسك وصلب، يصعب اختراقه وتفتيته، ولا يُمكن لعدوّ أن يغلب أمّة موحّدة إلا إذا فرّق شملها وشتّت جمعها وأزال وحدتها، وقديماً قيل «فرّق تسد»، القوّة الكبيرة تتألّف من مجموعة قوى صغيرة ضمّت إلى بعضها، وساندت

بعضها، أمّا إذا حدثت الكارثة، وانشغل كلّ فريق من الأمّة بنفسه، وعملت كل طائفة بالاتجاه المعاكس لغيرها، وكرّست جهدها وجهودها في غير الطريق الذي يحفظ وحدة الأمّة، فسوف تصاب الأمّة كلّها بالوهن، وتضعف الإرادة، ويسهل على كلّ عدوّ أن يخترقها وأن يسلبها إرادتها، وقرارها ومقدّراتها، وحتى هويّتها وثقافتها وكل ما لديها من تراث وعزة وكرامة.

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ولهذا ورد الكثير من النصوص التي تحثّ على حفظ الجماعة، وتنهى عن مفارقتها، والمسألة بلا شكّ من أهمّ المسائل السياسيّة، وفي حساب الأولويّات حفظ وحدة الأمّة وتماسكها أهمّ بكثير من القضايا الصغيرة التي تستغلّ عادة لإثارة نزاعات تبدأ ولا يعلم كيف تنتهي. لذا يحرص دائماً عقلاء الأمّة وأهل الحكمة من زعمائها على وأد الفتن والترفّع عن صغائر النزاعات، لأنهم ينظرون بعين الحكمة والتعقّل إلى أهميّة الحيلولة دون جرّ الناس إلى نزاعات من شأنها أن توهن الأمّة وتفتّت المجتمع.

ومن الجدير بالإشارة هنا ـ كما أشرنا في السابق عند الحديث عن التعاون ـ أنّ الوحدة والقوّة والتماسك دائماً في سبيل حفظ الحقّ والوصول إليه والتمسّك به، أما عندما تكون الوحدة على نهج الباطل وفي سبيل الظلم، فليس ذلك المقصود للشريعة. وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من فارق جماعة المسلمين فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه» قيل: يا رسول الله وما جماعة المسلمين؟ قال: «أهل الحق وإن قلّوا».

ولذا رُوي عن الإمام علي عليه السلام يوم دخل الحرب مع معاوية أنه قال

«أهل الجماعة أنا ومن اتبعني وإن قلّوا، وذلك الحق عن أمر الله وأمر رسول الله ﷺ».

هذا غيض من فيض قيم المجتمع الإسلامي، ويدخل فيها علاقة القائد بالأمة وعلاقتها به، لأن مكان القَيّم بالأمر من الأمة مكان النظام من الحرز (أي الخيط في العقد) يجمعه ويضمّه، فإذا انقطع النظام تفرق الحرز وذهب ثم لم يجمع بحذافيره أبداً.

○ خصائص المجتمع الإسلامي

المجتمع الإنساني ليس مجرد أفراد جمعهم مكان وزمان واحد، وإنما هو وحدة مؤلفة أفراد يحميهم الهدف والمشترك والمسار الواحد والثقافة والتفاعل الإيجابي. ولا شك أن خصائص المجتمع الإسلامي تتفرع من خصائص أفراده، وتنبع منها، وبالإمكان استخلاص جملة عناوين تعبّر عن أهم الخصائص وهي:

أولاً: الأساس الفكري والعقائدي

الفكر والعقيدة يُشكلان القاعدة التي يبني عليها المنهج العلمي والسلوكي لكل إنسان، لأن طبيعة فهم الإنسان لمبادئه ومعاده ونظرته للوجود وأصله وأبعاده، ونظرته لبقية الموجودات التي تحيط به، كل ذلك يؤثر تأثيراً مباشراً في علاقته معها وأسلوب تعامله وتعاطيه، لذا كان للعقيدة الإسلامية التأثير المباشر في صياغة خصائص المجتمع الإسلامي وتحديد البنية الاجتماعية له.

ولكن هنا ينبغي الإلفات إلى أن واقع المجتمعات الإسلامية التي نعيش فيها لا تمثل الأنموذج الأمثل والمعبّر عن الإرادة الإسلامية والشكل المطلوب، والسبب ليس في انعدام تأثير الانتماء الديني والعقيدة

الإسلامية، بل لأن المسلمين لم يأخذوا الإسلام أخذاً صحيحاً وشاملاً وكاملاً، وإنما أخذوا منه قسطاً وتركوا آخر، حتى على صعيد العقيدة هناك تفاوت كبير في مستوى الفهم والتمسك والانتماء ومجرّد التمسك بالشعار وأداء الطقوس العبادية لا يتيح الفرصة كاملة لظهور معالم الفكر الإسلامي والنهج العلمي للشريعة.

فكلمة التوحيد التي تمثل المحور الأساس للفكر والعقيدة والنظام، لها مستلزماتها، حيث أن التوحيد يقتضي التعلق التام بالباري عزّ وجل روحاً وجسداً، فكراً وعملاً، ويقتضي رفض ما عداه وما لا يمت إليه من أفكار وأنظمة وشرائع.

ثانياً: حاكمية القيم والأخلاق الاجتماعية

لا يُمكن لنا أن نتصور مجتمعاً يتحلّى بالقيم ويحكّم الأخلاق في علاقاته الاجتماعية ما لم يكن الدين هو الذي زرع هذه الأخلاق والقيم. وإذا كان بإمكان الفلاسفة أن يسلكوا طريق العقل لإثبات الأخلاق والاستدلال على حسنها، فإنهم ليس بإمكانهم أن يربوا الناس عليها وعلى التمسك بها كما تمكّن الأنبياء والرسل عليهم السلام. لذا يُمكن أن يقال أن الأديان هي الأصل والمصدر الأول لها.

يشبّه الشهيد مطهري من يريد إثبات الأخلاق عن طريق العقل بمن يحاول تنقية التراب من برادة الحديد حبّة حبة، بينما طريقة الأنبياء أشبه بمن يحمل قطعة المغناطيس ويديرها في كومة التراب فيستخرج كل ما فيها من حبات حديد دفعة واحدة ويرميها جانباً.

ومهما يكن، فإنّ الإسلام قد وضع للناس منظومة من القيم والأخلاق تحدّد المنهج السلوكي الأمثل للإنسان في حياته الفردية وحياته الاجتماعية،

لو أخذ بهذه المنظومة بكل تفاصيلها وبكل جوانبها لأمكن بناء المجتمع الأرقى والأكمل والأمثل، على المستوى الروحي وعلى المستوى العاطفي.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وهذا الأمر ليس مرتبطاً بأمة دون أخرى، فقد حدّثنا القرآن الكريم عن الأمم السابقة على نفس القاعدة فقل:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ﴾ [المائدة: ٦٦].

ثالثاً: العدالة الاجتماعية

العدالة الاجتماعية في الإسلام تظهر بأبهى صورها من خلال تكريس مساواة الناس جميعاً أمام القانون، والحيلولة دون التمييز على أسس غير منطقية، وإقامة نظام اقتصادي متوازن لا يسمح بطغيان رؤوس الأموال من خلال الاحتكار وتمركز المال بيد الأغنياء دون أن يقع فريسة القضاء على الطموحات والحوافز نحو العمل، ودون ظلم ولا جور.

ولا شك أن تطبيق العدالة الاجتماعية بشكلها الكامل يتوقف على حكومة تتمتع بالتقوى والصلاح. «صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسدا فسدت، العلماء والأمراء».

وقد شهد العالم منذ القديم الكثير من المآسي التي جرّها عليهم غياب العدالة الاجتماعية، بل حتى في العصر الحاضر فإن الكثير من الأنظمة المتحضّرة والتي تزعم الدفاع عن حقوق البشر تعاني من غياب العدالة الاجتماعية الواقعية، واكتفت ببعض الجوانب منها فقط. وسنتناول بعض العناوين المهمة التي أخلّت بها الأنظمة المعاصرة:

١ ـ التمييز العنصري، وقد عاش الغرب ولا يزال التمييز ضد السود والشرقيين، حتى أميركا التي تنصّب نفسها للدفاع عن حقوق الإنسان مارست التمييز العنصري بأبشع صوره، خاصة ضد فئتين: السكان الأصليين للبلاد (الهنود الحمر)، والسود الذين عانوا ولا يزالون العديد من صور التمييز، وكما أن الجو الطاغي على عقلية الأوروبيين الشعور بتفوق البيض على السود وتفوق الأوروبي على غيره. ولعل من أبرز الأمثلة الكيان الصهيوني الذي يقوم على أساس هذه الثقافة.

الإسلام حارب التمييز العنصري وأسس لقاعدة المساواة والعدالة، وجعل أساس التميز في العمل والتقوى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

وعن رسول الله ﷺ قال: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» (الحديث).

والشواهد التاريخية من سيرة الرسول وأهل بيته الأطهار تؤيد أنهم مارسوا عملياً المساواة، وأكرموا الكثير من السود الذين عاشوا بين ظهرانيهم، ولم يميز أحد منهم في إقامة حدٍ، أو تطبيق حكمٍ، أو أخذ حقٍ، أو تقسيم فيءٍ، أو نشر علمٍ، أو دنوّ مقامٍ، بين عربي وعجمي ولا بين أبيض وأسود، ولا بين قرشي وغير قرشي.

٢ ـ الاحتكار وتمركز المقدرات بيد الأغنياء، هذه النقطة من أهم ما يشهده عالمنا اليوم حيث بلغت سيطرة الغرب القوي على مقدرات الدول الفقيرة والمستضعفة حداً مخيفاً ومذهلاً، وصار العالم كله خدماً عند جماعة يحكمون العالم من خلال الإمساك برؤوس الأموال. وعندما تقام المؤتمرات لمساعدة الدول الفقيرة، يقصدون إعطاءها جرعات مسكنة أو تبقيها على

الحياة لأنهم لا غنى لهم عنها كونها مصادر استثماراتهم وأسواق تصريف بضائعهم وأمثال ذلك.

الإسلام منع الاحتكار خاصة فيما يرتبط بحياة الناس، ووضع نظاماً مالياً واقتصادياً أضفى عليه مسحة عبادية، ضمن من خلاله حقوق الفقراء والمستضعفين، ولم يمنع الأغنياء من العمل واستثمار أموالهم، لكن وضع لهم ضوابط تمنع طغيان رأس المال، فمنع الربا، والاحتكار، وفرض الزكاة والخمس والصدقات، ومنع الغبن والغش والاحتيال.

وهذا يميز النظرة الإسلامية عن الأنظمة المالية العالمية (خاصة المعاصرة منها) التي طغت وأمسكت بالمال ومصادر الثروات ومناجم المواد الأولية، وخلقت أنظمة مصرفية عالمية تحتكر التداول بالأموال لمصلحتها حتى تلك التي يجنيها الصغار والمستضعفون في مختلف بقاع العالم.

٣ ـ من الأمور التي تشكل خللاً في العدالة الاجتماعية، احتكار المرجعية القانونية الدولية من خلال سيطرة بعض الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن واستعمال حق النقض لمنع أي قرار لا ينسجم مع مصالحها السياسية والأمنية الاقتصادية وغير ذلك. والمؤسف أن هؤلاء هم الذين يرفعون شعار الحريات، لكنهم يستبعدون العالم أجمع ويفرضون عليه قرارات لا تخدم إلا مصالحهم الخاصة. وقد شاهدنا كيف أن مجلس الأمن ينتفض كالصقر ويجمع ترساناته العسكرية لمحاربة دولة معتدية لأنها هدّدت مصادر النفط التي يريدونها تحت سيطرتهم هم دون سواهم، ولم يعترفوا بالروح العدائية للعدو الصهيوني الذي يرتكب الجرائم والمجازر وتقتيل المدنيين والأطفال والنساء ويحتل الأرض ويظلم ويهدم ويُعربد، بمرأى ومسمع من المنظمات الدولية التي تغض النظر ولا تحرك ساكناً، فهم

ينطلقون في مواقفهم من مصالحهم الخاصة ومصالح حلفائهم، أية عدالة هذه؟!

٤ ـ من مظاهر الخلل في العدالة الاجتماعية الذي يتفشى اليوم في العالم، موضوع الحريات الثقافية وثقافة الشعوب، وقد نصبوا أنفسهم مدافعين عن الحريات العقائدية والصحفية والثقافية ولكنهم اتخذوا ذلك ذريعة لتدمير ثقافة الشعوب وغزوهم وإحلال ثقافتهم محل ثقافات الشعوب، في الوقت الذي لا يسمح لأحد في العالم أن يعرض فكره وثقافته ورؤيته بشكل حرٍّ ودون عقبات وعراقيل مختلفة. فهم لا يقصدون من الحرية إلا حريتهم هم وما يسمح لهم بالتحرك والعمل والغزو والسيطرة وكل ما عداهم فيوصف بأبشع الأوصاف وأسوء النعوت ويمنع ويعاقب.

فالعدالة الاجتماعية إذن تقتضي إعطاء الفرص المتساوية لكل أبناء المجتمع كي يعمل ويتعلم ويمارس حقه في التعبير والاعتقاد وإبداء الرأي، وتقتضي بإعطاء فرص متساوية لاحتلال المناصب وتحمل المسؤوليات. العدالة الاجتماعية تفرض التوازن في تحمل المسؤوليات وأخذ الحقوق. العدالة الاجتماعية تجعل الجميع أمام القانون في مرتبة واحدة.

رابعاً: التكافل الاجتماعي

من خصائص المجتمع الإسلامي التكافل الذي عبّر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: ٧١].

لأن الكيان المتكامل بطبيعته يفرض التكامل الذي هو أحد مظاهر التشكل الاجتماعي ولولاه كان المجتمع مجموعة أفراد لا يجمع بينهم جامع ولا يربط بينهم رابط.

والتكافل الاجتماعي يُمكن أن يتصور على مستويين:

١ ـ التكافل الاجتماعي في المجال المعيشي وعلى المستوى المادي، فجعل المجتمع كلّه مسؤولاً عن حالات الفقر والحاجة فيه، وقد عبّر عن هذا النوع من التكامل بأكثر من أسلوب:

- الصدقات غير المحددة.

يقول الإمام علي عليه السلام: «إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما متّع به غني والله تعالى سائلهم عن ذلك».

وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

وهذه الحقوق التي أُطلق عليها اسم الصدقات لا تقف عند حدّ ولا تقدّر بمقدار، حتى لو كان الغني قد أخرج الحقوق الواجبة في ماله، فإنه مسؤول عن ذوي الحاجات والفقراء.

- الحقوق المالية المفروضة من زكاة محدّدة وخمس محسوب، وأمثال ذلك.

والملاحظ هنا أن الشريعة قد أعطت الصدقات والحقوق الواجبة بعداً دينياً وعبادياً ميّزها عن الضرائب المفروضة في الأنظمة الوضعية.

٢ ـ التكامل الاجتماعي في المجال السلوكي والتربوي، وهو ما عبّر عنه فقهياً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد حمّل كل فرد من أفراد المجتمع مسؤولية الحفاظ على صلاح المجتمع كله وسلامته ووقايته من الانحراف الأخلاقي والسلوكي.

وإنما اعتبرناه نوعاً من التكافل لأننا ننظر إلى الجانب المعنوي بواقعية تجعلنا ندرك أهمية صلاح الإنسان في دنياه وفوزه في آخرته، فوجه الإسلام عناية المؤمنين نحو برنامج دقيق إذا إلتزمه الجميع يحول دون وقوع ضعفاء

النفوس ضحايا شهواتهم وأهوائهم، فيتم إنقاذهم من أخطار العاقبة السيئة والعذاب الآخروي بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. وهذا الجانب يحتل موقعاً يتقدم على سدّ الحاجات المادية رغم أهميتها.

وهكذا يتحول المجتمع إلى فريق يتكامل بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ويصبح كياناً واحد كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وكالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

■ ■ ■

الظواهر الاجتماعية..
مخاطرها ودور المدرسة في الوقاية منها

مكانة المدرسة كمؤسسة اجتماعية تربوية في تشخيص المشكلات الاجتماعية ومعالجتها

○ الظاهرة الاجتماعية:

هي سلوك عام يُمارس على مستوى واسع من قِبل عدد كبير من الأفراد في المجتمع، وليس من الضروري أن تكون الظاهرة منتشرة في كل أفراد المجتمع فربما كان السلوك منتشراً في شريحة اجتماعية خاصة أو فئة عمرية معيّنة أو مناطق محدّدة، فهناك ظواهر تنتشر بين فئة الشباب أو في مناطق الكثافة السكانية أو الشرائح الاجتماعية التي تعاني الفقر أو التي تعتمد الزراعة مثلاً كعمل رئيسي، وهكذا..

○ المشكلة الاجتماعية:

الظواهر الاجتماعية على نحوين:

أولاً: ظواهر اجتماعية إيجابية، تتناسب مع القيم التي يؤمن بها المجتمع، وتنعكس إيجاباً على المصلحة العامة للمجتمع، والأفراد الذين يعيشون فيه، فهي حالة صحّية، تضفي على المجتمع صبغة من الصلاح وتمنحه ميزة إيجابية.

ثانياً: ظواهر اجتماعية سلبيّة، تمثل انحرافاً في السلوك الاجتماعي، ينافي القواعد الاجتماعيّة الصحيحة والقيم التي ينبغي أن تكون سائدة، وتؤدي ممارسته إلى إخلال في المصلحة العامة، وهذا النوع من الظواهر الاجتماعية يتحول إلى مشكلة اجتماعية تحتاج إلى علاج وتقويم وإصلاح، وإلّا أدّى توسعها وتجذّرها إلى الفتك بالمجتمع ككل وتفكك البناء الاجتماعي والضياع.

هناك العديد من المشكلات الاجتماعية المنتشرة، والواضحة، والتي يَتسالم على وجودها وخطورتها كلّ أفراد المجتمع، وكل مؤسساته، وفي قِبال ذلك قد نجد ظواهر ومشكلات اجتماعيّة لا يعترف بوجودها المجتمع، أو لا يعتبرها مشكلة، ولا يرى أنها سلبية، وذلك نتيجة الخلل في بنية القيم أو منظومة الموازين، أو نتيجة عدم الالتفات إلى التداعيات والآثار المترتبة على ممارستها أو انتشارها.

إذا أردنا أن نضرب مثلاً، فإن ظاهرة الانحلال الأسري في بعض المجتمعات الغربية وتطبيع العلاقة الخاصة خارج إطار الزوجية، وكثرة الولادات غير الشرعية الناتجة عنها، وانعكاس ذلك على بنية المجتمع الناشئ النفسية والعاطفية وحتى الذهنية، فلا يعترف الكثير منهم بأنها مشكلة، وربما أُعتُبرت ميزة وحالة طبيعية.

○ رصد المشكلات الاجتماعية:

الرصد ينطلق في البداية من خلال ملاحظة انتشار السلوك السلبي المشكل، أي ملاحظة انحراف سلوكي قد يشكل ظاهرة سلبية ومشكلة اجتماعيّة. هنا ينبغي لمراكز الدراسات الاجتماعية والمؤسسات المهتمّة في المجتمع المدني أن تقوم بدورها لدراسة هذه الظاهرة لتحديد العناصر التالية:

١ ـ إحصاءات تتعلق بسعة الانتشار، والدائرة الجغرافية للانتشار، والفئة والشريحة الاجتماعية التي ينتشر فيها هذا السلوك، وما يرافق ذلك من وضع اجتماعي وظروف قد تكون على علاقة بنشوء الظاهرة أو المساعدة على انتشارها...

٢ ـ دراسة دقيقة للأسباب التي أدّت إلى حدوث الظاهرة أو ساهمت أو ساعدت على ذلك، من خلال المؤشرات التي أظهرتها عمليّة الرصد، أو التحليل، أو الاستقصاء أو غير ذلك.

٣ ـ دراسة الآثار المترتبة على الظاهرة على مستوى الأفراد والجماعات وعلى المجتمع وبنيته ووظائفه وأدواره.

٤ ـ وضع هذه النتائج بيد المؤسسات الاجتماعية والتربوية والتبليغية والإرشادية، وغيرها من مؤسسات المجتمع التي يجب أن تساهم في علاج المشكلة.

○ مساهمة المدرسة في معالجة المشكلات الاجتماعية:

ليس بإمكان أي مؤسسة إطلاق برنامج علاجي ناجح وموفق للمشكلات الاجتماعية بمفردها وبعيداً عن المؤسسات الأخرى المعنيّة، فالأساس هو توفير حالة من التوافق على وجود المشكلة وعلى أسبابها وعوامل نشوئها وانتشارها، وحول ضرورة معالجتها بالإجمال.

في هذا السياق يُمكن للمدرسة أن تكون واحدة من المؤسسات الاجتماعية التي تهتم بالعلاج، والتي تتكامل مع الوحدات الاجتماعية والتربوية الأخرى فتساهم في وضع برامج علاجيّة وفي تنفيذ بعض جوانب العلاج.

المدرسة ليست حالة منفصلة عن المجتمع الذي تمارس نشاطها فيه،

وتحتضن أبناءه، فهي بلا شكّ تتأثر بالمجتمع من جهة وتؤثر فيه من جهة أخرى.

فهي تعتمد على موارد بشرية تنتمي إلى المجتمع وتحمل الكثير من عاداته وتقاليده وصفاته الاجتماعية وقناعاته وثقافته، وتؤمن بالكثير من القيم التي يتبناها المجتمع.

والمدرسة أيضاً تقدم خدماتها لشرائح اجتماعية كذلك لها قيمها وعاداتها وقناعاتها، هذه الشرائح تتوقع من المدرسة أن تساهم في تكريس كل ذلك لدى أبنائها الذين ترسلهم إلى المدرسة.

فالمدرسة إذن مؤسسة تربوية اجتماعية في قلب المجتمع، تحمل همومه وتطلعاته، وتُلبي حاجاته، وتساهم في تحقيق أهدافه، وهي مؤسسة اجتماعية لكونها تهتم بالمجتمع وتشارك في بنائه وإصلاحه ومعالجة مشكلاته وتربية أبنائه وإكسابهم ما يحتاجون من معارف ومهارات ومواقف تساعدهم على تشكيل حياتهم وتضمن لهم النجاح والصلاح والمنعة والحصانة والسلامة.

المدرسة إذن لها دور حسّاس ومهم تضطلع إلى جانب المؤسسات الثقافية والإعلامية والصحية والاجتماعية وغيرها ممن يساهم في بناء المجتمع وتشكيل هويته وتكريس ثقافته وقيمه وضمان رقيّه وعزّته واستقامته.

○ الأسئلة التي تطرح نفسها في هذا المجال:

أولاً: هل من دور للمدرسة في رصد وتشخيص المشكلات الاجتماعية؟

ثانياً: ما هي الطريقة التي تعتمدها المدرسة في معالجة المشكلات الاجتماعية؟

ثالثاً: ما هو مدى نجاح المؤسسات التعليمية في هذا المجال؟ وما هي الصعوبات التي تواجهها؟

رابعاً: ما هو حجم التعاون والتنسيق بين المدارس والمؤسسات الاجتماعية الأخرى التي تشاطرها الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية.

خامساً: ماذا لو استقالت المدرسة من القيام بدورها الاجتماعي، خاصة في علاج المشكلات والظواهر السلبية؟

○ الانطلاق من المناهج التربوية:

تقدّم أنّ عمليّة الرصد والتشخيص والدراسة من اختصاص مراكز الدراسات الاجتماعيّة، فهي تحتاج إلى أدوات ومنهجيّة ليست متوفّرة عادة لدى المؤسسات التعليميّة، إلّا إذا تصدّت هذه المؤسسة للدور الذي تضطلع به مراكز الدراسات، وهو أمر آخر.

إنّ دور المدرسة يبدأ من المناهج الدراسيّة والتربويّة، التي توضع عادة على أساس التشخيص الدقيق للأهداف الوطنية والاجتماعية، والتي ينبغي أن تأتي مطابقة للحاجات التربويّة على مستوى الوطن والمجتمع بكل فئاته وشرائحه، وتلبي طموحات المجتمع الذي نريد.

فيجب أن تأتي المناهج العامّة متضمّنة ما يساهم في بناء المجتمع السليم المعافى، وما يعالج الظواهر السلبية والمشكلات القائمة أو التي يخشى من حدوثها، فيؤسّس لبناء تربويّ يقي المجتمع من الانجرار إلى تلك المشكلات والتأثر بالعوامل المؤدّية إليها.

هذه الخطوة يجب أن يقوم بها المعنيون بوضع المناهج التربوية العامة، والأسس والأهداف والكفايات على مستوى الوطن، وعلى مستوى كل المواد، وكل المراحل التعليمية، لكن ذلك لا يعفي المؤسسات التربويّة

والتعليميّة من القيام بهذا الدور إذا ما قصّر فيه القيّمون، أو استكمال النقص عندما تأتي المناهج غير مكتملة أو غير مراعية لحاجات الواقع الاجتماعي.

فبهذا المقدار يُمكن لنا أن نقول إن المدرسة معنيّة بوضع المناهج، رغم تفاوت القدرات والإمكانات المادية والفنية والمعلوماتية بين مؤسسة وأخرى وبين المؤسسات الأهلية ومؤسسات الدولة. مما يعني ضرورة وضع أطر للتعاون والتنسيق والتكامل بين المؤسسات الأهليّة المهتمّة من جهة، وبين هذه المؤسسات ومؤسسات الدولة من جهة أخرى، وإذا كانت هذه الأطر موجودة فهي بالحد الأدنى ودون المستوى الفاعل والمنتِج.

○ المنهج العلاجي والمنهج الوقائي:

المدرسة بشكل عام تقوم بدور فاعل في معالجة المشكلة الاجتماعية، ولكنها في الغالب تعتمد الأسلوب التربوي التعليمي الذي ينطلق من الوقاية أي أنها تعتمد المنهج الوقائي المتمثّل بتشكيل بنية تربويّة ومعرفية وقِيَميّة عند التلميذ تجعله بمنأى عن الوقوع في المشكلة، هذا الأسلوب من العمل هو الأسلوب التأسيسي البنائي الذي يلحظ بنية متينة عند الفرد قبل دخوله إلى المجتمع، ويلحظ إكسابه مناعة قبل الإصابة بالمرض والانحراف.

فالمطلوب من المدرسة بالدرجة الأولى أن تقوم بزرع قيَم الفضيلة، وتدريب المتعلم على عادات اجتماعيَة سليمة، نابعة من الدين، وتصب في مصلحة الإنسانيّة، المطلوب من المدرسة أن تؤسّس لعمليّة تغيير وإصلاح اجتماعي تربوي من خلال جيل صاعد سليم معافى بالدرجة الأولى، وصولاً إلى برامج وقائيّة للأهل والأسر في المجتمع اللصيق أيضاً لكن بالدرجة الثانية.

إذا نجحت المدرسة في هذا الدور فهي مساهمة جليلة ومهمة جداً يُمكن المراهنة عليها في البعد الاستراتيجي لاجتثاث المشكلات الاجتماعية.

فبناء الإنسان المنتج مثلاً يشكل أفضل علاج لاجتثاث ظاهرة التسوّل مثلاً، تقوم على معالجة الأسباب التي تكمن غالباً بعدم القدرة على الإنتاج واكتساب المعيشة بالطرق الأخرى. وتربية الإنسان المسؤول تساهم في معالجة الفساد الاداري على المدى البعيد، وبناء الفرد الملتزم بالدين يساهم جذريا في التحصين من الوقوع في مشكلة الانحراف والفساد الاخلاقي، وهكذا دواليك.

وهذا لا يعني أبداً التخلي عن المنهج العلاجي بالمطلق والاكتفاء بالمنهج الوقائي فحسب، فالمدرسة لا يمكنها غض النظر عن المشكلات القائمة، والتي يُمكن أن تتسرب إلى التلامذة وإلى المجتمع اللصيق بالمدرسة، وهذا يفرض إلى جانب ما تقدم وضع خطوات علاجية أيضاً تتكامل مع غيرها من المؤسسات لتشكل حركة واسعة لتطويق الآفة الاجتماعيّة ومواجهتها والحدّ من انتشارها، وربما القضاء عليها ان امكن.

فعلى مستوى المجتمع اللصيق يُمكن للمدرسة أن تؤدي دوراً في برامج التوعية والتوجيه العامة التي تسلط الضوء على الآثار المدمّرة لبعض الظواهر الاجتماعية، وتقدّم النصيحة وطرق العلاج، إن الكثير من برامج التدريب والمحاضرات والندوات التي تقوم بها المدرسة على هذا الصعيد تمثّل مساهمة جليلة من قِبلها في معالجة المشكلات الاجتماعية والوقاية منها.

ويمكن للمدرسة أيضاً أن تقوم بالرصد على مستوى التلامذة، والمبادرة إلى المعالجات الفرديّة إذا اكتشفت سريان بعض المشكلات إلى الجيل المدرسي المستهدف، وقد شكّلت في العديد من المدارس وحدات خاصة

تهتم بالجانب الاجتماعي والتربوي، وتساعد بحدود إمكانات المدرسة على تشخيص الحالات ومعالجتها أو اقتراح أساليب العلاج على الأهل، وفي كثير من الأحيان يتم الاستعانة بذوي الاختصاص من خارج المدرسة لمعالجة حالات يستعصي على المدرسة معالجتها بتنسيق تام مع الأهل.

إن هذا الدور يدفع المدرسة إلى احتلال موقع متقدم في الاهتمام بقضايا الناس والمجتمع ومن شأنه أن يضع المدرسة في موضع الريادة والاحترام والتقدير في بيئتها الاجتماعية وعمقها البشري.

وفي الحد الأدنى يُمكن للمدرسة أن تتحول إلى ملتقى جامع وحاضن للناشطين في مجال الإصلاح الاجتماعي، وصلة الوصل بينهم وبين أولياء أمور التلامذة، إذا لم تكن المدرسة هي المبادرة وهي المنظمة للبرامج، فالحد الأدنى هو استضافة الأنشطة في مبانيها المؤهّلة لمثل هذه الفعاليات، وتوفير المستلزمات اللوجستية.

وهنا تظهر أهمّية التكامل والتعاون مع مراكز الدراسات والمؤسسات الاجتماعية الأخرى، فعلى هذا الصعيد لدى مدارسنا تجربة ملحوظة في موضوعات عدّة تمّ تشخيص أولويّتها، وجرى تنظيم البرامج التوجيهية والتدريبيّة المناسبة لها استهدفت التلامذة أحياناً وأولياء التلامذة تارة أخرى، وكان لها الصدى الإيجابي والأثر الطيب، وهي لا زالت قائمة ومستمرة، من قبيل برامج التربية الفعالة ولقاءات التوعية الصحّية والإرشادية التي تنظم باستمرار ويستعان لتنفيذها بذوي الخبرة من داخل المؤسسة وخارجها.

○ النجاح والإخفاق:

إن مستوى نجاح المؤسسات التربوية على صعيد الأهداف التعليمية والمكتسبات المعرفية الخاصة بالعلوم لم ينعكس بنفس القدر على الاهتمام

بالأهداف التربوية والبناء الاجتماعي، وفي بناء الثقافة الاجتماعية، وهنا لا أتحدث عن تجربة مدارسنا أو تجربة مدارس معيّنة، فبعض هذه المدارس لها دور ناجح وموفق على هذا الصعيد، وإنما أتحدث عن المدرسة كمؤسسة تعليمية بشكل عام، فقد غلب الاهتمام ـ على العموم ـ بالجانب المعرفي على حساب القيم والمواقف التي يتم إكسابها بقليل من المنهجية وكثير من المبادرات الفردية مما احدث تفاوتاً بين مدرسة وأخرى وبين أستاذ وآخر.

ما هو المطلوب للمدرسة أن تقوم به وتوليه الاهتمام الكافي هو العمل على إكساب القيم والمواقف بمنهجيّة مدروسة ومخطط لها، ليكون اهتمامها بالتربية وبناء الإنسان ومن ورائه المجتمع بنفس درجة الاهتمام ببناء الشخصية العلميّة، وهذا يحتاج إلى أرضيّة ثقافية ومعرفية ومهاراتية عند القيمين والاساتذة.

ونحن لا نعتبر أن النجاح كاملاً ما لم يقترن العلم بالدين وبالأخلاق وبالقيم السلوكية التي تضع العلم في خدمة المسار الإنساني للإنسان، ومن دونها يصبح أداة فتّاكة في خدمة الأهواء والغرائز والشيطان، كما نشهده في عالمنا اليوم في الكثير من أصقاع الدنيا الممسكة بتلابيب العلم والمعرفة والتطور التكنولوجي والصناعي.

○ الاستقالة من المهمّة:

عندما تعتبر المدرسة نفسها غير معنية بمعالجة المشكلات الاجتماعية، وأنّها تقوم بدور تقني على مستوى إكساب العلوم والمعارف وتحقيق النجاح على هذا الصعيد، فإن ذلك يؤدي إلى خلل قد لا تتمكن المراكز الفاعلة الأخرى التعويض عنه دائماً، إنّ اقتصار وظيفة المدرسة على التعليم

والابتعاد عن التربية والوظيفة الاجتماعية يجعلها تعيش في جزيرة منقطعة عن عالمها وعن بيئتها.

من الضروري أن نعيد الاعتبار للدور الاجتماعي الذي يُمكن أن تؤدّيه المدرسة، وأن نعيد النظر بالأهداف التربوية الموضوعة من قبل الدولة على أساس الوظيفة التي يجب أن تؤدّيه المناهج وأن تقوم به المدرسة، لبناء مجتمع قوي معافى ومحصّن تجاه الانحراف وتجاه التحديات الكبيرة التي تعصف بنا.

■ ■ ■

العلاج الإيجابي للمفاسد الاجتماعية(*)

«الإنسان اجتماعي بالطبع» كما يقولون.. ولا شك أن الحياة الاجتماعية ضرورة ملحّة لتحقيق الكثير من الأهداف التي يعجز الإنسان عن تحقيقها بمفرده ولوحده، إلا أنه قد يتولد عن العلاقات الاجتماعية جملة من المفاسد والتجاوزات تتطلب معالجتها من قبل المفكّرين والعلماء والقادة، عبر برامج تربوية وأنظمة وقوانين وإجراءات تحدّ من تفاقمها.

فيما يلي نعرض لأبرز أنواع المفاسد الاجتماعية، والطرق الإيجابية لمعالجتها.

○ أنواع المفاسد الاجتماعية

المفاسد الاجتماعية هي الممارسات والتصرفات والعادات التي تنشأ عن العلاقات الاجتماعية وعن الاشتراك في العيش في إطارٍ مّا، وتؤثر سلباً على مسيرة المجتمع وحركته نحو الأهداف السامية التي حدّدها البارئ عز وجل وجعلها غاية لخلق البشر. وهي على أنواع:

أولاً: المفاسد الاجتماعية ذات الصلة بالحقوق المعنوية للمجتمع والأفراد الذين يتكون منهم المجتمع.

(*) مقالة نُشرت في مجلة بقية الله، العدد ١٦٦ ص٣٨ تموز ٢٠٠٥.

ومن هذه الحقوق: الحرية، الكرامة، الشعور بالأمن، وحفظ الخصوصيات الشخصية للفرد والمجتمع... إلخ.

هذه الحقوق تتعرض للتعدي والتجاوز، وقد لا تُعطى الأولوية في المعالجة عادة، رغم أنها تحتل أهمية كبرى في المنظومة الأخلاقية والتربوية للشرائع السماوية، وتتناولها بكم هائل من النصوص التوجيهية، تزخر بها الموسوعات الحديثة.

في هذا المجال تضمن الشريعة الإسلامية حرية الإنسان، ففي حديث علي عليه السلام: «لا تكونن عبد غيرك وقد جعلك الله سبحانه حراً»، وهي قاعدة تؤسس لرفض عبودية الإنسان للإنسان «شر الناس من باع الناس» كما عن رسول الله صلى الله عليه وآله. ولا نقصد طبعاً بالحرية أن يتحرر الإنسان من العبودية لله، فهو أمر غير ممكن، فالمخلوق لا يمكنه الخروج الحقيقي من سلطان الخالق، وإن توهم نفسه قادراً على ذلك بفضل المساحة الممنوحة له من قبل خالقه وفق ما تقضيه مسألة التكليف والامتحان والإختبار.

ويجب الإشارة إلى أن الحرية لا تعني الإذن بالتمرد على القوانين والأنظمة الشرعية أو الاجتماعية، فالحرية دائماً لها مساحة لا تتجاوز حقوق الآخرين وحريتهم، ومن هنا تنشأ المشكلة حيث يبادر البعض إلى توسيع دائرة الحرية لنفسه فيضيق حرية غيره أو يصادرها وربما صادر حرية المجتمع بكامله.

أما الكرامة فهي حق معنوي آخر له أهميته الكبرى، فقد يجد الإنسان أن حفظ الكرامة أهم من الطعام والشراب، بل قد يفضل الموت بكرامة على الحياة مع الذل ولو توفر له فيها كل ما لذّ وطاب. وهذا أصل تلتزم به الأديان بما فيها الدين الإسلامي.

ففي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله عز وجل فوّض إلى المؤمن أموره كلها ولم يفوّض إليه أن يُذلّ نفسه». وإذا كان من غير المسوّغ أن يذلّ نفسه، وأن يرضى لها بالذل، فمن باب أولى أن لا يكون التعدي على كرامة الغير وإذلاله مسموحاً وجائزاً في عين الشريعة.

ويأتي في سياق الحفاظ على خصوصيات الأشخاص والجماعات النهي عن الغيبة، باعتبارها تشوّه صورة المغتاب وتخدش شخصيته في أعين الآخرين، وتساهم في إسقاطه والحد من صلاحيته كعنصر فاعل في كيان المجتمع الذي يراد له أن يكون متماسكاً متكافلاً متعاوناً كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

ثانياً: المفاسد الاجتماعية ذات الصلة بالحقوق المادية: كالظلم والاحتكار والتعدي على الأموال وإغلاق أبواب الكسب المباح، وحجب الحقوق. ولعل الكثير من الحالات التي ينتج عنها التمركز الكبير في الموارد المادية عند أفراد أو جماعات تعود إلى اعتماد الأساليب غير المشروعة، وتجاوز حقوق الأفراد والجماعات، واحتكار الإمكانيات والفرص، واستخدام القوة في منع الآخرين من الوصول إلى ما من حقهم الوصول إليه.

«فما جاع فقير إلا بما مُتّع به غني»

ومن المؤسف أن بعض التعديات المادية على حقوق الآخرين تتخذ شكلاً مقنناً ومعترفاً به في عدد من الدول والأنظمة المعاصرة، أو تأتي نتيجة ضعف السلطات أو خيانتها في معظم الدول الأخرى.

وقد حرّمت الشريعة الإسلامية «الحكرة» في الطعام لأنه يضر بالناس، مما يعني أن حق الناس بالحصول على ضروريات المعيشة أمر يجب رعايته ويحرم التعدي عليه، ولذا، يلزم المحتكر بعرض الطعام للبيع.

ثالثاً: المفاسد الاجتماعية ذات الصلة بالغرائز الجنسية: وهي كثيرة الانتشار، تنشأ من الاختلاط السلبي، والعلاقات الاجتماعية المتحللة من القيود الأخلاقية والضوابط الشرعية، مما يؤدي إلى التمادي في الاستجابة لنداء الغريزة، وربما الإنجرار إلى حالات الشذوذ الجنسي، وتغليب البعد الحيواني على حساب البعد الإنساني.

وقد يلجأ دعاة الإباحية والتحلل من القيود الجنسية إلى الترويج لهذا النوع من المفاسد عبر إدخاله في دائرة الحريات الفردية وسلطة الإنسان على نفسه، متناسين تماماً أن الإنسان مملوك لخالقه ليس له أن يستخدم سلطته في الإضرار بنفسه وإرضاء شهواته على حساب ملكاته الروحية والعقلية، وليس له أن يتمرد على ما رسمه له الخالق والمالك من حدود شرعية وأخلاقية، فضلاً عن مساهمته في إفساد الذوق العام والبيئة الاجتماعية.

○ العلاجات التربوية للمفاسد الاجتماعية:

لن أتناول بالعرض أدوات الردع ووسائل العقاب التي يُلجأ إليها عادة للحدّ من انتشار المفاسد، وإن كانت تحتلّ موقعها في الشرائع السماوية والأنظمة الوضعية على حدٍ سواء، لكني أشعر بضرورة تنمية وتطوير الوسائل التربوية الإيجابية التي تكسب الإنسان منعة ذاتية وارتداعاً إرادياً، ففي عالم التربية يُقدّم هذا النوع من العلاجات على النوع الأول في الأهمية، ورغم ذلك يُسرع المربّون عادةً إلى استخدام النوع الأول لأنه أسهل تناولاً، ولأن أساليبه تحدث ردعاً فورياً مما يوهم أنها أوصلت إلى الهدف بيسر وفعاليّة، لكنّ الدقة والتأمّل يكشفان أن الارتداع الآتي نتيجة الخوف من العقاب سرعان ما يرتفع عند ارتفاع أسبابه، فيستمر الارتداع باستمرار الرادع وعند بقاء الخوف، فإذا غاب الرادع وزال الخوف أو

ضعف تأثيره أو تمكن المستهدَف من التهرب منه والتمرد عليه عاد من حيث بدأ، على خلاف الوسائل الإيجابية التي تستهدف إكساب الإنسان ملكة الصلاح والفضيلة، والامتناع عن المفاسد الاجتماعية ذاتياً حتى في غياب الرقيب والأمن من العقاب.

لذا، نجد الإسلام يعمل في تشريعاته على الخطين معاً ويولي الوسائل التربوية الإيجابية الاهتمام الأكبر، ويقنّن في الوقت ذاته الحدود والتعزيرات لردع الحالات التي لا تستجيب للعلاجات الإيجابية.

كيف يعمل الإسلام على معالجة المفاسد الاجتماعية بالطرق الإيجابية؟

أولاً: لابدّ من بناء القاعدة الفكرية والعقائدية، وربط الحياة الدنيوية التي يعيشها الإنسان بالمبدأ من جهة والمعاد من جهة أخرى لتكون مرحلة في سياق متّصل بما قبلها وبما بعدها، وعندئذٍ يجد العاقل أنه لا محيص عن التعاطي مع تفاصيل الحياة الدنيا وما فيها من متع وشهوات ونعم وملذّات وما يشوبها من بلاءات ومصائب وغموم ومصاعب باعتبارها حالة برزخية مؤقتة ومرحلة عابرة تؤسس لما بعدها، مما يفرض عدم الاستغراق في لذّاتها بما يضرّ بحياته الأخرى، وعدم الجزع لهمومها وبلاءاتها، بل يؤخذ منها بالقدر الذي لا يتعارض مع ما بعدها من مراحل وما ينتظر من مصير، وفي المقابل يجب الصبر والتحمّل لأن الفرج آتٍ لا محالة.

هذا المحور هو الأساس في العلاج الإيجابي للمفاسد من وجهة نظر الدين الإسلامي، وهو أساس التغيير الجذري، وعلى ضوئه يتمايز الناس في أدائهم وسلوكهم، فأهل الدنيا يعملون من أجلها ويحرصون على استنفاذ كل ما بوسعهم للفوز بلذّاتها ولا يحسبون لآخرتهم حساباً، بينما في المقابل أهل الإيمان بالآخرة يتعاملون معها بطريقة أخرى.

ثانياً: القيم الإنسانية والاجتماعية:

يجب العمل على زرع القيم وتجذيرها، وذلك لأن القيم الراسخة في النفوس تحدث منعة ذاتية في مواجهة المفاسد، فعندما تهفو النفس لممارسة رذيلة أو الحصول على لذة رخيصة، تعمل قيم الفضيلة على ردع النفس وتمسك بزمامها، وعندما يهم الإنسان بتجاوز حدود الآخرين والتعدي على حقوقهم، تتحرك قيمة العدالة في النفس إذا كانت قوية لتقف في وجهه وتحول دونه وما يريد.

لكن العبرة في السُّبل والبرامج التي من شأنها أن تساعد على ترسيخ القيم وتجذيرها، وهنا بيت القصيد، فنحن ندعو الآخرين إلى الإلتزام بالفضيلة، وقد لا نلتزم بها مما يفقد سعينا التأثير المطلوب والمرتجى، القيم لا تنشر بالتعليم ولا بالمحاضرات، وإنما تحتاج إلى عمل دؤوب وتربية مبكرة ومتواصلة ومستمرة.

أحياناً ندرّب أبناءنا على الكذب من حيث لا نقصد، وذلك عندما يسمعوننا نكذب عليهم أو على الآخرين، وندرّبهم على عدم احترام حقوق الآخرين من خلال تجاوزاتنا للحقوق المادية والمعنوية.

وفي المقابل، ندرّب أبناءنا على حفظ النظام عندما يرون ذلك منا بشكل دائم وثابت وفي أصعب الظروف، وندرّبهم على الصدق عندما نمتنع عن الكذب في أحرج المواقف، وندرّبهم على احترام الكبير والعطف على الصغير ومساعدة ذوي الحاجات والوفاء بالوعد والاعتراف بالجميل و.....إلخ من خلال سلوكنا وممارساتنا بشرط أن تكون دائمة ومستمرة وفي السرّاء والضرّاء.

ولذلك ورد الحث على الدعوة إلى الله من خلال العمل والسلوك «كونوا

دعاة للناس بغير ألسنتكم»، «وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه». فتأثير السيرة والسلوك العملي كبير جداً لأنه يقدّم المثال الحسن والقدوة، ولذا بعث الله الأنبياء والرسل إلى الناس ولم يكتف بإنزال الكتب والاعتماد على العقل، لأن النبي يمثّل القدوة والأسوة، ولأنه يثبت للناس الإمكانية العملية لتطبيق كل توجيهات الشريعة وقيمها وأخلاقياتها من خلال المثال الفعلي القائم.

وما ينبغي التأكيد عليه أن عملية التغيير تبدأ بفرد، وعليه، فليس مبرراً على الإطلاق أن ينتظر الشخص غيره، فلو توقف الإصلاح والتغيير على توفّر جماعة تلتزم بذلك لما أمكن الإنطلاق به على الإطلاق، لكن إذا بادر البعض أمكن توفير الجماعة وازداد بهم التأثير وتسارعت وتيرة الإصلاح والتغيير.

ثالثاً: معالجة الظواهر السلبية في المجتمع بالوسائل الإيجابية:

من المسلّم به أن المجتمع الملتزم والمتديّن لن يكون سدّاً منيعاً أمام حصول بعض الظواهر السلبية من الفساد الاجتماعي، ولذلك توضع عادة أنظمة العقوبات، إلا أنه من الضروري اعتماد وسائل العلاج الجذري للظواهر وذلك عبر دراسة الأسباب والدوافع ومعالجتها، وعدم الاتكال على أجهزة القضاء والرقابة.

فالقضاة عندما يعالجون أي مشكلة فهم يتناولونها من الزاوية الجزائية بقطع النظر عن الآثار الاجتماعية والأبعاد الإنسانية التي ترافق الأحكام، وهو أمر على أهميته لا يكفي لمن يريد أن يعالج المفاسد ويجتثها من جذورها، مما يفرض على التربويين والمعالجين الاجتماعيين والمبلّغين أن

يضعوا برامج خاصة لكل حالات التورط لإنقاذها والحيلولة دون انتشار العدوى إلى غيرهم من عناصر المجتمع.

رابعاً: يعتمد الإسلام بعض الإجراءات الوقائية، التي تحول دون حصول المشكلة، وهي إجراءات تنطلق من ضرورة توخي الحذر عندما يكون هناك أي خطر محتمل، من قبيل الحدّ من الاختلاط، والفصل بين الأطفال في المضاجع عند عمر العشر سنوات فصاعداً، وإزالة عوامل الإثارة الجنسية، واعتماد وسائل أمينة للحيلولة دون قيام من تسول له نفسه بما يريد من تعدي على الحقوق، كما في الحث على كتابة العقود والديون والإشهاد وأخذ الرهان وغير ذلك من إجراءات تقلّل من فرص التجاوز. فالمثل السائد يقول: «المال السائب يعلّم الناس على السرقة»، وهذا باب واسع جداً، فلعل الكثير الكثير من حالات الخلاف المالية والتجارية وما يحصل بين الشركاء سببه عدم الوضوح في تفاصيل العقود والاتفاقات أو عدم توثيق ما اتفق عليه، مما يفتح الباب أمام الشيطان وما تسوّل به النفس الأمّارة بالسوء.

■ ■ ■

المرأة

ومسؤولية التربية

دور المرأة في تحقيق حلم الأنبياء

تتفاوت النظرة تجاه المرأة بين من لا يرى فيها إلاّ أنوثتها ومفاتنها الجسدية وما يستلزم ذلك من طريقة في التعامل معها، ومكانة يضعها فيها، وبين من يرى فيها الروح قبل الجسد، والإنسانية بما لها من معانٍ سامية، فيعطيها على ضوء ذلك المرتبة المناسبة والمكانة والتقدير اللازمين.

وفي عصر تفشت فيه ثقافة الانحلال والتهتك، وسعت فيه قوى الفساد والإفساد للإطاحة بقدسية المرأة وطهرها فدفعتها للاهتمام المبالغ فيه بجسدها وجماله وأنوثتها على حساب إنسانيتها، وحولتها إلى عارضة أزياء ولوحة اعلان ووسيلة ترويج وبائعة لذة لمن يطلب ومن لا يطلب، فأهدرت كل ما لديها من حياء، وأسقطتها في مستنقع الهوى والعبثية.

في مثل هذا العصر تبرز أهمية العمل على إعادة هذه المرأة إلى مكانتها وتحصينها من الأخطار المُحدقة بها، كيف لا وهي التي تتشكل منها أول نواة وأول مؤسسة من مؤسسات المجتمع، وهي الحضن الذي يتربّى فيه العظماء وهي أول معلمةٍ تغذي وليدها مع اللبن من روحها وأخلاقها وقيمها، هذه الوظيفة، وهذه المسؤولية التي لا ينبغي لأي إنسان أن يستهين بها أو يقلل من أهميتها وخطورتها، تنعكس بشكل مباشر على صورة المجتمع الذي يتكون من أفراد تربوا في هذه المدرسة وتخرجوا من هذه المؤسسة، ومهما امتلكنا بعد ذلك من معاهد ومدارس وجامعات فإنها لا

تغني ولا تعوض عن الدور الخطير للأسرة ومؤسستها التي تقوم على أكتاف المرأة بالدرجة الأولى وفي هذا الجانب بالذات، لأن الذين يُؤسسون ويُديرون ويخططون ويعملون بعد ذلك هم من خريجي مدرسة المرأة وفيهم نمت البذور التي زرعتها ورعتها وروتها.

هذا الأمر يفرض الانطلاق في الاصلاح من نقطة البداية، والإهتمام بإعدادها وتأهيلها للقيام بوظيفتها الخطيرة والعمل على تخليصها من كل فكرة أو ثقافة أو سجية خلقية تعكّر صفاء روحها وتشوه وجهتها ومسيرتها وتدنس قدسها وطهرها.

ولا بد من التأكيد على أنَّ كلاًّ من المرأة والرجل على حد سواء يضطلع بمسؤولياتٍ جسيمة تخصه ويقوم بوظيفة وبدور يرتبط به من أجل بناء المجتمع في كافة مجالاته وأبعاده، ورسم معالم ثقافته وفكره ونظامه وإدارته وقيمه وأخلاقه وقدرته وتماسكه وحيويته وأصالته.. الخ.

وإذا كنا نتحدث عن المرأة فلأنها الدائرة الأخطر والتي يُسلط عليها الضوء باستمرار، ويدور حولها البحث وتتفاوت النظرات إلى حد التناقض.

والمناسبة لعلها انطلقت في السياق ذاته الذي جعل من موضوعها يفرض نفسه، ونحن هنا لا بد لنا من الالتزام ضمن حدود ما نستخلصه من نظرة الإسلام للمرأة ولدورها، خاصة في مجال مساهمتها في السعي لتحقيق حلم الأنبياء وفي العمل من أجل إقامة دولة العدل العالمية، وذلك عبر المشاركة ببناء مجتمع التمهيد لظهور صاحب العصر والزمان، وما بعد الظهور، وإذا كان للمرأة حضورها وتأثيرها في البناء الاجتماعي بشكل عام، فلن يقتصر ذلك على عصر دون عصر، ولا على بلد دون آخر، ولا على ظرف معيّن دون غيره، بل هي هي في كل عصر وفي كل مصر تلعب الدور نفسه وتتحمل المسؤولية ذاتها.

وليس من الصواب الوقوع في أسر الامكانيات الظرفية التي جعلت المرأة في بعض الأحقاب تبرز في مجال دون آخر أو تعجز عن أداء دور فاعل في حقل دون آخر، بل ينبغي النظر إلى طاقاتها الكامنة وإمكانياتها الذاتية التي يُمكن لها أن تفجرها إذا اتيحت لها الفرصة ونالت حظها من الإعداد الصحيح والتأهيل السليم، ليكون ذلك دافعاً للعمل على استكمال الوسائل والأدوات وامتلاك الخبرة والمؤهلات كما في كل مجال من مجالات العمل والإدارة.

وإذا كنا بحاجة إلى أنموذج عملي معاصر، فلسنا بعيدين عن تجربة الثورة الإسلامية في إيران التي فجرها الإمام روح اللّٰه الخميني (قدس سره) بوحي من الرؤية الإسلامية واعتماداً على القواعد الفقهية، استطاعت من خلالها المرأة أن تحتل مكانتها الفاعلة والمؤثرة ودورها في إنجاح الثورة وحفظها على مدى العقدين الماضيين، رغم كل التحديات والصعوبات والمؤامرات، وحافظت دائماً فيها على هويتها وخصائصها وكمالاتها الروحية، التي حاول الكثيرون أن يثبتوا لنا أنها لا تتلاءم مع المرأة المعاصرة، وأنها أقرب إلى المرأة في دائرة المهام الأسرية دون المهام الإدارية والسياسية والاجتماعية، فجاءت التجربة الإيرانية لتثبت أنها قادرة على المواءمة الكاملة بين ما يُريده الإسلام من المرأة على مستوى الالتزامات الخاصة وبين أي دور اجتماعي أو فكري تريد القيام به وفي مختلف الميادين العلمية والسياسية والإدارية وفي كل مكان في الجامعة والبيت والشارع وحتى في المحافل الدولية والدبلوماسية.

هذه التجربة تساعدنا أكثر على استشراف معالم الدور الذي ستقوم به المرأة في حركة التمهيد لظهور صاحب العصر والزمان المهدي المنتظر (عجل الله فرجه) وفي إقامة دولته، وإذا كنا لا نمتلك في هذا المجال من

النصوص ما يثري بحثنا وما يكفي لتحديد معالم الدور، إلا أن المسار الطبيعي لحركة التاريخ والسنن الإلهية الجارية في الخلق، ومقتضى أحكام الشريعة الإسلامية التي توزع المسؤوليات والواجبات على جميع شرائح الأمة وأفرادها حسب القدرات والامكانيات التي تتوفر أو التي يُمكن توفيرها، كل ذلك يفرض أن لا يعفى أحدٌ من الناس، من ذكر أو أنثى، كبير أو صغير، عالم أو متعلم، غني أو فقير، قوي أو ضعيف، لأي فئة انتمى ولأي شريحة انتسب من المشاركة في بناء المجتمع والدولة وفي حركة الاصلاح ومواجهة التحديات وإزالة العقبات وتوفير شروط الفوز والصلاح والنجاح لأمته من موقعه ومن خندقه الذي يقوم فيه.

وإذا كان هناك من ضرورة تستوجب توزيع الأدوار وتقاسم المهام كما هو معلوم فلا ينبغي أن ننظر إلى أي دور مهما كان صغيراً أو كبيراً ومهما كان موقعه وكانت أهميته، بعين الاستهانة والاستصغار، لأن الجزء مهما صغر فهو جزء لا يكتمل الكل إلا به، ولا يتحقق المطلوب إلا بانضمامه إلى بقية الأجزاء.

من هنا كان تركيز الإمام الخميني (قدس سره) على أهمية حضور المرأة في مختلف ميادين الثورة، ولم يترك فرصة إلا وتحدث فيها عن ذلك، يقول (قدس سره) في الأيام الأوائل لانتصار الثورة المباركة:

«يتيح الإسلام الفرصة للمرأة مثلما الرجل لممارسة دورها في جميع المجالات. وينبغي لأبناء الشعب جميعاً سواء النساء أو الرجال، العمل على إعمار هذا البلد وإصلاح الدمار الذي خلفوه لنا.. لا يُمكن إعمار إيران بيد الرجل وحده، بل إن الرجل والمرأة مطالبان بالعمل معاً على إعادة بناء البلد» (٦ ـ ٣ ـ ١٩٧٩).

وكما كان للسيدة الزهراء عليها السلام ولابنتها العقيلة زينب حضور

فاعل ومؤثر في ميدان السياسة والدفاع والمواجهة عندما استدعى الأمر ذلك، فكذلك كل النساء اللواتي يتخذن من الزهراء وزينب عليها السلام قدوة ومثالاً لهن.

نعم لا ينبغي لأحد من أفراد المجتمع أن يتخلى عن المسؤوليات الخاصة المناطة به ويضحّي بها ليؤدي دوراً في مجال آخر قد لا يكون متعيناً عليه، بل يجب دائماً دراسة الأولويات ومعرفة السلّم التراتبي للمسؤوليات، فلا يجوز بحال من الأحوال أن تسعى المرأة للقيام بدور إصلاحي تجاه جيرانها على حساب صلاح بيتها وأبنائها، بل الواجب هو الجمع بين ذلك إن أمكن وإلاّ فترتب المسؤوليات بحسب الأولوية التي تفرض تعيّن إصلاح الأبناء عليها، ثم الانتقال إلى الآخرين حسبما تفرضه الشريعة والترتيب المنطقي.

ولا شك أن الانتظار والتمهيد لنهضة صاحب العصر (عج) يتطلب الكثير من العمل المخطط والمدروس والهادف والمنهجي، والذي تساهم فيه المرأة مساهمة مباشرة، مما يفرض عليها أن تمتلك الوعي والرؤية الواضحة والمنهج العلمي السليم، ويفرض عليها التخلي عن الراحة والاسترخاء والاعتزال، لتدخل الساحة من بابها الواسع، ليس من أجل الصراع على الامتيازات كما عوّدنا ساسة هذا العصر بل من أجل التسابق على أداء التكليف والقيام بالواجب وتحصيل شرف التمهيد وتشكيل مجتمع الولاء والانتظار، ووضع اللبنات الأولى لصرح دولة الحق والعدل العالمية التي سيعم خيرها كامل المعمورة بقيادة الإمام الحجة المهدي عليه السلام.

وما يُمكن للمرأة أن تقوم به في هذا السبيل كبير وكثير، قد لا يقف عند حدود العلم والتعليم والتربية والاصلاح، وإن كان لهذا التكليف قدر كبير من الأهمية في التأسيس لمجتمع الصلاح، إلاّ أننا يوماً بعد يوم نقترب من

نمط من المواجهات لا يعتمد على السيف كوسيلة للحرب، فبعد أن ظهر الكثير من الوسائل والأدوات الحديثة للمواجهة والأساليب الخفية للحرب، كالاعلام والحرب النفسية والحرب الاقتصادية والحرب الثقافية وعالم الاتصالات الرهيب الذي سُخّر لخدمة تلك الحروب، يبدو أن الدور الذي صار بالإمكان أن يؤديه الناس أكثر سعة وشمولية وبات لكل واحد منا موقعه المناسب وخندقه الخاص الذي يستطيع من خلاله أن يرابط في وجه العدو، ويدافع عن الدين وصلاح المجتمع.

ومما يشير إلى اضطلاع المرأة في آخر الزمان بمسؤولياتها ومواكبتها للتطور العلمي والعملي ما ورد في حديث عن حمران بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام أنه تحدث عن المهدي عليه السلام فقال فيما قال: «وتُؤتون الحكمة في زمانه، حتى إن المرأة لتقضي في بيتها بكتاب اللَّه وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله».

■ ■ ■

دور الأم في بناء أسرتها ومجتمعها

○ الكيان الأسري من آيات عظمة الخالق:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

الرابطة الزوجية والتكامل الدقيق بين الزوجين بما يتفرع عنه من تشكيل المنظومة الأسرية، كخلية في بناء المجتمع الكبير، وكحلقة من الحلقات الضامنة لاستمرار النوع البشري، ولتوفير البيئة السليمة الحاضنة للنسل المتجدّد، ما يؤمّن له النشأة المناسبة للوصول إلى غايات الخلق وأهداف الحياة، هذه الرابطة آية من آيات الله، تدلّ على عظيم قدرته وحكمته وجمال صنعه وتدبيره.

المرأة ركنٌ أساس في هذه المنظومة، ومن المؤكّد أنّها تضطلع بدورٍ فاعلٍ ومؤثرٍ في تحقيق أهدافها، هذا الدور ليس دوراً ثانوياً بلا شكّ، ولكنّه دورٌ خطيرٌ وحسّاس وضروريّ، وهو جزء من الدور العام المنوط بالإنسان، الذي خلقه الله سبحانه من ذكر وأنثى، واستخلفه في الأرض، ومكّنه من التصرّف فيها، وأعطاه من الإمكانات والقدرات ما يعينه على القيام بالدور المطلوب منه.

بداية الخلل عندما يفقد الإنسان البوصلة، ويُضيّع الاتجاه الصحيح الذي أراده البارئ له، وخلقه من أجله، ورسم له الطريق المؤدي إليه، عبر

الرسول الباطني أولاً أي العقل، وعبر الرُّسل الظاهريين الذين بعثهم لهداية البشر، وأنزل معهم الكتب والموازين.

○ تنوّع الأدوار ووحدة الهدف:

الأدوار المُوكلة للإنسان متعدّدة ومتنوعة، وتوزيعها يخضع لعدّة اعتبارات، ترتبط ارتباطاً مباشراً بالاستعدادات والإمكانات المتوفرة، وترتبط أيضاً بالتكامل الذي يفرض توزيعاً يحقّق ذلك كما في أي منظومة عملية في حياتنا.

من الخطأ أن نتوهّم وجود تعارض على مستوى الأهداف بين الزوجين، إلا إذا أضعنا الاتجاه، واستعرنا أهدافاً أجنبيّةً عن الواقع الذي أراده الله لنا. فعندما يدخل أحدنا إلى عشّ الزوجية مُدركاً تماماً أهداف الخلقة ومعنى العبودية لله عزّ وجل والدور المنوط به لتحقيق تلك الأهداف لن يجد أيّ تعارض مع أهداف الشريك الآخر، وستتحول الأدوار بتنوّعها إلى منظومة رائعة في غاية الدقة والتكامل.

○ دور المرأة في أسرتها ومجتمعها:

تقوم المرأة بدور احتضاني مهمّ وضروري داخل الأسرة، له صور متعدّدة:

١ ـ الدور الإنجابي، الذي هو سلسلة عمليات احتضانيّة في مراحل التخلّق، تنطلق من احتضان النطفة والمضغة والعلقة ومراحل تخلّق الجنين داخل الأحشاء تنتهي بالوضع، ثم تنتقل إلى الاحتضان الخارجي للوليد في مراحل نموّه وتغذيته ورعايته وحياطته وحفظه، هذا الدور تقوم به المرأة بحكم استعداداتها الجسدية والوظيفيّة لأعضائها، وبحكم الدافع الغريزي

والعاطفي والنفسي الذي تجده في أصل خلقتها التي برأها الله عليها، وليس هذا محلّ بحثنا وكلامنا هنا، لأنّه دورٌ لا يُمكن للمرأة أن تغفل عنه أو تتنكّر له، بل هي تعتزّ به وتسعى إليه بإرادتها واختيارها.

٢ ـ من الأدوار الاحتضانية الأخرى ما يرتبط بالجانب الروحي والبناء النفسي والتربوي للأبناء الذين يتمّ إنجابهم واحتضانهم، وهذا الدور له من الأهميّة والخطورة ما يتجاوز الدور السابق، لأنّ الأول يرتبط بالجانب الوجودي والمادي للإنسان، والثاني يرتبط بالجانب الروحي والنفسي له، وهذا الجانب له أثرٌ مباشرٌ في تحديد الاتجاه المستقبلي والمسار العملي للإنسان، فهو يرتبط بإنسانية الإنسان، وهو الذي يُعطي القيمة الحقيقية لحياة الإنسان وحركته ويحدّد له مصيره الذي سوف ينتهي إليه.

هذا الدور يدخل في صلب التكاليف الشرعية التي تتعلق بالمرأة بحكم كونها إنساناً قبل أن تكون أمّاً، ولكونها الأقدر على القيام به نتيجة الموقع والتعلق المتبادل بينها وبين أبنائها، ولأنّ هذا الدور يبدأ مبكراً مع أول مراحل التكون الجنيني، بل في المقدّمات التي تسبق التكوّن، ولا ينتهي عند حدود الوضع أو عند انتهاء مرحلة الرضاع، بل هو مستمر باستمرار الرابطة والعلاقة والتأثير.

○ بين الدور التربوي في الأسرة والدور الاجتماعي:

لا نريد من خلال العرض السابق أن نُنفي عن المرأة دورها الإنساني خارج أسرتها، وإنما نريد أن نركّز على أولوية هذا الدور الذي يتعذر غالباً على غيرها القيام به. وليس هناك من مانع للقيام بأدوار متعدّدة عندما تتوفر الفرصة والإمكانيات ولا يكون هناك تعارض أوتزاحم بين الأدوار.

○ الدور التربوي والاستعداد له:

الغفلة عن هذا الدور تؤدي إلى إهمال الاستعداد له، فنجد المرأة التي تُريد الإنجاب، أو عندما تجد نفسها في حالة الحمل، تسعى بوسائل عدة وطرق متنوعة للتعرف على أسرار الحمل والإنجاب، وصحة الجنين والرضيع، وأساليب العناية به وما شابه، وذلك عبر المطالعة والاستشارة والاستماع إلى البرامج المناسبة.

ولكن لا نجد درجة الاهتمام عينها في البحث عن أسرار الجانب الروحي للإنسان والاتجاه التربوي السليم والصحة النفسية والروحية، وهذا يكشف عن غفلة كبيرة عن دور أساسيّ منوط بالأم.

ولاحقاً عندما يصل الطفل إلى سنّ المدرسة، ليس من الصحيح الاعتقاد بأنّ مسؤولية الأم التربوية انتهت عند هذه المرحلة، فهي تبقى المربّية الأولى والمسؤولة قبل المدرسة ومع المدرسة وبعدها، عن بناء الإنسان، وإكسابه الحصانة الدينية والروحيّة والعاطفيّة، التي تقيه من الانحراف، وتمكّنه من مواصلة الطريق، ليقوم بدوره الإنساني بنجاح، ولتتواصل حلقات الحياة من أسرة سليمة إلى أسرة سليمة أخرى.

وهذا يتطلب من المرأة أن تعمل على امتلاك المعارف المناسبة، والمهارات والاستعدادات التي تساعدها على القيام بتكليفها على أكمل وجه.

○ السعادة الحقيقية:

ليست السعادة في توفّر المال الكثير ووسائل الرفاهية في العيش كما يتوهم الكثير من الناس، بل السعادة في أن يوفّق الإنسان للوصول إلى أهدافه بنجاح، وأن يرتقي في مدارج الكمال والطهر والصفاء الروحي،

فالمؤمن الذي يدرك أنّه مخلوق للآخرة، وأنّ الدنيا هي مزرعة الآخرة [الأحسائي، عوالي اللآلي، ١/ ٢٦٧]، سعادته أن يوفّق لتقديم ما ينفعه في آخرته، واستثمار الفرصة والعمر في طاعة الله تعالى قبل حلول أجله، وقبل أن تحين ساعة الرحيل عن هذه الدنيا، وعلى هذا الأساس إذا تمكّن الإنسان من إنجاب الأبناء وتربيتهم تربية إيمانية صالحة فهم من أفضل ما يدخره لآخرته. فالسعادة الأسرية أن ننجح في تشكيل أسرة تعمر بالإيمان وتعرف دورها ويُوفّق أعضاؤها للقيام بهذا الدور، وأن نرى أبناءنا على خط طاعة الله.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال:

«من سعادة المرء الزوجة الصالحة» [الكليني، الكافي، ٥/ ٣٢٧]، و«من سعادة الرجل الولد الصالح» [الكليني، الكافي، ٦/ ٣]، وهناك علاقة وثيقة بين صلاح الزوجة وصلاح الولد بلا شك.

○ كيف تؤدي المرأة الدور التربوي بشكل فاعل:

١ ـ أن تعمل على إصلاح سريرتها وأخلاقها وسائر أفعالها وأقوالها، وهذا الأمر مطلوب من المرأة بقطع النظر عن دورها التربوي، إلا أنه يصبح له أهميّة فائقة عند القيام بمسؤولياتها التربوية، لأنّ الإناء ينضح بما فيه، وفاقد الشيء لا يعطيه، والأم تمثّل بالنسبة لأبنائها قدوة وأنموذجاً مؤثراً، فصفاتها الشخصية وأخلاقها وطريقة تصرّفها وأقوالها كلّها تشكّل مدخلات مؤثرة جداً في العملية التربوية، سواء قصدت ذلك أم لم تقصد، فهي تزرع في أبنائها الصدق والوفاء والطهر والعفاف والإخلاص وحب الخير وصلاح الذات وكرم النفس ما شابه من الصفات الحميدة مع الدم الذي يجري من عروقها إلى عروق جنينها، ومع اللبن الذي ترضعه إياه، ومع كل نظرة من

عيونها ورنة صوتها وخلجات قلبها وانفعالات وجهها، وهي لغة يفهمها الطفل قبل أن يتعلم اللغة المحكية، وفي قبال ذلك يُمكن أن تزرع فيه من الصفات السيئة لا سمح الله التي ينطوي عليها قلبها وتنطبع عليها نفسها فينشأ عليها وتظهر في سلوكه مواقفه فنتعجب من ذلك ونحن الذين طبعناه عليها وزرعناها فيه.

٢ ـ القيام بالآداب والمستحبات المنصوص عليها في المراحل التي تسبق الحمل وانعقاد النطفة وأثناءها وبعدها، لما لكلّ ذلك من تأثير على سلامة البيئة الحاضنة من الناحية الروحية والنفسية، ومن المؤكد أن العبادات والمستحبات تشكل منظومة تربوية عظيمة صيغت بطريقة عبادية، ومن المؤكد أيضاً أنّ الأثر الحاصل على النفس نتيجة المواظبة على الطهارات الواجبة والمستحبة، ونتيجة التغذي بالطعام الزكي الحلال، ونتيجة القيام بالعبادات الواجبة والمستحبة وتلاوة القرآن.. ينتقل أثرها إلى الحمل وإلى الوليد عبر الرضاع.

٣ ـ تربية الطفل على القيم والأخلاق الإسلامية، بالأساليب والوسائل التربوية المناسبة التي تُؤصل فيه القيمة وتجعلها جزءاً من ملكاته الثابتة، وهذا الأمر متاح للأسرة إذا أدركت بوقت مبكر كيفية زرع القيم بالطريقة الأجدى والأفعل من خلال سلوك الأبوين أولاً، والتوجيه اللطيف ثانياً، ومن خلال القصّة المعبّرة والصورة والنشاط وأمثال ذلك.

٤ ـ تنمية الحسّ الديني الذي فُطر عليه الإنسان، وتوثيق العلاقة مع الله سبحانه وتعالى، وهذا يتحقق بوسائل كثيرة، ألا ترى استحباب الأذان في الأذن اليمنى للوليد والإقامة في الأذن اليسرى، وهي خطوة تربوية مبكرة جداً تجعله يأنس بسماع ذكر الله قبل اشغال سمعه بشيء آخر، ومن المحال أن لا يكون لهذا المستحب أثر على الوليد، ومثله استحباب إسماعه التلاوة

الحسنة لكتاب الله، وتلقينه كلمة التوحيد والصلاة على النبي ﷺ في وقت مبكر عندما يتكلم، وأمثال ذلك من أمور تساهم في تنمية الحسّ الديني، ويأتي في هذا السياق ربط الحاجات وقضائها بالله تعالى من خلال التسمية قبل الطعام والحمد بعده، والشكر على النعمة، والدعاء في طلب الحاجة، وما شابه.

٥ ـ الالتفات إلى أهمية التربية بالعمل والسلوك، قبل التربية بالقول والتوجيه المباشر، فقد ورد في حث الأبوين على الوفاء بالوعد «إذا ودعتم الصبيان ففوا لهم»، فالصدق والوفاء واللطف والرحمة والعدل والإنصاف وطيب الكلام والكرم وحُسن الجوار والأمانة واحترام الناس ومساعدة المحتاج وإعانة الضعيف وغير ذلك من السجايا يتشربها الطفل من سلوك أبويه دونما حاجة إلى تعليم أو توجيه مباشر وكذلك الصفات المعاكسة والسجايا المضادة.

٦ ـ ينبغي الإلتفات جيداً إلى أهمية التربية من خلال الأنموذج، الصورة التي تتكرر رؤيتها، واللعبة، والملابس التي نختارها له، قصة الشعر، وما نوليه الإهتمام من شخصيات في الخارج أو على التلفاز وغير ذلك، فهذا بنفسه يساهم في تركيز الأنموذج لدى الطفل، إن لجوء العديد من النساء المتدينات إلى اختيار ملابس لفتياتهن الصغيرات وفق الأنموذج الخلاعي هو عمل تربوي خاطئ يطبّع الأنموذج الغريب، ويساهم في رسم معايير خاطئة للكمال والجمال، كما أن السماح للفتيات باخيار لعبة معينة والقبول بأن نشتري أدوات مدرسية (دفتر، محفظة، مقلمة، مسطرة...) عليها صورة هذه اللعبة، أو نضعها كلاصق، يؤدي إلى النمذجة الخاطئة أيضاً ويرسم معايير للجمال صمّمها الآخرون لأطفالنا على حين غفلة منا. فهل نصحو من هذه الغفلة قبل فوات الأوان؟!

٧ ـ من الضروري جداً أن نبحث عن المباني التربوية القائمة على التوحيد والعدل والإيمان بالحشر والحساب، ونركز على القضايا المفتاحية التي تشكل مدخلاً لفروع تربوية ومواقف سلوكية عديدة، فالحرية مثلاً التي يجب أن نربي أبناءنا عليها ليست حرية الفكر المادي، بل هي حرية المؤمن بالله وبأنه الخالق لكل شيء والمالك لكل شيء، فهي حرية العبد المملوك في مملكة الله، المقر بالعبودية لمولاه الحقيقي، والذي لا يسمح لغير الله تعالى أن يكون له سيداً وآمراً وناهياً.

نعم يُمكن للمرأة أن تكون صانعة الرجال، بل هي كذلك، فبصماتها موجودة حيثما نظرنا في عالمنا، في مختلف المجتمعات، وحيث الصلاح أو الفساد والإنحلال. فما هو موجود ساهمت بشكل أساس في صنعه، جمالاً أو قبحاً صلاحاً أو فساداً. وما أجمل ما عبر عنه الشاعر أحمد شوقي:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وأخيراً، يجدر بنا التأكيد على أنّ النجاح في تربية إنسان صالح وبناء شخصيّة متوازنة لإنسان مؤمن، مجاهد، عابد لله، يخاف منه، ويعمل في سبيله، من أفضل ما يُمكن أن يقدّمه الأبوان لآخرتهما، وهو أفضل من الدنيا وما فيها.

وأختم بالرواية التي وردت في مصباح الشريعة أنّ رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: «لئن يهدِ الله بك عبداً من عباده خير لك مما طلعت عليه الشمس من مشارقها إلى مغاربها» [النوري، مستدرك وسائل الشيعة، ١٢/ ٢٤١].

أليست التربية الصالحة من أوضح مصاديق الهداية والتوفيق والسداد؟!.

■ ■ ■

نظرة الإسلام إلى عمل الزوجة
بين واجبات الزوجة ومُتطلبات المعيشة(*)

○ مقدمات تأسيسيّة:

أولاً: عند السعي لمعرفة رؤية الدين الإسلامي والشرع الحنيف في مسألة من المسائل المرتبطة بالنظام الاجتماعي أو الإقتصادي أو الأسري، من الضروري تناول الموضوع بكامله ومن مختلف جوانبه دون اجتزاء، لأن لحظ الجزء منفصلاً عن النظام الكلي ومستقلاً عن الأجزاء الأخرى قد لا يعطي الصورة الصحيحة والجليّة، أو على الأقل قد لا تبدو الأمور واضحة خاصة لجهة حكمة التشريع والمبررات والدوافع.

هذا ما يقع فيه الباحث عن فلسفة المنع من التعامل الربوي بعيداً عن المنظومة المالية والإقتصادية وبعيداً عن المنظومة الأخلاقية ونظرة الإسلام للإنسان ودورة المال في المجتمع.

وعندما نتناول موضوع الإرث وتوزيع السهام منفصلاً عن بقية أحكام الأسرة وتوزيع المسؤوليات فيها.

ثانياً: عند تناول البحث في الحقوق لا ينبغي إغفال الواجبات التي

(*) محاضرة أُلقيت في ندوة نظمها مركز الامام الخميني في صور يوم الاربعاء ١٣/٧/٢٠١١م.

تقابلها ، نحن نشهد اليوم الكثير من الإهتمام بصياغة شرعة حقوق عالميّة (حقوق الإنسان، حقوق المرأة، حقوق العامل..) وهو مهمّ ومطلوب، ولكن في قبال هذه الحقوق هناك واجبات، ليس من الصواب السير على عجلة واحدة، وتسليط الضوء وتركيز الأذهان على بُعدٍ واحدٍ من أبعاد القضيّة وإهمال الأبعاد الأخرى. فكلّ حقّ يفرض مسؤوليّة، وكل واجب يرتّب حقاً. وهكذا..

ثالثاً: ربما لا نبالغ إذا قلنا أنّ الأعم الأغلب من الناس رجالاً ونساءً يدخلون إلى الرابطة الزوجيّة استجابة لنداء الغريزة وإشباعاً للحاجات الجسدية أو العاطفية أو النفسيّة لديهم، ولكن البارئ الحكيم الذي خلق الإنسان وأودع فيه هذا الشعور وهذه الحاجة أراد للإنسان أن يستجيب غريزياً لما يحقّق بقاء النوع واستمرار الحياة وما يوفر الحماية والبيئة الحاضنة للطفل في مرحلة الضعف والحاجة، دون أن يتوقف الأمر على إدراك كامل لفلسفة الخلق وأهمية العمل بما يضمن استمرار النسل.

فالحياة الزوجيّة كما هي مدخل للسكينة والمودّة التي هي حاجة ذاتية لكل واحد من طرفي العلاقة الزوجية والرابطة العاطفية، كذلك هي طريق طبيعي ومشروع لزيادة النسل واستمرار النوع البشري.

وعندما يحرص الزوجان على الإنجاب فكثيراً ما يأتي ذلك أيضاً إرضاءً لغريزة الأمومة وللرغبة بالأبوة والشعور بأنّ الولد يمثل نوعاً من البقاء والإستمرار والامتداد.

مع أنّ الإنجاب بداية الطريق نحو الكثير من المسؤوليات التي يتحمّلها الأبوين عن وعي أو عن غير وعي، وعن إدراك مسبق لخطورتها أو من غير إدراك.

رابعاً: العمل هل هو مجرد وسيلة لكسب المال وتأمين أسباب العيش؟

أم أنه مساهمة في خدمة المجتمع وتأمين حاجاته عبر تكامل الأدوار وتقاسم المسؤوليات؟

أوتفعيل للطاقات الكامنة في الإنسان بما يحقق جانباً من إثبات ذاته كما يعبر أحياناً؟

العمل هو كل ما تقدم.. فلا ينبغي للإنسان أن يترك العمل المفيد والنافع والمساهم في الدورة الاجتماعية والاقتصادية للبلد حتى إذا كان لديه من المال ما يكفيه ويكفي عائلته لعشرات بل لمئات السنين.

روي عَنْ أَبِي عَبْدِاللهِ الصادق عليه السلام أنه قَالَ: «تَرْكُ التِّجَارَةِ يَنْقُصُ الْعَقْلَ».

وعنه أيضاً: «التِّجَارَةُ تَزِيدُ فِي الْعَقْلِ».

وروي عَنْ مُعَاذٍ بَيَّاعِ الأَكْسِيَةِ قَالَ: قَالَ لِي أَبُو عَبْدِاللهِ عليه السلام يَا مُعَاذُ أَضَعُفْتَ عَنِ التِّجَارَةِ أَوْ زَهِدْتَ فِيهَا؟

قُلْتُ: مَا ضَعُفْتُ عَنْهَا وَمَا زَهِدْتُ فِيهَا.

قَالَ: فَمَا لَكَ؟

قُلْتُ: كُنَّا نَنْتَظِرُ أَمْراً ـ وَذَلِكَ حِينَ قُتِلَ الْوَلِيدُ ـ وَعِنْدِي مَالٌ كَثِيرٌ وَهُوَ فِي يَدِي وَلَيْسَ لأَحَدٍ عَلَيَّ شَيْءٌ وَلا أَرَانِي آكُلُهُ حَتَّى أَمُوتَ.

فَقَالَ: تَتْرُكُهَا؟! فَإِنَّ تَرْكَهَا مَذْهَبَةٌ لِلْعَقْلِ، اسْعَ عَلَى عِيَالِكَ وَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ هُمُ السُّعَاةَ عَلَيْكَ.

وروي عَنْ أَسْبَاطِ بْنِ سَالِمٍ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَسَأَلَنَا عَنْ عُمَرَ بْنِ مُسْلِمٍ مَا فَعَلَ؟ فَقُلْتُ: صَالِحٌ وَلَكِنَّهُ قَدْ تَرَكَ التِّجَارَةَ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام عَمَلُ الشَّيْطَانِ (ثَلاثاً) أَمَا عَلِمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله اشْتَرَى عِيراً أَتَتْ مِنَ الشَّامِ فَاسْتَفْضَلَ فِيهَا مَا قَضَى دَيْنَهُ وَقَسَمَ فِي قَرَابَتِهِ،

يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ.. إِلَى آخِرِ الآيَةِ. يَقُولُ الْقُصَّاصُ إِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَكُونُوا يَتَّجِرُونَ، كَذَبُوا وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَدَعُونَ الصَّلاةَ فِي مِيقَاتِهَا وَهُمْ أَفْضَلُ مِمَّنْ حَضَرَ الصَّلاةَ وَلَمْ يَتَّجِر.

وعَنِ الصَّادِقِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الشَّاخِصُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ الْحَلالِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ».

○ عمل الزوجة:

إن لم يكن للعمل قيمة غير تأمين أسباب المعيشة لنفسه وعائلته، فالرجل بنظر الإسلام هو المسؤول عن تأمين ذلك للعائلة، وهو المكلف بالإنفاق، هذا الأمر ربما دفع البعض للربط بين العمل وبين الرجل، حتى كاد يخصّص العمل به ويمنع المرأة منه، لأنّها غير مكلفة بالإنفاق إلا في ظروف استثنائية معروفة، مما يعني أن العمل حالة استثنائية، كما في حالات الطلاق والوفاة أو عجز الرجل كليّاً أو جزئيّاً عن توفير النفقة للعائلة...

ولكن علينا هنا أن نميّز بين الواجب وبين الحقّ، فالحقّ أمر ثابت للإنسان يستطيع أن يقوم به أو أن يتخلّى عنه بينما الواجب هو أمر ثابت عليه ومطالب به وعليه أن يؤديه، فالعمل من واجبات الرجل لتوفير الإنفاق على العائلة وهو غير واجب بالأصالة على المرأة من هذه الزاوية فقط، ولكن هذا لا يعني سلبها حقّها وسلب اختيارها في ذلك حتى إذا لم تكن بحاجة للإنفاق على نفسها وغيرها. هذا كله إذا لم نر في العمل إلا مجرد وسيلة للكسب ولتأمين أسباب العيش.

وأما إذا نظرنا إلى العمل من زاوية كونه لتفعيل الطاقات وخدمة المجتمع قبل أن يكون وسيلة من وسائل تأمين لقمة العيش، فالعمل قد

يصبح مسؤولية قبل أن يكون حقاً، ولا فرق من هذه الجهة بين الرجل والمرأة، فكلاهما يستطيع أن يخدم المجتمع ضمن الحدود والقدرات التي أولاه الله تعالى إياها، خاصة إذا تعيّن ولم يكن بامكان الغير أن يقوم به.

يقول الإمام الخامنئي دام ظله: «في ساحة النشاطات الاجتماعية والسياسية والعلمية وباقي النشاطات المتنوعة يحقّ للمرأة المسلمة ـ كما يحق للرجل المسلم ـ أن تقوم حسب مقتضى الزمان بملء الفراغ المحسوس وأداء المهام الملقاة على عاتقها...».

ويقول أيضاً دام ظله: «في ساحة النشاطات الاجتماعية التي تشمل النشاط الاقتصادي والسياسي والاجتماعي بمعناه الخاص والعلمي والدراسة والتدريس والكدح في سبيل الله والجهاد وجميع ساحات الحياة الاجتماعية.

في هذه الساحة أيضاً لا يوجد تفاوت بين الرجل والمرأة في مزاولة النشاطات المختلفة في شتى المجالات في نظر الإسلام. فمن يقول إن الرجل يمكنه أن يدرُس والمرأة لا يمكنها ذلك، والرجل يمكنه أن يدرّس والمرأة لا يمكنها ذلك، والرجل يمكنه أن يمارس نشاطاً اقتصادياً والمرأة لا يمكنها ذلك، والرجل يمكنه أن يمارس العمل السياسي والمرأة لا يمكنها ذلك؛ فإنه لا يتبنى المنطق الإسلامي، وكلامه مخالف لكلام الإسلام. فإن رأي الإسلام هو أن للرجل والمرأة أن يمارسا جميع النشاطات المتعلقة بالمجتمع البشري ونشاطات الحياة، وهما في ذلك سواسية».

وهناك الكثير من الأدلة الشرعية التي تؤكد ذلك، وقد أشار الإمام الخامنئي دام ظله إلى بعض هذه الأدلة في كلماته حيث قال: «الساحة مشرّعة أمام الرجال والنساء في المجتمع الإسلامي. والشاهد على ذلك

جميع الآثار الإسلامية الموجودة في هذه المجالات، وجميع التكاليف الإسلامية التي تجعل المرأة والرجل متساويين في مسؤولياتهما الاجتماعية. فإن الحديث القائل: «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم» لا يختصّ بالرجال، بل على النساء أيضاً أن يدركن مسؤولياتهنّ تجاه أمور المسلمين والمجتمع الإسلامي وأمور العالم الإسلامي وكل ما يجري في العالم، وأن يبدين اهتماماً بذلك، لأنه واجب إسلامي».

لكن يجب هنا النظر إلى المسألة من جميع الزوايا، فإذا تزاحمت المسؤوليات، ولم يكن بالإمكان الجمع بين ممارسة الحق بالعمل والكسب، وبين ممارسة الدور الواجب تجاه المجتمع وحاجاته، وبين الدور المطلوب لتربية الأبناء وضمان سلامتهم الروحية والفكرية والعاطفية والجسدية، فممّا لا شكّ فيه أنّ حقّ الأبناء هنا يتزاحم مع الحقوق الأخرى ويتقدّم عليها، وهو الأولى والأهمّ، لأن هذا متعيّن على الأبوين والأم ربما كانت الأقدر على القيام به لعدّة أسباب. فيصبح عندئذ أداء التكليف هناك يضيع التكليف هنا وممارسة الحق في مجال يضيع المسؤولية في مجال آخر، وهكذا..

سماحة القائد (دام ظله) يؤكد في مكان آخر على الدَّور المحوري والأساسي للمرأة داخل الأسرة قائلاً:

«إنّ من جملة مهام المرأة داخل البيت والأسرة تربية الأطفال، فإنّ النساء اللواتي يمتنعن عن إنجاب الأولاد من أجل عملهن خارج البيت، فإنهنّ يتصرّفن على خلاف طبيعتهن البشرية والنسوية. والله لا يرضى بذلك. إنّ اللواتي يتركن تربية الطفل وإرضاعه واحتضانه وبذل المحبّة والعطف له من أجل الأعمال التي لا تتوقف على وجودهن حصراً، إنَّهن يرتكبن خطأً..

إن أفضل أسلوب لتربية الطفل هو أن يترعرع في حضن والدته وينهل من محبتها وعطفها. والنساء اللواتي يحرمن أطفالهنَّ من هذه الموهبة الإلهية يرتكبن خطأ، ويلحقن الضرر بأطفالهنَّ وبأنفسهنَّ وبمجتمعهنَّ. والإسلام لا يسمح بذلك..

لذا فإن أحد المهمَّات الكبرى للمرأة أن تحنو على ابنها بالعاطفة والتربية الصحيحة وتعيره انتباهها ورعايتها الدقيقة لتجعل من ذلك الموجود الإنساني فتاة كانت أم صبياً تجعله عندما يكبر إنساناً سالماً روحياً، يخلو من العُقد والابتلاءات، لا يشعر بالمذلَّة، ولا يعاني من البؤس والقهر، كالذي تعاني منه الأجيال الشابة الغربية في أوروبا وأمريكا..».

واللافت أنّ سماحته يتحدث عن عدم الامتناع عن الإنجاب من أجل العمل فكيف بمن يترك الأطفال المُنجبين دون رعاية ويحرمهم من الحاجات العاطفية الضرورية إذ تزاحمت مع العمل.

○ المسؤولية التربوية الكبرى:

الأبوان معاً يتحملان المسؤوليّة الشرعية عن أبنائهما منذ اللحظة التي يخرج بها الأولاد إلى عالم الوجود، بل قبل ذلك عندما تبدأ الخطوات الأولى نحو تشكيل الأسرة، من الإختيار إلى الإرتباط إلى العلاقة والبيئة والعوامل العديدة الروحية والنفسية المؤثرة بمستويات مختلفة في تكوين شخصيّة الطفل ونفسيّته واستعداداته قبل ولادته وبعدها.

قد يكون من البديهي الاهتمام بصحة الجنين ونموه، وتعلم الأساليب الصحيحة في تغذيته وحمايته من المخاطر التي تتهدّد أمنه وسلامته الجسديّة، وطريقة الوقاية الصحّية، وقد يكون من الطبيعي أن يلجأ الأبوان إلى الطبيب إذا ظهرت علامات المرض، وقد يكون من نافلة القول أن يدرك

الأب مسؤوليته تجاه توفير أسباب المعيشة الكريمة لأبنائه. لكن هذا كله ليس إلاّ جانباً محدوداً من المسؤولية.

فإذا كانت غاية وجود الإنسان ترتبط بحياته الأخروية ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] فالمسؤولية التربوية يجب أن تنسجم مع الغايات الكبرى التي تؤسس لحياة دنيوية وأخروية سليمة وكريمة..

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

هذا الخطاب لايختص بالرجال الذين آمنوا بل هو عام يشمل الرجال والنساء كما هو معروف في سياق الخطابات القرآنية وكما هي اللغة العربية في مسألة التغليب.

المسؤولية التربوية إذن هي الأهم والأخطر، وهي تستلزم أن يعمد الجميع إلى اكتساب المعارف والمهارات والأساليب والطرق التي تمكن من التربية السليمة، وإعانة الطفل على سلوك الطريق الذي يوصله إلى طاعة الله والفوز برضوانه والابتعاد عن مخاطر الهلاك والعذاب.

○ آثار عمل المرأة خارج المنزل:

هنا سنتناول الموضوع بعيداً عن الخصائص الشخصية التي تدفع المرأة للعمل، فيمكن تقسيم أعمال المرأة خارج المنزل إلى قسمين:

١ ـ أعمال تحتاج إلى المرأة بالخصوص: كالطب ببعض فروعه أو المستهدفين فيه، والتعليم ضمن إطار المراحل أو الأقسام، فمثل هذه المرافق ينبغي للأمة أن تهيّئ لها طائفة من النساء تسدّ حاجة المجتمع وتقوم

بمتطلباته، وهنا الواجب الكفائي يفرض تصدي مجموعة من النساء لممارسة العمل في هذه الموارد بما يتحقق فيه الاكتفاء وسدّ النقص.

٢ ـ أعمال يُمكن أن يقوم بها الرجال، ولا تتوقف على النساء: كالزراعة والصناعة والتجارة، فهذه الأعمال يجوز أن تزاولها المرأة حسب ضرورتها ومقدرتها وإمكانيتها، ولكن بشروط سيأتي ذكرها لاحقاً.

○ الآثار الإيجابية:

بعيداً عن الأساليب الخطابية لتبرير عمل المرأة أو رفضه، ممّا لاشك فيه أنّ عمل المرأة بشكل عام والمتزوّجة بشكل خاص يترتب عليه مجموعة من الإيجابيات ومجموعة من السلبيات، إذا تمّ تسليط الضوء عليها بتجرد وبعيداً عن الموقف الارتجالي المسبق، فيمكن لنا وضع ضوابط وشروط للحد من السلبيات وتعزيز الايجابيات. أما الإيجابيات فأبرزها:

١ ـ الإنسان بشكل عام يمتلك طاقات عظيمة وإمكانات هائلة، والمرأة لا تشذّ عن هذا الأصل، فيمكن لهذه الطاقات أن تسهم في تعزيز مكانة المجتمع وبنائه وسدّ الكثير من الحاجات الضرورية فيه.

٢ ـ على مستوى الأسرة يُمكن لعمل المرأة أن يساهم في توفير متطلبات وحاجات الأسرة والأولاد وتحسين الأوضاع المعيشية لها، وإن لم يكن من تكليفها بالأساس القيام بذلك، فالتعاون والإيثار والتضحية من الجميع يزيد من الشعور بالمودّة ومن التماسك في الأسرة بلا شكّ، والمبادرة إلى العمل يشكل نوعاً من الإحساس بالمسؤوليّة.

٣ ـ عمل المرأة يوسّع آفاقها الذهنية، وينمّي مقوّمات شخصيّتها، وفيه معالجة لمشكلة وقت الفراغ لديها، وهو وقت يُمكن أن يهدر أو يستثمر في القيل والقال والعبث وما يضرّ ولا ينفع، فاستثماره بما فيه فائدة أولى.

هذه الايجابيات وغيرها ممّا يُمكن تصوره تبقى في الإطار الكلي إذا لم تعارضها سلبيّات أهمّ وأكبر، وإذا رُوعي في العمل كل الشروط والضوابط التي تحمي المرأة وتحافظ على دورها الأساس في الأسرة.

○ الآثار السلبية:

قد يترتب مجموعة من السلبيات على عمل المرأة خاصة إذا لم تراعى الضوابط ولم يتمّ اختيار العمل المناسب والظروف الملائمة وتمّت التضحية بالواجبات الأهم بسبب العمل:

١ ـ التأثير السلبي للعمل على العلاقة الزوجية واستقرارها.

قد يؤدي عمل المرأة، خاصة إذا استهلك جلّ طاقتها ووقتها، إلى الإخلال بالدور المطلوب في العلاقة الزوجية، فاذا انعكس العمل على الوضع النفسي للمرأة ولم تعد قادرة على توفير السكينة وأسباب المودة يوماً بعد آخر سيؤدي إلى فتور العلاقة العاطفية وفقدان فلسفة الحياة الزوجية ومبرراتها، وهذا ما يفسر ارتفاع معدلات الطلاق في الأسر التي تعمل فيها المرأة.

وما يزيد الطين بلة فقدان الفهم الصحيح لمعنى العلاقة الزوجية بحيث يشعر الزوج بعدم قدرة زوجته على تلبية حاجاته من جهة وتشعر الزوجة بعدم حاجتها للزوج فهي مُنتجة ولها دخلها ويمكن أن تستقل.

وكأن الدافع إلى الزواج عند النساء هو الحاجة إلى المُعيل مع أن المسألة ليست كذلك حتماً.

٢ ـ التأثير السلبي للعمل على الأطفال وتربيتهم وإشباع حاجاتهم العاطفية.

قدّمنا الحديث عن المسؤولية المشتركة تجاه الأطفال والتي لاتنحصر

قطعاً بتحضير الطعام والشراب وتنظيف الملابس التي يُمكن أن يستعاض عن الزوجة في القيام به بأي شكل من الأشكال، إنما الأمر يرتبط بالتواجد القريب واشباع الحاجة إلى العطف والحنان والشعور بدفء المحبة والأمان واستثمار ذلك كله في التوجيه والتربية وبناء الشخصيّة المتوازنة السليمة، هذا الدور لايمكن أن يقوم به لا الخادمة ولا الحاضنة، هو دور حصريّ يرتبط بالأم، لأنه يتطلب صدق المشاعر وهي عند الأم حصراً.

الأهم من تحضير الطعام أن يجد الطفل أمّه إلى جانبه عند تناول الطعام فيغمس اللقمة بنظرات الحب والعطف فيجد فيها طعماً آخر، ولذّة أخرى لا يدانيها لذّة.

٣ ـ التأثير السلبي للعمل على المجتمع والتوازن فيه.

هذا الجانب لا يُمكن تناوله من جميع جوانبه هنا لأنّ الاختصار فيه مخلّ حتماً. لكن من باب الإشارة فقط يُمكن القول أنّ الدولة مسؤولة عن التخطيط للموارد الاقتصاديّة وتوجيه الطاقات بما يضمن الدخل المناسب لكلّ فرد، قد يكون بالأساس اضطرار المرأة لمزاولة العديد من الأعمال ناشئاً من سوء التخطيط العام ومن الخلل في توزيع الثروات والفرص. في ظلّ النظام غير المتوازن وغير المثالي قد يشكّل نزول المرأة إلى العمل ومنافسة الرجال في العديد من مجالات العمل عاملاً مباشراً في الحد من فرص العمل وزيادة البطالة وانخفاض الأجور. طبعاً ليس لوحده لكن بانضمام عوامل أخرى.

٤ ـ التأثير السلبي للعمل على المرأة العاملة نفسها.

الإرهاق النفسي والجسدي الذي يصيب المرأة العاملة وفي ظروف العمل الطويل وفي أعمال تتطلب جهداً جسدياً ربما انعكس على المرأة

سلباً فيعجّل الشيخوخة ويعرضها للإصابة بالأمراض المقعدة في وقت مبكر. وقد ورد عن أمير المؤمنين قوله: «فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَة».

○ ضوابط عمل المرأة:

عرفنا أنّ الإسلام لم يحرّم عمل المرأة بشكل عام، ولكن يجب مراعاة الضوابط التي تحدّ من السلبيات، فمن تلك الضوابط:

١ ـ أن يكون العمل موافقاً لطبيعة المرأة الجسدية والعاطفية والنفسية، ويتناسب مع خلقتها من مختلف الجوانب.

٢ ـ أن لا يضطرها للاختلاط المحرم والذي يجعلها عرضة للانزلاق الأخلاقي أو الضغط النفسي.

٣ ـ أن لا يخلّ عملُها بالدور الأساسي في أسرتها تجاه زوجها وأطفالها، من حيث الوقت المخصص للعمل، أو الارهاق النفسي والجسدي، أو غير ذلك.

٤ ـ ان لا يتضمّن العمل محرّمات شرعيّة أو يؤدّي إلى ارتكاب محرّمات شرعيّة (وهو شرط عام لا يختص بالمرأة).

■ ■ ■

الاختلاط
في ميزان
التّربية الإسلامية

الاختلاط بين الشّرع والعُرف(*)

الحديث يدور حول موضوع من موضوعات العصر، حيث يواجه فيه الإسلام كما تعلمون كثيراً من الهجمات والتشكيكات، والتي يُسعى من خلالها لتشويه صورته وقدرته على بناء مجتمع عصري يواكب حاجات العصر، في نفس الوقت الذي يؤكد فيه على الالتزام بالقيم والتمسك بالثوابت، وبالتالي تقديم نموذج يجمع بين أصالة الدين وتطوّر الحضارة على مستوياتها كافة.

موضوع «الاختلاط» الذي جُعل عنواناً لهذا اللقاء، أعتقد بأنه يبتني على بعض الأسس، سأتعرض لها بشكل مختصر، ضمن مقدمتين، ثم انتقل إلى الموضوع مباشرة.

○ المقدمة الأولى:

المنهج التربوي الإسلامي: يعمل في ثلاثة اتجاهات:

- **الاتجاه الأول**: يعمل على تنمية الحس الديني عند الإنسان ـ وهنا لا أقصد بالمنهج التربوي الذي يهتم بمرحلة عمرية خاصة وإنما أعني المنهج التربوي العام الذي له تجلياته في مرحلة الطفولة ثم المراهقة ثم مراحل حياة الإنسان بشكل عام ـ كما أن تنمية الحس الديني يشمل البناء العقائدي

(*) محاضرة ألقيت على طالبات معهد السيدة الزهراء العالي عام ٢٠٠٥.

والفكري، وبناء ثقافة الارتباط بالمبدأ، وثقافة الاتجاه نحو المعاد، كل ذلك يدخل تحت عنوان «تنمية الحس الديني» ولعلَّ فلسفة الدراسات الحوزوية تصب بهذا الاتجاه.

- **الاتجاه الثاني**: يُعنى المنهج التربوي الإسلامي بتقوية الضمير الأخلاقي، من خلال اكتساب القيم، والكثير من ملكات الفضيلة، التي تجعل الإنسان يمتلك حصانة أخلاقية، تدفعه لترتيب أولوياته والتزاماته بالطريقة التي توصل نحو غاية الخلق.

وفي هذا المجال ـ تنمية الضمير الأخلاقي ـ نجد أنَّ الإسلام يُعنى ببناء شخصية الإنسان الملتزم. أي يعطيه القدرة على الالتزام، نحن في دراستنا الفقهية عادة ندرس مستويات الإلزام، وهي الحلال والحرام والمستحب والواجب والمكروه، وهذه المستويات يُبيِّنها القانون، ولكن مجرد أن يُكتب قانون في بلد لا يتحقق الالتزام، ما لم يكن هناك دافع ذاتي موجود عند الإنسان لتتحقق النتيجة.

فتقوية الضمير الأخلاقي لدى الإنسان، تجعله قادراً على الاستفادة من معطيات الشريعة مما يجعل الإنسان ملتزماً بتفاصيل أحكام الشريعة، حالة الالتزام الذاتي، الدافع للالتزام، الإسلام يُعنى بهذا الجانب بشكل كبير، من المؤسف أننا في كثير من الأحيان عندما نريد أن نتعرف على الإسلام ندخل من خلال المنظومة الحقوقية، أي من خلال الأحكام الشرعية فقط، وهذه الأحكام لا تمثل إلاّ زاوية في ثقافة الإسلام، وهي زاوية حقوقية لها علاقة بمستويات الإلزام، لكن الذي يجعل الناس يلتزمون بالشريعة من دون الحاجة إلى جهاز «بوليسي» ونظام عقوبات وقوى مُلزمة، هو هذا الدافع الذاتي الذي يدخل في اهتمامات المنهج التربوي الإسلامي.

عندما نتحدث عن الأخلاق نقصد المنظومة الأخلاقية وما تمتلكه من قدرة على بناء ضمير أخلاقي لدى الإنسان.

- **الاتجاه الثالث**: يعمل الإسلام على تعديل الميول والغرائز الموجودة عند الإنسان، أقول «تعديل» وليس «كبح»، باعتبار أن الله سبحانه وتعالى عندما خلق في الإنسان غريزة، لا شك أن هذه الغريزة خلقت لحكمة، ولذا فقدانها يعتبر نقصاً ويحتاج إلى علاج.

لذلك لا يعمل الإسلام على قتل هذه الغرائز «لا رهبانية في الإسلام» وإنما يعمل على تعديلها والتعديل يعني وضعها في الأطر الصحيحة من أجل أن تخدم الغاية التي وضعها الله تعالى من أجلها في الإنسان، والميول والغرائز كثيرة جداً، يتعرض لها علم الأخلاق لأنه يعني بتحديد عدالة الغريزة والميل الموجود عند الإنسان، سواء في الجانب الجنسي أو غيره.

○ المقدمة الثانية:

الإسلام على مستوى الأسلوب، يعتمد أسلوباً وقائياً، إنّ تعديل الميول والغرائز يتأثر بالاتجاه الثاني، أي بوجود حالة من الحصانة، كما يتأثر بالاتجاه الأول، لأنّ الحس الديني يترك أثره على الإنسان، فيعمل ذاتياً على تعديل ميوله وغرائزه، لكن لا يغني الأمر عن وجود نظام، لأننا عندما ندرس أي جانب من الجوانب الشرعية أو التشريعية، لا بد وأن ندرس ذلك الجانب وفق رؤية شمولية. قرأت كثيراً عن انتقادات توجه أحياناً لرؤى دينية، أو لبعض الأحكام أو لبعض الأنظمة الشرعية، هذه الانتقادات تُوجه عادة بشكل مجتزء عن بقية جوانب الشريعة، عندما نريد أن ندرس أي زاوية من زوايا الشريعة فلا نهمل الزوايا الأخرى ـ هذه نقطة أعتقد أنها تستحق الإشارة وإن كانت خارج الموضوع لكنها ذات علاقة ـ مثلاً: الأنظمة

الشرعية المرتبطة بالإرث، أو المرتبطة ببعض الحقوق المالية الأخرى قد يُوجّه نقد، أن النظام الإرثي هو نظام مُتحيز، والنظام المتحيّز لا يصلح أن يكون نظام عدالة، وهذا حديث نسمعه بكثرة، أحياناً نحن نقع فريسة الهجمات ونفقد منهجية البحث، وعندما نفقد هذه المنهجية نعجز عن التبرير والإجابة. مثلاً: عندما يقال أنّ على المرأة أن تلتزم حدوداً معينة من الحجاب، ومن العلاقات، قد يقال أن هذا يؤثر سلباً على المجتمع باعتبارها طاقة تمثل نصف المجتمع، ولعلها في بعض الأحيان أكثر من النصف، فهذا يؤدي إلى تحجيم هذه الطاقات...

في مثل هذه الأمثلة، مثال الإرث والحجاب، النقد ينطلق من رؤية مُجتزءة، إذا نظرنا إلى النظام الإسلامي بشكل عام، كيف يوزّع الواجبات، فإننا نعرف أن توزيع الحقوق جاء متناسباً مع توزيع الواجبات مثلاً: في الموضوع المالي، له رؤية تجاه البناء الاقتصادي الاجتماعي بشكل عام، ألزم رب الأسرة بواجبات معينة وبالمقابل أعطاه حقوقاً مالية، يعني أن العدالة تتحقق إذا نظرنا نظرة شمولية لكل ما أخذ ولكل ما أعطي، لكل تكليف ولكل حق، عند ذلك العدالة تتجلى، لا يُمكن أن نجتزئ صورة محددة ثم نبحث عن عدالة هذا الحكم، هذا الحكم كجزء من لوحة متكاملة يجب أن يأخذ موقعه بشكل صحيح، أما إذا أُخرج من تلك اللوحة يفقد جماليته وجدوائية وفلسفته. هذه مسألة يجب أن نلتفت إليها على مستوى المنهج.

نحن هنا عندما نريد أن ندرس موضوع الاختلاط، علينا أن ندرس نظرة الإسلام إلى الاختلاط من خلال رؤية شمولية للدور والغايات والأحكام التي جعلها الله سبحانه وتعالى تنظيماً للمجتمع والعلاقات البشرية بشكل عام، الإسلام في موضوع تعديل الغرائز، قلنا أنه يعتمد منهجاً وقائياً في

الغالب، هذا المنهج الوقائي هو منهج الحيلولة دون الوقوع في المحظور وارتكاب المفاسد، هذا المنهج يتجلى في طريقة التعاطي مع الكثير من المحرمات، وليس فقط في المسألة الجنسية بل في بقية المسائل أيضاً.

مثلاً: مسألة الخمر: الإسلام رأى في شرب الخمر خطراً شديداً جداً على المجتمع وعلى الإنسان والبشرية، فلذلك عندما يحول دون الوقوع في شرب الخمر، لا يعتمد أسلوباً تربوياً ذاتياً لوحده، وإنما يعتمد الأسلوب الوقائي، ويضع جملة من الضوابط والتوجيهات التي تحول دون اقتراب الإنسان من الوقوع في هذا المحرّم، فتجده يحرّم صناعة الخمر، ويحرّم نقل الخمر، والجلوس على موائد الخمر، فضلاً عن تناوله، لأن الإنسان قد يضعف في لحظة من اللحظات ـ مهما امتلك من قوة ـ قد يصبح هناك تطبيع، يعني أن المنكر، ينكرهُ الإنسان بقوة وبشدة إذا ما اعتاد على أن لا يلتقي به ولا يراه، فبمجرد أن يراه يُرتكب من قبل غيره، فهذا يؤدي إلى حالة من التطبيع بينه وبين ذلك المحرّم بحيث يصبح مقبولاً نفسياً، وإن كان على مستواه الشخصي يمتلك حصانة عدم الوقوع في الحرام. هذا الأمر تجدونه وتلمسونه عند أطفال عاشوا في بيئة لم يسمعوا فيها شتيمة ـ ربما ـ فإذا خرجوا إلى مجتمع آخر، وسمعوا بشتيمة، يفاجأون ويجدون بأنه أمر منكر جداً، وتكون ردة الفعل كبيرة، لكن بعد تكرار الاستماع، يصبح بعد فترة لا يجد ردة الفعل في نفسه تجاه هذه المقولة نتيجة اعتياده عليها، ولو لم يمارسها، ولو كنا نراقب بشكل دائم، ونوجّه ونحرز حصانة الامتناع عن التقليد، لكن ردة الفعل تضعف إلى حد يُمكن أن تصبح كلمة الشتيمة كأي كلمة أخرى، دون أن يستنكر حتى في قلبه ولذلك تلاحظون أن الإسلام جعل رتبة الإنكار بالقلب آخر مرتبة، وأضعف الإيمان، يعني لا ينبغي للإنسان أن يتخلى عن الإنكار القلبي، رغم أن الإنكار القلبي قد لا يحدث

تغييراً في الآخرين، لكن على الأقل يترك الحد الأدنى من الوقاية كي لا يصل تطبيع الإنسان مع تلك المنكرات إلى حد بحيث ينزلق إليها بسهولة.

إذا لاحظنا مثلاً موضوع: «التعرب بعد الهجرة»، لماذا يحرّم الذهاب والسفر إلى المناطق التي لا يُمكن أن يطيع الإنسان ربه فيها، أو فيها فتنة المحرمات والوقوع في المعصية؟ هذا هو معنى التعرب، يعني العودة إلى بيئة الجهل والانحراف والجاهلية بعد أن انتقل الإنسان إلى بيئة الإسلام؛ لأنَّ البيئة لها تأثيرها، فعندئذ ينبغي أن لا ينتقل الإنسان إلى بيئة تضعفه، وتساعده على السقوط.

إظهار الزينة، يدخل في هذا الإطار، والتحذير من كُتب الضلال، وأمثال ذلك مما نجده بكثرة في الأحكام الشرعية من تحريم المقدمات، التي يُمكن أن تسقط الإنسان في المحرمات.

المحرم هو الانحراف، ولكن إذا كانت مطالعة كُتب الضلال تضعف الإنسان وتوجد في نفسه شبهة لا يستطيع ردّها، عندئذ تصبح مطالعة الكتاب محرمة.

هذا التحريم يسمى تحريم طريقي، يعني التحريم لا لنفس القراءة، وليس هو دعوة إلى الجهل وإنما خوفاً من الوقوع في شبهات، وعندما لا يكون الإنسان قادراً على مقاومة تلك الشبهات.

فكل ذلك يدخل في المنهج الوقائي.

نعتبر أن الإسلام، اعتمد في عدد كبير من أحكامه، منهجاً وقائياً للحيلولة دون السقوط في المشكلة؛ حتى لا يحتاج إلى معالجة بعد الوقوع فيها، «درهم وقاية خير من قنطار علاج» ليس فقط في الأمراض الجسدية بل على مستوى الأمراض الروحية أيضاً.

○ الاختلاط بين العرف والشرع:

الاختلاط لم يرد بهذا العنوان في نص شرعي، ونحن عندما نتناول هذا الموضوع، لا بد أن نتناوله على ضوء الرؤية السابقة، أي المقدمات التي ذكرناها أولاً، ولا بد أن يلاحظ بحسب مستوياته، وسأنطلق من هذه النقطة:

○ مستويات الاختلاط:

طبعاً المعنى واضح لا يحتاج إلى بيان، والمقصود بالاختلاط: الاختلاط بين الجنسين، وهو التواجد في مكان واحد. هذا التواجد له مستوياته: تارة يكون في أماكن عامة مع رعاية الضوابط والحدود الشرعية. بحيث تكون فرص الانزلاق إلى المفاسد محدودة جداً.

وتارة أخرى يكون التواجد في مكان خاص، محدد لنفس الأشخاص، مع وجود تكرار مثل: التواجد في مدرسة، أو صف، التواجد في عمل، عادة يتكرر اللقاء مع نفس الأشخاص تحت نفس السقف بشكل روتيني.

وأحياناً يكون الاختلاط أو التواجد بين الجنسين في منزل، يُمكن أن نسميه الاختلاط المنزلي، وله مراتب أيضاً؛ لأن الاختلاط المنزلي يُمكن أن يكون داخل أسرة واحدة أو بين أسر متعددة ترتبط بروابط رحمية، ويمكن أن يكون بين جملة من الأسر، الذين تربطهم علاقة مجاورة أو صحبة أو صداقة.

ويمكن أن نصل أخيراً إلى الاختلاط في الأماكن العامة التي ينعدم فيها الرقيب والضوابط مع عدم وجود التزام ـ كما يحصل عادة في أماكن الترفيه: على شواطئ الأنهر والبحار وفي غيرها من هذا القبيل ـ هذا هو الحد الأقصى الذي سنتحدث عنه، أي ليس فقط انعدام الضوابط والحدود

بل وجود ما يشجّع ويساعد على بناء علاقات محظورة إسلامياً، والكثير من مواطن الاختلاط اليوم لها هذه الصفة، يعنى أعلى مستوى هو مستوى الاختلاط في الأماكن التي يكون أصل الارتياد إليها ناشئاً من رغبة في بناء مثل هذه العلاقة، والتحلل من كل الضوابط والقيم الاجتماعية.

البحث في الاختلاط يتنوع بين هذه المستويات، ونحن يمكننا أن ندرس المسألة من الزاوية الشخصية، ويمكن أن ندرس المسألة من زاوية النظام الاجتماعي، يعني تارة نلاحظ الاختلاط على مستوى فرد معيّن، فيمكن هنا أن نقول أن هذا الفرد الذي يمتلك حصانة وقدرة على الالتزام بالضوابط والحدود الشرعية، عندئذٍ حكمه على المستوى الشخصي قد يختلف عن الحكم في المسألة عندما يوضع لها نظام اجتماعي، يعني في الكثير من الأحيان، عندما تؤسس الشريعة الإسلامية حكماً أو نظاماً، لا تلحظ فيه الحالة الفردية، وإنما تلحظ الحالة من الزاوية الاجتماعية، أي بالاصطلاح الفقهي تكون المصلحة نوعية.

المصلحة النوعية تعني: إذا رجعنا مثلاً إلى الأنظمة الوضعية، من قبيل نظام السير، فالحكمة فيه نوعية، والالتزام بنظام السير لا يتوقف على وجود خطر قطعي ينشأ عن تلك المخالفة، لأنه لا بد من الالتزام بالنظام، والفائدة هي نوعية.

في الإسلام أيضاً يوجد مثل هذا، نورد مثالاً واحداً للتذكير، مثل مسألة عدّة الطلاق، الحكمة من عدّة الطلاق هي التحرز عن اختلاط المياه بالنسبة للإنسان، طبعاً لها فوائد أخرى من قبيل العدة الرجعية، فيمكن خلالها أن يرجع الزوج، فهي إعطاء فرصة. ولذلك لا يصبح الطلاق فعلياً إلا بعد انتهاء العدة، لكن في بعض الأحيان تكون العدّة غير رجعية، ففي الطلاق الخلعي، أو الطلاق الثالث، أو عندما لا تكون هناك نية قطعاً في الرجوع،

فلماذا العدة؟ يُقال أن الحكمة هو التحفظ على عدم اختلاط مياه الإنسان، فلو فرضنا في بعض الحالات أنه حصل لدينا يقين بعدم وجود حمل، كما في غياب الزوج لفترة طويلة أو بالاعتماد على بعض التحاليل المخبرية الدقيقة التي توجب العلم واليقين، فهل يُمكن القول أنه لا حاجة هنا للعدة؟ لا يمكن، لأن الشريعة عندما تؤسس لنظام، يلحظ المصلحة النوعية، والمصلحة النوعية لا يشترط فيها أن تكون موجودة في كل فرد من مُتعلقي الحكم وإنما لا بد من التأسيس لنظام، يكون نظاماً عاماً يلحظ الأعم الأغلب، وإلا إذا تُرك الحكم مرتبطاً بالأفراد، فعندئذ علينا أن نثبت لكل فرد حكماً خاصاً بحسب حالته، والشرائع عادة لا تلحظ المسألة بهذه الطريقة، إلاّ على مستوى الأحكام التي لها علاقة بالتعبد، فهنا تلحظ الحالة الفردية، متى يجوز الإفطار في شهر رمضان للمضطر؟

فالمضطر هنا يشخص الضرورة، لأن المسألة تعبدية، لكن المسألة التي لها علاقة بالمجتمع، الإسلام يعتمد المصلحة النوعية كحكمة للنظام والتشريع، وان تخلفت هذه الحكمة على مستوى بعض الأفراد. هذا الموضوع واضح جداً في الأحكام القضائية، فالنظام لا بد منه، حتى أننا نجد في بعض الأحيان، أحكاماً قضائية، المخالفة فيها قطعية، لكن لا يُمكن فض النزاع إلا بارتكاب تلك المخالفة القطعية، مثل قاعدة «على المدعي البيّنة وعلى المُنكر اليمين» هذه القاعدة تحكم عمل القاضي، وإن كان القاضي في بعض الأحيان متيقناً من المخالفة، وهناك أمثلة للمخالفة القطعية نتيجة تطبيق القاعدة المذكورة ستجدونها إذا راجعتم باب القضاء.

على كل حال، الاختلاط لا يُدرس من الزاوية الشخصية فحسب، بل من الزاوية العامة بشكل دائم، علينا أن نلحظ النظام العام من جهة، والواقع الشخصي من جهة أخرى.

وقد سُئلت من قِبل بعض الباحثين في المجالات التربوية واللقاءات الصحفية: لماذا تعتمدون في بعض المدارس عدم الاختلاط، مع أنه جائز من الناحية الشرعية؟

الجواب: أن ليس كل مباح من الناحية الشرعية على المستوى الشخصي، يُمكن أن يعتمد في النظام العام ففي النظام العام لا بد من أن نؤسس لنظام يلحظ الاحتمالات كافة، ويراعي المنهج الوقائي، ولو كانت هذه الاحتمالات ليست بدرجة كبيرة.

نحن هنا نلحظ أن الإسلام شجّع على عدم الاختلاط، ولكن لم يحرم الاختلاط إلا إذا غابت الضوابط، بالضبط وفق المنهج الوقائي، فنجد أنه يحدد الاختلاط في مقدار الحاجة التي يتوقف عليها النظام الاجتماعي، حيث يتوقف النظام الاجتماعي على مستوى من مستويات الاختلاط، فعندئذ لا بد من أن تسير أمور الناس ولا يُمكن أن تتوقف، لقاؤنا هذا هو مصداق من مصاديق الاختلاط ولكن بحدود تقتضيها ضرورة النظام التعليمي، وضرورة بناء واقعنا الاجتماعي.

نعم، كلما حضرت الضوابط، كلما صارت آثار الاختلاط السلبية بحجم أقل، أي يوجد كفتا ميزان فكلما ارتفعت كفة بغياب الضوابط، لا بد أن نثقل الكفة الأخرى التي فيها منع الاختلاط، وكلما كان مستوى الضوابط عالياً، صارت مخاطر الاختلاط أقل، ولذلك لا بد من الموازنة بين الأمرين معاً.

وحتى مع غياب أي مفاسد، ومع وجود أعلى مستوى من مستويات الحصانة والضوابط الشرعية، يبقى الاختلاط حالة استثنائية وليس حالة طبيعية في الرؤية الإسلامية، هنا لا نتكلم عن أحكام وإنما نتكلم عن رؤية، يُمكن أن تُتصيّد من مجموعة نصوص، ويستطيع الإنسان من خلال قراءة

جملة من الأحكام أن يستنبط رؤية، وهذه الرؤية هي التي نتحدث عنها اليوم، لأننا إذا أردنا أن ندخل إلى عالم الاستنباط ونضع أحكاماً تفصيلية، عندئذٍ فكل مسألة تحتاج إلى وقت، لكن نحن نريد أن نتحدث عن الموضوع بشكله العام، فالضوابط هي التي تحدد المستوى المرفوض والمستوى المقبول.

في مجتمعاتنا، وخاصة المجتمعات المتنوعة بالرؤية الثقافية والانتماء الديني والسياسي، كما هو لبنان، كلما وجدنا أن الضوابط مُنعدمة، كلما كان محظور الاختلاط أكبر والسبب أنَّ الاختلاط يمثل بيئة تساعد على بناء علاقات تتجاوز إطار العلاقات المشروعة، الاختلاط يفتح الباب واسعاً أمام ذوي النفوس المريضة؛ الذين يسعون عادة لاستغلال هذه الظروف، للوصول إلى مآربهم، والاختلاط مع انعدام الضوابط يوجد حالة من التطبيع في العلاقة، وهذا التطبيع في العلاقة من شأنه أن يفتح الباب نحو المفاسد الجنسية غير المشروعة، وكذا الآثار الاجتماعية السلبية كبيرة جداً.

بعض الرؤى الترويجية اليوم، تلك الأصوات التي تأتي من أصحاب الرؤى الغربية، عندما يطرحون موضوع الاختلاط، يطرحونه على أساس أنه حريّة تمثل نوعاً من الاعتراف برشد المرأة ـ إن صح التعبير ـ واستقلالية الإنسان في أخذ قراره بالطريقة التي يراها مناسبة، فلذلك هم يقولون، لماذا نضع نظاماً يحول دون حركة هذا الإنسان ويحدّ من حريته، وبالتالي يقولون أن الإنسان عليه أن يمتلك الحصانة، وإذا امتلكها فلماذا نقيّد من حريته؟ وهؤلاء يغفلون أن الإنسان يمتلك غريزة، وإذا وجد البيئة الملائمة دائماً للانشغال بإرضاء هذه الغريزة والبحث عن ذلك، ينعكس ذلك على واقعه من كل الزوايا، لو أخذنا المسألة من الناحية الاجتماعية ـ دون النظر إلى الأحكام الشرعية ـ فالاختلاط يترتب عليه نقص الاهتمامات الثقافية، ويترتب عليه نقص حتى في الجانب الاقتصادي، وانشغال الإنسان عن

الأهداف الأساسية التي خُلق من أجلها، وهذا ما نلاحظه اليوم في مجتمع الاختلاط. إن جزءً كبيراً من اهتمامات الجنسين، تنصب على إرضاء الجنس الآخر في طريقة اللبس، والتصرف، والتحدث، هذا الاهتمام على حساب شيء آخر بلا شك، لأن كل اهتمام يأخذ من الاهتمام الآخر، لذلك هو ينعكس نقصاً في الإنتاج، وفي الاهتمامات الثقافية الأخرى، وينعكس أيضاً ارتفاعاً للحياء الذي يمثل ـ كما ورد في بعض النصوص ـ الحصانة الأساسية لعفة الإنسان، ورفع الحياء يأتي في إطار التطبيع ـ كما قلنا في السابق ـ لأنّ الحياء عبارة عن حائل يحمي الإنسان من الوقوع في بعض المحرمات، فإذا ارتفع الحياء، حصل التطبيع، وإذا حصل التطبيع، اقترب الإنسان من السقوط في مستنقع الهاوية، كل هذه الأمور، تدفع ـ اليوم ـ الكثير من العقلاء في المجتمعات الغربية للمنادات بمنع الاختلاط، وقد قرأت لبعض الكُتَّاب والباحثين الذين ينادون اليوم في أمريكا وبريطانيا ـ بالعودة إلى تجربة الفصل بين الجنسين، والبعض وجد في بعض الجامعات التي تفصل بين الجنسين في العلوم الإنسانية. أنها أعطت نتائج أكبر، لأنّها ترفع من مستوى الاهتمام بالموضوع، بينما مع الاختلاط هناك قسط مهم من الاهتمام سوف ينصرف إلى الجوانب الأخرى كالاهتمام بالجنس الآخر والاستجابة لنداءات الغريزة على حساب الاهتمام بالجانب المعرفي والثقافي.

إذا لاحظنا في مجتمعٍ كلبنان، يعاني ارتفاع المعدلات العمرية لسن الزواج، وارتفاع مستوى العزوبة؛ فسندرك أن الاختلاط يصبح له خطورة أكبر ـ هذه دراسة اجتماعية ـ حسب بعض الإحصاءات في لبنان، أنَّ نسبة العازبين في الفئة العمرية ما بين **٣٥ ـ ٣٩** سنة **١٩**٪ من الذكور، وعلى مستوى الإناث **٢٠,٧**٪ في نفس العمر، وفي الفئة العمرية بين **٣٠ ـ ٣٤** سنة، في الذكور تصبح النسبة **٣٨,١**٪ بينما في الإناث **٣٠,٤**٪ وإذا رجعنا

إلى الفئة العمرية بين ٢٥ ـ ٢٩ سنة، نجد في الذكور تصبح نسبة العزوبة ٦٩,٧٪ يعني بعد مضي ١٠ إلى ١٥ سنة على البلوغ وعلى اكتمال الدوافع والغرائز الجنسية ولا زال عازباً بنسبة ما يقرب ٧٠٪، نسبة العزوبة عند الإناث في هذه المرحلة أيضاً متقاربة ٦٤,٤٪ وإذا أتينا للإناث في أعمار ما بين ٢٠ ـ ٢٤ سنة فنسبة العازبات ٧١,٥٪ ومعروف أن المرأة يصبح لها قابلية للزواج قبل الرجل، وهي تسبق الرجل في مجال النضج الجسدي، ولذلك عندما نأخذ الفئة العمرية عند الإناث من ٢٠ ـ ٢٤ سنة أي أننا نأخذ نفس الفئة العمرية لدى الذكور من ٢٥ ـ ٢٩ سنة، يجب أن نلاحظ هذا الفارق.

إذاً النسبة تعتبر عالية جداً في لبنان، مع وجود هذه النسب ـ بقطع النظر عن أسبابها ـ حيث وصل التقدير في بعض الدراسات أن متوسط سن الزواج عند الرجل ٣٤ سنة، و٢٩ سنة عند المرأة معنى ذلك أننا نحتاج إلى المزيد من الضوابط، وحصانة أكبر لأننا نجد اليوم أن الطريقة الطبيعية للإنسان التي يُمكن أن يبني بها علاقة جنسية، غير متاحة بدرجة كبيرة، مما يعني ضرورة المراهنة على نظام لا يتيح لكلا الجنسين فرصة كبيرة للسقوط في مستنقع الرذيلة، وتكريس الضوابط الاجتماعية التي من شأنها أن تقلل هذه النسب المتقدمة، ويدفع الإنسان إلى إشباع غريزته من خلال الأطر الشرعية. أنها هي الطريق الوحيد.

○ نصوص ودلالات:

نجد في الشريعة مجموعة من النصوص، بعض هذه النصوص يرتبط بموضوع الحجاب والنظر وبعضها في أحكام الزينة، ما يهمنا في مثل هذه النصوص هو التعميم، لأن العلة ممكن أن تعمم الحكم وتوسع دائرته.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣٠].

تُعلّل هذه الأحكام للحفاظ بالنتيجة على أن لا يسقط الإنسان في مستنقع المحرمات، والواضح جداً في هذه الآيات، كهذه الآية ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] طبعاً نحن لا نتحدث عن مستوى الإلزام، قد يستنبط الفقيه من آية حرمة الاختلاط، ويستنبط من آية ثانية كراهية الاختلاط، الكراهية والحرمة مسألة تحتاج إلى فقيه ليدرس مستوى الإلزام، لكن بالنتيجة ما استفيده هنا هو هذا التعليل، وهو يمثل الغاية، ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] فالحديث هنا عن القلب، لأن العلقة والارتباط تحصل من جهة الميل القلبي، وحتى لا يحصل هذا الميل يُحافظ على الحجاب، كذلك هذه الآية: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]. ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ نتيجة، والمقدمة التي تمنع حدوث النتيجة ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾. طريقة الحديث يجب أن لا تكون طريقة من شأنها أن توجد عند من في قلبه مرض طمعاً؛ فيصل إلى مآربه من خلال ذلك.

كذلك القرآن الكريم يضع نظاماً للعلاقة داخل الأسرة، وداخل المحارم على مستوى الأولاد:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ [النور:٥٨].. حسب التفصيل المذكور في الآية، وهذا الاستئذان كي لا يطلع في أي لحظة غفلة واسترخاء واستراحة على أمور من شأنها أن تُثير

في نفسه غريزة لا زالت في مرحلة السبات وهنا الاستئذان وإن توجّه إلى الذين لم يبلغوا الحلم لكن الذين بلغوا الحلم من باب أولى.

كذلك ما ورد في الروايات من التفريق بين الأبناء في المضاجع، هذه خطوة وقائية للحيلولة دون تحرك الجانب الغريزي على مستوى محارم، واخوة، حتى لو كانوا من جنسٍ واحد، والمقصود بالتفريق في المضاجع أن لا يبيتوا في فراش واحد وتحت غطاء واحد. إذا بلغوا عشر سنوات، سواء كانوا إناثاً أو ذكوراً أو مختلطين، وإذا حدث التغاير في الجنس يصبح المطلوب عندئذٍ أكبر، لأن مقتضى الوقاية أن نذهب أبعد من ذلك في موضوع الفصل، ويفترض أن يتحقق الفصل ليس على مستوى الفراش بل المكان كذلك.

في كثير من الروايات التي تتحدث عن كراهية الاختلاط وأفضلية عدم الاختلاط فهو مع وجود الضوابط، مثلاً في الرواية المرسلة عن سيدتنا ومولاتنا فاطمة الزهراء ـ سلام الله عليها: «خير للنساء أن لا يرين الرجال ولا يراهن الرجال» (البحار: ج٤٣، ص٥٤). هذه الرواية المروية في مكارم الأخلاق، وإن كانت مُرسلة لكن نستطيع أن نستفيد منها من خلال وضعها مع بقية الروايات التي تصب بنفس الاتجاه، الخيرية يقصد بها: الأفضلية المطلقة لعدم الاختلاط، وهذا لا يمنع إذا كان هناك مقتضيات وضرورات للحياة، تفرضها شؤون أخرى بأن يحصل هناك رؤية، أي أن ترى الرجال ويراها الرجال وهو ضمن الحدود الشرعية للحجاب، كما هو معروف بالنسبة لسيدتنا ومولاتنا عندما خرجت إلى المسجد أو عندما كان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) يستقبل النساء اللواتي يفدن عليه، مثل موضوع بيعة النساء في يوم الفتح أو في بعض المجالس التي كان يدخل عليه النساء، وكان يستمع إلى مسائلهن ويُجيبهن، أو ما ورد في بعض

الأمثلة الواضحة، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: كان في مجلسه أبو بصير المرادي واستأذنت عليه امرأة اسمها «أم خالد» فيقول الإمام لأبي بصير: هل تحب أن تسمع كلامها؟ فيُجلسه ثم تدخل، ويستمع إليها، فيقول كانت امرأة ذات منطق، ويمدح منطقها، محل الشاهد أنها جاءت تسأل الإمام الصادق عليه السلام ووجود أبي بصير هناك لم يكن وجوداً ضرورياً لكن يبدو أن احتمالات الافتتان معدومة بسب منزلة أبي بصير، وبسبب كون المقام مقاماً علمياً، فليس هو من مقامات الوقوع في المحرم، وبالتالي لم يكن هناك مانع في أن يطلب الإمام من أبي بصير أن يجلس.

هناك رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام ينهى فيها أهل العراق عن تجاوز الحدود في موضوع الاختلاط، يقول فيها:

«يا أهل العراق، نُبئتُ أن نسائكم يدافعن الرجال في الطريق، أما تستحون؟!».

وهناك روايات أخرى شبيهة لذلك، نحن بالنتيجة، من خلال هذه الروايات، نستفيد أنه لا يوجد هناك نهي تام وباتٌّ، عن موضوع الاختلاط، لكن النهي فيما إذا كان في الاختلاط مظنة الوقوع في الحرام، ومن شأنه أن يُطبّع علاقة لا حاجة لها، غير مفيدة وغير ضرورية، عندها يصبح هذا الاختلاط منهياً عنه.

أخيراً، أحب أن أشير إلى مسألة، هي من أكثر مصاديق الاختلاط مشكلة في مجتمعاتنا، وهي الاختلاط المنزلي الذي يحصل فيه رفع كلفة، وخاصة عندما يتجاوز الموضوع حد المحادثة إلى المفاكهة، واستعملت تعبير المفاكهة لأنه وارد في الروايات، ما نسميه نحن المزاح، خاصة المزاح الذي فيه رفع كلفة في بعض الأجواء يحصل اجتماعات منزلية

مختلطة يأكلون ويسهرون معاً، إما جيران أو أصحاب وتحصل بزيارات عائلية من شأنها أن تطبّع علاقة غير ضرورية، ويحدث فيها عادة مفاكهة.

الوقت لا يتسع لقراءة المزيد من الروايات لكن في الباب ١٠٦ من أبواب مقدمات النكاح في وسائل الشيعة هناك روايات بالنهي عن محادثة النساء ومُفاكهتهن، ونجد في بعض الروايات، ما خلاصته، باعتبار أنّ الاختلاط في بعض المستويات حالة لا بد من حصولها، نجد إقراراً لها من قبيل الروايات في موضوع النظر إلى شعور وأيدي أهل الذمة وأهل تهامة والسواد والعلوج والأعراب وأمثال ذلك، هذه الروايات واردة في البابين ١١٢و١١٣، لمن أراد المراجعة، مما يدل أن في مستوى من مستويات الاختلاط أمر لا مفر منه، ولذلك سُئل عن جانب النظر، وعندما يُجاب بجواز النظر بتعليل أنه: إذا نُهوا لا ينتهون، فهذا يدل على أنّ المستويات التي يفرضها الواقع الاجتماعي وضرورة الحاجات الاجتماعية من قبيل التردد إلى الأسواق والجامعات وغيرها، هذا أمر ممكن القبول به، لكن إذا أمكن أن نصل إلى مجتمع نُقلل فيه إلى الحد الأدنى من الاختلاط. فهو النموذج الأكمل.

فعلى مستوى أماكن العمل، القابلة للفصل، وأماكن التواجد المستمر والدائم مثل العيادات أي الأماكن التي يحصل فيها انتظار الفريقين، يُمكن الفصل والتقليل إلى الحد الأدنى من إمكانية الوقوع في المحظور.

○ أسئلة حول موضوع الاختلاط

*** السؤال الأول:**

قد تفرض بعض الظروف الاجتماعية على المرأة الخروج والتعرض للاختلاط، وبما أن الإسلام لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وبيّنها، لا بد من

وجود ضوابط، على المرأة الالتزام بها لدى مقابلة الرجال، نرجو الإشارة إلى هذه الضوابط.

وهناك سؤال آخر هو عبارة «الحصانة الذاتية» التي وردت في حديثكم، فما المقصود بها؟

*** الجواب:**

أولاً: بالنسبة للضوابط، كما تفضّلتم إن طبيعة البناء الاجتماعي اليوم تفرض مستويات من الاختلاط، إما ناشئ من اضطرار المرأة للنزول إلى ميدان العمل، أو الاختلاط في السوق، أو الاختلاط في الجامعة، الضوابط هي أن تراعي المرأة في علاقاتها الاجتماعية مع الرجال، الحد الأدنى الذي تدعو إليه الضرورة، يعني: إذا كانت المرأة بحاجة أن تذهب إلى الطبيب، ما يمكّن الطبيب من رؤية ما يحرم رؤيته للمرأة الأجنبية هو الضرورة. لكن القاعدة التي جعلت «الضرورات تبيح المحظورات» قُيّدت بقاعدة أخرى تقول أن «الضرورات تُقدَّر بقدرها» ولذلك المرأة إذا كانت بحاجة للذهاب إلى الطبيب، فإن كان بالإمكان اصطحاب شخص محرم معها حتى لا تختلي بالطبيب فالأفضل هذا، وإذا كانت بحاجة إلى أن تتحدث مع الطبيب بحجم معيّن وهو استفسار حول الموضوع الذي تعاني منه، فلا يعني ذلك تحوّل العلاقة مع الطبيب إلى علاقة يرتفع فيها الكلفة وفتح حديث ومجاملة ومسامرة ومفاكهة، هذا قطعاً يدخلنا في المحظور الطبيب لا يصبح محرماً، فإذا كان يجوز له النظر إلى مكان محدود، فلا يجوز له النظر إلى غيره مثلاً: إذا اضطرت لمعالجة الأذن مثلاً، فلا يجوز الكشف عن الرأس، وهذا لا يستوجب إحراجاً، من المفترض وجود هكذا إرادة وثقافة، تعوِّد الأطباء على الالتزام بها، فإذا كانت الحاجة إلى حديث لمدة خمس دقائق، فالحديث لمدة عشر دقائق هو دخول في المحظور، هذه ضابطة.

من الضوابط الأخرى: طبيعة الكلام، الآية التي قرأناها ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي أن لا يتم التحدث بطريقة تبعث على الشعور بإثارة الغريزة، أو تجعله يفكّر بالحرام، على المرأة أن لا تدفع الرجل للتفكير بالحرام، كما هو واجب على الرجل أيضاً، مشكلتنا اليوم، وجود موجِبْ وقابل، يُمكن أن يمتلك الرجل روحاً عدوانية، ويكون سبباً في المشكلة، علينا أن لا نَسْمح له، أن يصل إلى مراده من خلال إعطاء نوع من الإشارة تدل على إمكانية الوقوع فيما يُريب.

هذا على مستوى الضوابط، فالضوابط هي أن تلتزم بالحجاب المطلوب، بطريقة التعامل المطلوب وأن تقتصر في الضرورات على حدِّها الأدنى.

أما الحصانة الذاتية التي تحدثتُ عنها، هي إرادة الامتناع عن المحرّم، عادة تلاحظون أنّ هناك أناساً يمتنعون عن المحرمات ولو في أقصى الظروف، ولديهم شعور عندما يصلون إلى مواجهة المحرّم، شعور بنفور كبير من ذلك المحرّم بحيث لا يقبلون ذلك مهما كان السبب.

وهناك أناس يمتنعون عن الحرام ولكن امتناعهم هذا ما لم يتعرض لمغريات شديدة على سبيل المثال للتوضيح:

لنفترض أن أحدهم لا يدخّن، ولكن إذا انضم إلى مجموعة من الأصدقاء المدخنين مع قليلٍ من الإغراء تبعثه على التدخين. هذا المثال لا يُقاس ولا يدلل على الاعتقاد بحرمة التدخين، ولكنه نموذج للإنسان الذي لا يريد أن يقع في مشكلة اكتساب عادة، لكن يقع في ذلك نتيجة البيئة والضغوطات. الحصانة الذاتية إذا كانت قوية، فمهما اختلفت البيئة، ومهما كانت التحديات والمغريات، يبقى الإنسان متماسكاً، هذا ما نحن بحاجة

إليه، وهذا ما يمثل بالنسبة إلينا ـ باعتبارنا في مجتمع متنوع ـ خياراً مهماً جداً وأساسياً، وعلينا أن نربي أنفسنا ومجتمعنا وبيئتنا على ذلك، الضمانة هي أن نمتلك حصانة، ولا نقصد هنا الحصانة بمعنى الاصطلاح الفقهي أي «الزواج».

*** السؤال الثاني:**

تفضلتم أن الطبيب قد يضطر إلى اللمس للعلاج، فيجب أن لا يلمس إلاّ الجزء المتعلق به التشخيص وقد يكون بإمكانه التشخيص حتى بدون اللمس، فما الحكم حينئذٍ؟

*** الجواب:**

القاعدة الفقهية التي تقول أن «الضرورات تُقدّر بقدرها» نفترض أن لا يلجأ الطبيب إلى اللمس إذا أمكن العلاج دون لمس، وأن لا يلجأ إلى النظر إذا أمكن العلاج دون نظر، وإذا كان لا بد من اللمس والنظر فهو يُحدد بالحد الأدنى، بالطبع قد لا يكون الطبيب ملتزماً بذلك.

مرة سألني أحد الأطباء، وكان يدرس حيث أنهى الطب العام، ودخل في مرحلة الاختصاص، وفوجىء عندما قلت له: أن بعض الاختصاصات التي يلجأ إليها الرجال، لا تبيح له أن يمارس هذه المهنة لعدم وجود ضرورة، مثلاً: معالجة بعض المشاكل الخاصة بالمرأة، ذلك الشخص سألني حول تخصص باختصاص أمراض تتعرض لها النساء، فقلت له: إذا أردت دراسة موضوع الضرورات، فلا بد من دراسة ضوابط الاختصاص، فمن الذي قال أن هناك ضرورة لأن يتخصص رجل في مثل هذا الاختصاص؟ هذا أولاً، وثانياً على مستوى الممارسة، ولو افترضنا وجود طبيبين يعملان في مشفى أو عيادة واحدة، مثل طبيب الأسنان، وجاءت امرأة لتتعالج عند هذا

الطبيب وتستلزم المعالجة، للمس مع وجود طبيبة أسنان، وكان بإمكان هذه المرأة الذهاب إلى الطبيبة لكنها اختارت الطبيب، فهنا لا يوجد ضرورة، فمع الاختيار الخاطئ للمرأة، على الطبيب تكليف يجب القيام به فلا يكفي أن تختار المرأة ذلك، ليصبح جائزاً للطبيب أن ينظر أو يلمس حيث يحرم، ومن هنا على الطبيب أيضاً أن يراعي الضرورة، فيرسلها إلى الطبيبة، وهذا عادة لا يحصل في مستشفياتنا وعياداتنا ـ للأسف ـ بسبب الثقافة الإسلامية والفقهية الناقصة، أو بسبب الحرج، لا بد أن نلاحظ هنا موضوع الثقة، مثل عدم وجود الاطمئنان من قدرة الطبيبة، لكن على الطبيب أن يسأل حتى يشخّص الضرورة، وبعض الأحيان، قد يرتكب الطبيب من المحرمات، أكثر مما يرتكبه المُراجع الذي شخّص بطريقة خاطئة.

■ ■ ■

الاختلاط السلبي: عواقب وأخطار(*)

العلاقة بين الجنسين خارج إطار المؤسسة الزوجية تتصدر الدراسات الاجتماعية بشكل دائم، لما لهذه العلاقة من آثار ونتائج، وما لها من أبعاد تتفرع على الرؤية الفلسفية والدينية.

والإسلام باعتباره دين حياة، وبما يمتلك من رؤية شمولية لكل ما يرتبط بالعالم والإنسان، رسم معالم طريق الكمال الروحي للبشرية وسبل السعادة في الدنيا والآخرة، وقد وضع للعلاقة بين الجنسين جملة من الأحكام والضوابط في سياق المنظومة الشاملة للأحكام الشرعية والضوابط الأخلاقية التي تتناول مختلف جوانب حياة الإنسان.

في هذا العصر، أفرزت لنا الحضارة المادية التي تسعى لفرض سيطرتها على العالم وتسويق ثقافتها وقيمها المخالفة للأديان السماوية، أفرزت لنا رؤية خاصة للمرأة بشكل خاص، وللعلاقة بين جنسي البشرية بشكل عام. فقدمت المرأة المثالية الغربية بصورة مجرّدة عن أي عفّة، ومتحرّرة من كل قيد أخلاقي يحجب جوهرها عن الأدناس والرذائل، وعلى العكس من ذلك اعتبرت أن التحرر من قيود الحجاب والعفاف والضوابط الشرعية للعلاقات مع الجنس الآخر يمثل قيمة من قيم تلك الحضارة الأساسية، تدخل تحت شعار الحرية الفردية وحقوق الإنسان والتقدم.

(*) مقالة نُشرت في مجلة بقية الله العدد ١٣٩ ص ١٢ نيسان ٢٠٠٣.

○ عواقب الحضارة المادية:

نحن اليوم لم نعد بحاجة إلى بذل الكثير من الجهد للاستدلال على أخطار هذه الرؤية، وفشل هذه الأطروحة في إيصال المرأة إلى سعادتها، والانتقال بالمجتمع إلى الجنة المنشودة التي زعمت تلك الحضارة أنها تضمنها للبشرية، فالمجتمع الغربي اليوم يعاني من أسوأ العواقب الوخيمة التي أنتجتها هذه الثقافة.

تعالوا بنا لنرى مستوى التفكك الاجتماعي والأسري في المجتمع الغربي فهم لم يعد لديهم هناك أسرة سليمة، فالروابط الأسرية تضمحل بشكل كبير، وقد تفشى الطلاق بشكل واسع رغم معارضة الكنيسة، أما الولادات غير الشرعية فوصلت في العديد من الدول الغربية إلى ما يزيد عن ٥٠٪ في تلك البلاد، والامتناع عن الزواج بلغ أقصاه، ومن الواضح ما يتبع ذلك من آثار سيئة، منها الخواء الروحي والعاطفي وانعدام الروابط الاجتماعية وضعف الانتماء للوطن وازدياد حالات اليأس والانتحار وأمثال ذلك ـ هذا فضلاً عن الأمراض الجنسية المتفشية والمهلكة التي يقف الطب عاجزاً عن مقاومتها.

الخطوة الأولى نحو هذا الواقع المأساوي انطلقت من العلاقات المفتوحة والمتحررة عن الروادع الدينية والضوابط الأخلاقية الشرعية، وقد انتقلت عدواها إلى بعض مجتمعاتنا وأسرنا نتيجة الانبهار بالحضارة المادية والثورة الصناعية، مما يضعنا أمام مسؤولية العمل على تحصين واقعنا الاجتماعي والحيلولة دون السقوط في مهاوي الهلكة التي وصل إليها أصحاب هذه الثقافة.

○ معالم السعادة والكمال:

ولا بد هنا من العودة إلى الأطر الشرعية للعلاقات، وسلوك السبيل التي خطها خالق الإنسان للبلوغ به إلى كماله وسعادته في الدنيا والآخرة.

الإسلام شرّع جملة من الأحكام لها مدخلية في تحصين المرأة وتنظيم علاقة مأمونة بين الرجل والمرأة، واعتنى عناية خاصة بالأسرة لتكون الخلية الصالحة التي يتشكل المجتمع السليم منها...

فالحجاب من شأنه أن يصون المرأة من الابتذال، ويفرض على الرجل أن ينظر إلى إنسانيتها بدلاً من الاقتصار على البُعد الجسدي والجنسي فيها). ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

وحرّم النظرة الشهوانية لكل من الرجل والمرأة خارج دائرة الزوجية، باعتبارها مدخلاً للوقوع في العلاقة المحرّمة «النظرة سهم من سهام إبليس مسموم». ومنع من النظر مطلقاً لغير الوجه والكفين. ووضع للزينة جملة من الضوابط تخرجها عن لعب دورٍ ساهم في التشجيع على الوقوع في الحرام، ولم يقتصر على الزينة المعروفة، بل تعدى إلى كل بواعث الاغراء ولو كانت من المسموعات أو المشمومات.

○ ضوابط الاختلاط:

كما وضع جملة من الضوابط الوقائية للحيلولة من الانزلاق إلى مواطن الخطر والانحراف، ويأتي الاختلاط في سياق هذه الأمور، والتي سنخصص لها الكلام في هذه الدراسة المختصرة...

١ ـ التفريق بين الأولاد في المضاجع ـ ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «الصبي والصبي، والصبي والصبية، والصبية والصبيّة، يفرّق بينهم في المضاجع لعشر سنين».

وذلك لأن الجمع بينهم في المضاجع، (والمقصود في فراش واحد)، مظنّة الانزلاق إلى ممارسات محرّمة في فترة النضج الجسدي والبدء بالتعرف على الجوانب الغريزية، مع ضعف كبير في الإدراك لعواقب كل ذلك وهي خطوة وقائية مبكرة تمنع من تفتح الغريزة قبل أوانها، وتحول دون اكتساب عادة سيئة، قد تذهب بهم بعد ذلك مذاهب أخطر. فالتفريق بينهم أحد مظاهر منع الاختلاط.

٢ ـ النهي عن دخول الأولاد الذين لم يبلغوا الحلم على الأبوين في فترات الاستراحة الخاصة من دون استئذان مُسبق، في خطوة وقائية تدخل في سياق الحيلولة دون الاختلاط المضر ـ ففي الآية الشريفة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ...﴾ [النور: ٥٨].

٣ ـ النهي عن اختلاء المرأة بالرجل في الأماكن المغلقة دون شخص ثالث.

فقد ورد في الحديث أن الشيطان قال لموسى عليه السلام: «ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه أفتتنه بها» (مجموعة ورام باب تهذيب الأخلاق).

وفي الآية القرآنية: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

هذه أيضاً خطوة وقائية تحول دون الوقوع في ضعف أمام نداء الغريزة، واستغلال الشيطان لها، وهي وإن اختلفت من شخص لآخر قوة وضعفاً إلاّ أن القاعدة هنا تقضي بسد الذرائع وإزالة الأسباب والعوامل الموجبة للفتنة.

○ الاختلاط في المجتمع:

وهو على أصناف:

الاختلاط في أماكن العمل والأسواق.

الاختلاط في المدرسة والجامعة.

الاختلاط في أماكن السياحة والترفيه كالمنتزهات وشواطىء البحار والأنهر والنوادي العامة.

الاختلاط في صالونات البيوت.

سبل الوقاية من أخطار الاختلاط:

هذه الحالات من الاختلاط يُمكن أن تتفاوت في المستويات ومن حيث خضوعها لضوابط وقيود تحد من أخطارها، أو تحللها من كل تلك الضوابط أو بعضها.

ففي العصر الحاضر قد يضطر الوضع الاقتصادي الكثير من نسائنا للنزول إلى ميادين العمل، وإلى الأسواق للحصول على الرزق والاشتراك مع الزوج أو الأسرة في تحمل أعباء الحياة، ولا شك أن ذلك يرافقه التعرض أحياناً إلى مخاطر الاختلاط، خاصة إذا كان عمل المرأة يفرض الالتقاء بالرجال والتحدث إليهم سواء كانوا زملاء عمل أو زبائن، والأخطر بلا شك تلك الحالات التي تفرض على المرأة العمل في مكان مغلق مع رئيس أو زميل، الأمر الذي يُتيح حالة الاختلاء، مما ينبغي العمل على تجنبه، والابتعاد عنه.

ويأتي بدرجة أقل خطراً، الاختلاط الذي يفرض الالتقاء والتحدث في مكان مفتوح.

لكن يبقى البحث عن أماكن عمل من دون اختلاط تمثل الخيار الأمثل

ويجب العمل على تحقيق ذلك قدر المستطاع، نعم هنا يؤدي الوعي وقوة الإرادة وامتلاك الحصانة الذاتية الدور الفاعل في الوقاية من أخطار الاختلاط، مما يعني ضرورة العمل على إكساب المرأة والرجل على حد سواء تلك الحصانة وذلك الوعي في برامجنا التربوية والثقافية والتبليغية.

أما الاختلاط في الجامعة والمدرسة، فتتفاوت أيضاً مستوياته، فبعض الجامعات التي تتعمد الترويج للاختلاط السلبي، تُهيء كل الوسائل والمغريات التي تحقق أسوأ أنواع الاختلاط، وذلك عبر التشجيع على ارتياد النوادي والمسابح التي قد تكون في نفس الجامعة، أو تنظيم الحفلات الراقصة المختلطة أو الرحلات المختلطة، وهذه من المخاطر التي تحف بالمجتمع من خلال المؤسسات التربوية والتعليمية التي تتبنى ثقافة وقيم الحضارات المادية التي تقدم الحديث عنها.

وهناك مستويات من الاختلاط أدنى من ذلك، ولعل الحد الأدنى هو ما تضطر لاعتماده بعض المؤسسات التربوية والتعليمية الجامعية والمدرسية لكن مترافقاً مع كل الضوابط التي تحول دون الوقوع في سلبيات الاختلاط. ومن أمثلة ذلك، الاقتصار على الاختلاط داخل قاعة الدرس وتحت رقابة الأساتذة، وبحدود تجميع الفتيان إلى جهة والفتيات إلى جهة أخرى، ويتبع ذلك فصل في الملاعب والمرافق. وهذا النوع من الاختلاط الذي تفرضه أحياناً الضرورات الناتجة عن محدودية المكان والإمكانيات المادية، ينبغي أن يبقى الاستثناء الذي يخالف القاعدة، على الرغم من تصدي بعض الأصوات للدفاع بأنه وبهذه الحدود يدخل في التدريب على الالتزام بالضوابط الشرعية في العلاقات، مما يساعد عند التعرض لمستوىً آخر من الاختلاط على بقاء العلاقة ضمن الحدود الشرعية بالرادع الذاتي.

أما الاختلاط في أماكن الترفيه والشواطىء فلا يقل خطورة عن

الاختلاط في الجامعة وأماكن العمل، إن لم نقل بأنه أسوأ منها، لأنه بحد ذاته يوجد جواً من القابلية نظراً لغياب الدوافع الأخرى التي كانت تفرض نفسها على العلاقة كمقتضيات العمل والدراسة، فإن جو الترفيه هو جو أنس يتناسب بشكل أكبر مع الدوافع الغريزية، وإذا غابت الحصانة الذاتية، ودخلت المغريات الأخرى صار من أماكن الريبة، ولذا كان توفير أماكن الترفيه الشرعية أمراً مطلوباً إلا أنه غير متيسر بشكل واسع.

وأخيراً الاختلاط في صالونات البيوت، فإن الزيارات العائلية التي يتم تبادلها بين الجيران والأصدقاء والأقارب، قد تتحول من ممارسة مستحبة وشرعية إلى ممارسة سيئة مبغوضة، وذلك عندما يدخل الاختلاط إليها، فالزيارات العائلية المختلطة إذا تكررت وفتحت المجال لبناء علاقة بين الجنسين تصبح مدخلاً لكل المخاطر المترتبة على الاختلاط. فكثير من العلاقات المحرّمة التي أوقعت المحصنين بالفواحش بدأت عبر زيارة الصديق إلى بيت صديقه، أو الجار إلى منزل جاره مع رفع الكلفة والجلوس المختلط الذي جرّ إلى ذلك.

في الختام... ينبغي العمل على خطين:

الأول: وقائي يفرض الحرص على إزالة كل الظروف والعوامل والأسباب التي قد تؤدي إلى علاقة غير مشروعة وغير سليمة، ويدخل في ذلك ما تقدم من أساليب اختلاط.

الثاني: تربوي يُوجد عند الإنسان حصانة ذاتية، ووعياً كافياً للمخاطر وللنتائج المترتبة على أي ممارسة، وإرادة قوية تحول دون الوقوع في أسر الاغراءات والضعف أمامها. وهذه هي الأصل الذي لا غنى لنا عنه سواء تحقق لنا ما نريد في الخط الأول أم لم يتحقق.

ولا شك أن المسؤولية الكبيرة في كل ذلك تقع على الأهل وعلى المربّين الذين حمَّلهم اللَّه هذه المسؤولية وأوكل إليهم هذه المهمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

■ ■ ■

التربية الإسلامية
وثقافة الاستهلاك

ثقافة الاستهلاك
كيف تتشكّل وكيف نُواجهُها؟

رغم الأوضاع الاقتصادية الصعبة للأسرة، ورغم الصراخ الذي يعلو دائماً من الجميع، نجد أنّ الأسواق تعجّ بالزبائن، والمحلات تزخر بمختلف البضائع الاستهلاكية الكمالية، فمن السهل أن نلمس في واقعنا الاجتماعي منحىً خطيراً يدفع الفقير والغني على حدٍ سواء إلى الإقبال المتنامي على السلع غير الضرورية والاهتمام بالمواد الاستهلاكية الغذائية الجاهزة والمعلّبة، وهذا ما يرفع متوسط الإنفاق الفردي إلى حدٍ كبير لا يواكبه على الإطلاق مستوى الدخل الشهري، مما يرتّب أعباءً إضافية ثقيلة، ويخل بالتوازن الإقتصادي للأسرة والفرد.

○ أسباب نُشوء ثقافة الاستهلاك:

١ ـ السياسات التسويقية التي تعتمدها الشركات المنتجة والمسوّقة، والتي تتبع أسلوباً يقوم على أساس إقناع الناس بالحاجة إلى السلعة، بعد أن كانت سياسات التسويق في السابق تقوم على أساس إقناع المشتري بأفضلية هذا المنتج عن المنتجات المنافسة.

٢ ـ الكمّ الهائل من الدعايات والإعلانات التجارية التي تغرق المجتمع والتي باتت تصطدم بها أعين الأطفال والنساء حيثما ذهبوا في الشوارع

وعلى شاشات التلفزة وفي جميع المطبوعات، والإنترنت والهواتف وغيرها، بل ربما تحوّلت بعض المطبوعات والشاشات إلى منبر إعلاني يتخلّله بعض البرامج الأخرى، وليس العكس، إضافة إلى التفنّن في تقديم السلعة وعرضها بطريقة مغرية.

٣ ـ التسهيلات الشرائية التي تُغري بالاستهلاك، فلم يعد المثل القائل «أنفق ما في الجيب يأتِ ما في الغيب» سائداً، بل بات السائد اليوم أنفق ما في الغيب أيضاً، فتعمد كبريات الشركات والمؤسسات التجارية إلى سياسة التقسيط لجذب الزبائن، البنوك بدورها تقدّم للعاملين الذين يوطّنون رواتبهم لديها القروض والتسهيلات الشرائية، بحيث يُمكن أخذ الرواتب عن الأشهر القادمة مسبقاً لصرفها والتخلص منها، دون أن يفكر كيف يعيش لاحقاً.

٤ ـ التسابق المجنون بين الناس ـ وربما كان نتيجة ما تقدّم ـ على شراء الملابس والسيارات والأجهزة وقطع الأثاث واستبدالها باستمرار، فتحولت المنازل إلى صالات عرض والنساء إلى عارضات أزياء، تخجل إحداهنّ أن تلبس اليوم ما كانت تلبس بالأمس، ويُعاب عليها أن ترتدي في مناسبتين نفس الملابس، ولذا تجد ازدهاراً غريباً في محلات تسويق الملابس النسائية.

٥ ـ تحوّلت الكثير من الكماليات غير الضرورية إلى ضروريات ملحّة في العُرف الاجتماعي، مع أنّه مجرد وهم، مثلاً بات يعتبر عدم امتلاك هاتف محمول منقصة، الكثيرون يحملون الهاتف لمجرّد الاستجابة لهذا العرف، ولأنّه بات ينزعج من كثرة ما يقال له «هل يوجد أحد من دون خليوي»، ويتم استبدال جهاز الهاتف لمجرد أنّه أصبح قديماً، يعني طراز ما قبل ثلاث أو أربع سنوات، وتأتي الاتصالات لاحقاً لكي لا يبقى الهاتف بلا استعمال، اليوم تنفق العائلة على الاتصالات مبالغ طائلة الكثير منها ليس له داعي، (هاتف ثابت، هاتف خليوي عند الزوج، وآخر عند الزوجة، وواحد عند كل

فرد من أفراد العائلة حتى الأطفال في المدارس). فبين فاتورة الهاتف وثمن بطاقات التشريج وتبديل الأجهزة يتبين بأنّ هذه الفقرة تستهلك أحياناً نسبة عالية من الراتب الشهري، ربما هذا المبلغ يكفي عائلة مستضعفة.

٦ ـ لا داعي للكلام عن الطعام الجاهز (دلفري)، والسيارات والنزهات الأسبوعية، وما يتم إحضاره من مشتريات للعصرونية أو للسهرة يعادل أحياناً مصروف عائلة وهو من محض الكماليات.

٧ ـ الإنفاق الجنوني على الاستشفاء، ففي لبنان لا أبالغ إذا قلت أنّ أكثر من نصف ما يتم إنفاقه على العلاج هو غير ضروري، وفي هذا المجال يساهم في تحمّل المسؤولية عن ذلك كلّ من الأسرة والأطباء والمستشفيات وشركات توزيع الأدوية، ويتخلّى الإعلام عن دور المسؤول في توعية الناس.

○ تغيير الثقافة والحدّ من نموّ الظاهرة:

لا أقول أنّه بالإمكان اليوم العودة بسهولة إلى عالم البساطة، ولا أطلب من الناس التخلي عن وسائل الراحة، ولكن الأمور تجاوزت الحدود، فإنّ من مظاهر هذه الثقافة انتشار الفساد في كل المجالات (الإدارة والتجارة والعمل والأسرة و...)، فنحن نعقّد الحياة أمام الجيل الصاعد الذي لن يتمكن من الزواج وتكوين أسرة مستقرة بسهولة، هذه الثقافة رفعت من معدل سن الزواج حتى بات المتوسط هو ثلاثون عاماً عند الذكور، وجعلت هذه الثقافة الفتاة لا تقبل بالارتباط بعريس إلا إذا كان من النوع الذي يستطيع تلبية هذا المستوى من المعيشة والمتطلبات.

هذه الثقافة تدفع الناس نحو البحث عن أساليب الربح السريع بدون ضوابط أخلاقية، وتدفع المجتمع للتخلي عن قيم واقعية كثيرة. هذه الثقافة

تدفع نحو الجريمة والكذب والاحتيال والسرقة والغش وغير ذلك مما هو قائم حالياً.

لذا، يجب على الجميع أن يدركوا خطورة الواقع وأن يعملوا على تغييره بدءاً من النفس وليس بدءاً من الغير.

لماذا لا تقوم الجهات الرسمية بوضع معايير دقيقة وضوابط مدروسة للحدّ من انتشار ظاهرة الإعلان التجاري ومحتواه وأهدافه، لماذا تسمح بالكذب الإعلاني، لماذا تسمح بخدش الحياء، لماذا باتت الشوارع والأتوسترادات تحجب عنا رؤية البحر والطبيعة وتجبرنا على قراءة البانوهات التي تحاصرنا من كل الجهات، لماذا يسمح بإقحام الإعلانات التسويقية في الهواتف الخليوية فتأتي إلينا رغماً عنا؟!.

لماذا لا تقوم الجهات التربوية والثقافية بدورها في زرع قيم البساطة في العيش والتواضع ونبذ التفاخر والابتعاد عن الإسراف والتبذير، ولماذا لا نعود إلى ممارسة «على قدر بساطك مدّد رجليك»؟!.

الأسرة هي الضحية الأولى لثقافة الاستهلاك، فيجب وضع برامج خاصة لشبابنا وفتياتنا الذين هم في سن الزواج لإقناعهم بأهمية التخلي عن المظاهر الترفيّة والعودة إلى البساطة من أجلهم ولمصلحتهم، على أن تكون هذه البرامج موجودة في المدارس والمساجد والمراكز الثقافية، ولا مانع من مشاركة البلديات فيها.

أخيراً، ورد في الحديث الشريف: «ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر».

وفي حديث آخر: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبّر خفضه الله، ومن اقتصد في معيشته رزقه الله، ومن بذّر حرمه الله ومن أكثر من ذكر الموت أحبه الله».

■ ■ ■

الإسلام
وثقافة الحياة

ثقافة الحياة

○ ما هي الحياة؟!

سؤال قد يبدو مستغرباً بعض الشيء، فكل واحد من البشر يعيش الحياة ويتلمّسها في وجوده وخفقان قلبه وحركة جوارحه.. أو ما يعبّر عنه علماء المنطق بالعلم الحُضوري.. إلا أنّ الكلام عن جوهر الحياة.. الحياة التي لها فلسفة وجود، ولها غاية وهدف..

لم يُخلَق الإنسان ليمضي أيام حياته في الأكل والنوم والملذات ثم فجأة ينتهي المشهد وتنطفئ شعلة الحياة وينتهي كل شيء وكأنّ شيئاً لم يكن..

لم يُخلق الإنسان ليحيى هكذا كما البهائم ويموت كما تموت.. بل لابدّ من فهم معنى الحياة وإدراك مغزاها لكي نتمكّن من التعامل معها واستثمارها وفق ذلك المعنى.

فبداية الطريق ـ إذن ـ أن نعرف الغاية، ونعرف: من أين؟ وإلى أين؟ وكيف؟ فليس من العبث ولا من الصدفة أن يميّز الخالق الإنسان بالعقل والادراك والقدرة على التفكير والتأمّل والفهم.. فهذه الأمور هي التي تعطي الحياة قيمتها الواقعية، وهي التي تفتح الباب أمام الإنسان إلى حياة لا يشوبها الموت ولا يعتريها على الاطلاق.. ومَن مِن البشر لا يحب الحياة ولا يكره الموت، خاصة إذا كانت حياةً لا موت فيها؟! إلا أن القضية في فهمنا لمعنى الحياة ومعنى الموت..

وعلى ضوء ما يحدّده معنى الحياة يُمكن لنا أن نرسم معالمها ومسارها، ونحدد موقفنا من العلم والمعرفة والقيم التي تحكم المسار والاتجاهات والمواقف والأولويات والخيارات...

الحياة التي تتحدّد عل ضوء الإيمان بمعناه الواسع والدقيق ذات قيمة خاصة لا تضاهى، لها ديمومية واستمرار.. ولها موقع سامٍ وسعادة مطلوبة، فإذا تهدّدها خطر داهم يستهدف تفريغها من معناها ومضمونها وجب الدفاع عنها وحماية ساحتها وحفظ سلامتها، وما يتم التضحية به أحياناً عندما يفرض علينا ذلك الجود بالنفس ليس تضحية بالحياة وإنّما هو تضحية من أجل الحياة التي لاتفوت بالشهادة ولا تنقطع بالموت:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

هذه هي ثقافة الحياة التي حددها القرآن الكريم، والتي يتحدّث عنها علي عليه السلام مع أصحابه عندما رأى فيهم تباطؤاً عن مواجهة العدوّ المتربص بهم فقال: «... فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِين...».

ولكن البعض قد يلتبس عليه الأمر كما حصل في فهم كلام أبي ذرّ رضوان الله عليه: فَعَنْ شُعَيْبٍ الْعَقَرْقُوفِيِّ قَالَ قُلْتُ لأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: شَيْءٌ يُرْوَى عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ثَلاثٌ يُبْغِضُهَا النَّاسُ وَأَنَا أُحِبُّهَا أُحِبُّ الْمَوْتَ وَأُحِبُّ الْفَقْرَ وَأُحِبُّ الْبَلاءَ. فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا لَيْسَ عَلَى مَا يَرْوُونَ، إِنَّمَا عَنَى الْمَوْتُ فِي طَاعَةِ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْحَيَاةِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ وَالْبَلاءُ فِي طَاعَةِ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الصِّحَّةِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ وَالْفَقْرُ فِي طَاعَةِ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْغِنَى فِي مَعْصِيَةِ اللهِ».

نعم يجب أن نُربي أبناءنا على ثقافة الحياة.. حياة الإيمان والعلم والتقوى.. حياة العزّ والكرامة والشرف.. حياة الطُّهر والنقاء والصفاء.. الحياة الدائمة والمستمرة التي لاتنقطع بالموت ولا يعتريها الفناء..

■ ■ ■

دور الثّقافة في بناء المُجتمع

الثقافة في اللغة معناها الحذق والفهم، ولكنها اليوم أصبحت مصطلحاً يعبر عن النسيج الذي يجمع بين العلوم والمعارف والآداب والقيم والعادات والتقاليد. وهي بهذا المعنى تُشكل أبرز ما تتمايز به الأمم والشعوب.

وعليه، فإن الثقافة لها مرتكزات تقوم عليها، ونبع تستقي منه، فتأخذ معالمها وملامحها. والثقافة الإسلامية بلا ريب تستقي من نبع الإسلام الصافي ومن قرآنه العظيم الذي يرسم للبشرية طريق الهداية والسعادة وينير لهم درب الكمال. فهو معدن الحكمة والعلم والموعظة والقيم والأخلاق والنظم الشرعية.. وهذا ما يجعل الثقافة الإسلامية منسجمة مع الفطرة وأهداف الخلقة ومتناسق مع النظام الكوني.

○ المعالم الأساسية للثقافة الإسلامية

أولاً: الثقافة الإسلامية ثقافة توحيدية إلهية تقوم على قاعدة الإيمان بالمبدأ، أي الإيمان بالله إلهاً واحداً أحداً صمداً حياً قيوماً، هو مبدأ الوجود وبيده ملكوت كل شيء.

ثانياً: هي ثقافة شاملة تنظر إلى الإنسان بكل أفراده، لا تميز بين الأجناس البشرية، ولا تفرق بين عنصر وآخر، ولا تهتم بجيل دون آخر ولا بأهل لغة دون غيرهم «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى».

ثالثاً: هي ثقافة تغييرية حركية ليست جامدة ولا مُتقوقعة، تنطلق من قاعدة المسؤولية «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»، بل مسؤولية الإنسان عن مشروع خلافة الله في الأرض. ومن كون الإنسان عبداً لله، والعبد يتحرك في دائرة الطاعة المطلقة لمولاه وسيده ولا يتصرف إلا بإذنه وبإرادته.

رابعاً: هي ثقافة تتجه نحو الكمال، تدفع الإنسان باتجاه التكامل والتسامي، والتزكية المستمرة «من تساوى يوماه فهو مغبون» فهي تفرض على الإنسان العمل ليكون يومه خيراً من أمسه، وغده أفضل من يومه، ليصل إلى الكمال والسعادة.

خامساً: هي ثقافة اجتماعية، قادرة على بناء الحياة الاجتماعية والإنفتاح على كل أفراد البشر، «الإنسان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق». فهي لا تعجز عن استيعاب كل الناس ومخاطبة كل البشر على اختلاف أديانهم وأفكارهم ومذاهبهم وانتماءاتهم، دون أن تذوب في الثقافات الأخرى أو تعجز عن التعايش مع أصحابها.

إذن فالثقافة التوحيدية التي تقوم على بناء فكري وعقائدي محكم، ومتوافق مع الفطرة ومع الخلق وأسبابه ودواعيه وأهدافه وغاياته هي ثقافة أقدر على بناء المجتمع السليم، والمعافى، والقوي، والمتماسك.

ومن المُمكن الجزم بأن مستقبل الأمة والصورة التي سيكون عليها المجتمع ترتبط ارتباطاً مباشراً بمقدار استفادته من رصيد تراثه العلمي والفني والثقافي، وبمقدار امتلاكه للثقافة الأصيلة.

وما نشاهده اليوم من تصدع في بنيان بعض المجتمعات الإسلامية، وانعدام للحضور الفاعل والمغيّر، وحالة الإنهزام أمام الهيمنة الخارجية،

إنما تعود إلى انفصال هذه المجتمعات عن الثقافة الإسلامية الأصيلة وانقطاعها عن جذورها التاريخية المتينة وإهمالها لرصيدها الهائل الثمين من الفكر والمعرفة والآداب والقيم، واستعاضتها عن ذلك بسراب الثقافات العقيمة والهجينة، وانخداعها بنتاجات المدنية الحديثة التي يتوهم الكثيرون أن الحصول عليها يتوقف على التبعية الثقافية والفكرية لصايغها ومنتجيها.

* دور الثقافة في البناء الفكري والعقائدي من خلال ربط الإنسان بالمبدأ من الثابت أن منظومة القيم، والحكام السلوكية لكل إنسان تقوم على احد أساسين:

الأول: العادات والتقاليد المُكتسبة من البيئة التي يعيش فيها الإنسان في مراحل نموه الأولى، والتي يمارسها فيما بعد انطلاقاً من الاعتياد دون كثير تأمل في جدواها والغاية منها. وإن كانت هذه العادات والتقاليد تخضع في أحيان كثيرة في بدايات نشوئها وتكونها للأساس الثاني الآتي.

الثاني: الأساس النظري والرؤية الكونية، أو فلسفة المبدأ والمعاد الذي يعطي لحركة الإنسان في الحياة بعداً جديداً فيربطها بالغاية التي من أجلها خلق الإنسان وبفلسفة المبدأ وأصل الخلق.

وعلى ضوء هذه الرؤية النظرية يصبح بالإمكان تحديد السلوك العلمي المنسجم مع هذه الرؤية، والموقف من كل ما يواجهه الإنسان من أمور في حياته، فعلى ضوء هذه الرؤية النظرية يحدد موقف من غرائزه وشهواته، ويحدد تصرفاته تجاه بني جنسه وتجاه المخلوقات التي تشاركه الحياة أو الوجود. على ضوء هذه الرؤية يتم اختيار النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وعلى هذا الأساس يحارب ويسالم ويأخذ ويعطي ويتصرف.

فليس هناك مواقف مجردة، بل هي دائماً تنطلق من الأساس النظري فإذا

كان الأساس النظري لا يؤمن بالمبدأ ولا بالمعاد فسوف يختلف في النتائج المترتبة عليه ويأتي مغايراً تماماً لما تقدم، لأن الإنسان عندئذ لن يجد نفسه ملزماً بالتخلي عن رغباته ومصالحه المادية والدنيوية، وهكذا أيضاً من لا يؤمن بالحياة الآخروية فإنه لن يعتبر كماله الذي يسعى للوصول إليه متجسداً في تلك الحياة، ولن يعتبر مصيره مرتبطاً بها، مما ينعكس بلا شك على طريقة تعامله مع الحياة الدنيا، ومع النظام والشريعة والقيم بما يتناسب مع تلك الرؤية.

○ دور الثقافة في تنمية القدرات والمهارات الفكرية والعلمية:

الإنسان مخلوق عجيب يفتح عينيه على الدنيا بمجموعة من القابليات والاستعدادات القابلة للنمو والتفعيل، ليجد نفسه بعد مُضي حقبة زمنية في حالة تنكر الضعف ولا تعترف بالوهن، الإسلام كدين للفطرة يحث الإنسان على تنمية قدراته ومهاراته وتقوية استعداداته بما يتوافق مع الغاية التي يراد له الوصول إليها والكمال الذي يراد له أن يبلغه باختيار وارادته.

فالإسلام يحث على العلم والمعرفة، يقول رسول الله ﷺ فيما يروى عنه:

«تعلموا العلم فإن تعلمه لله حسنة، ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد وطلبه عبادة وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قربة».

وقال ﷺ: «أربعة تلزم كل ذي حجى وعقل من أمتي: استماع العلم وحفظه ونشره والعمل به».

لا نجد أحداً من العقلاء يرفض هذه الحقيقة ولا يجد في العلم كماله، إلا أنّ المهمّ هو نوع العلم الذي يُطلب، والغاية المراد تحقيقها من وراء طلبه، وهنا يُمكن العودة إلى الثقافة والأسس النظرية لها، وهو ما يدفع

لتحديد ذلك، وفي الحديث الشريف المتقدم إشارة إلى الهدف من وراء العلم حيث قال ﷺ:

«فإنّ تعلمه لله حسنة».

والذي يجعل العلم لله كونه في سبيل خدمة الناس لأن الناس هم عيال الله وخدمة عيال الله يحبها الله ويحث عليها.

والإسلام يحث أيضاً على العمل، ويعتبر أن العلم الذي يوصل إلى العمل، والذي لا يتبعه عمل، حالة مؤقتة زائلة:

«العلم يدعو للعمل فإن أجاب وإلّا ارتحل».

وباب العمل واسع ومجالاته مختلفة ومتنوعة، وقيمة العمل في الإخلاص وقد أشار الإمام الخميني الراحل في بعض خُطبه إلى هذه الحقيقة بقوله:

«الإيمان والإخلاص جناحان يحلق بهما الإنسان في مدارج الرقي».

كما أن العمل الفاعل، والمؤثر، يحتاج إلى العلم والبصيرة والتجربة والخبرة وتوفير المهارات اللازمة. وكل هذه الأمور التي يتوقف عليها العمل تشكل مقدمات ضرورية تأخذ أهميتها من العمل نفسه، وإذا كان العمل طاعة لله فكل المقدمات هي طاعة لأن التحضير للعمل الصالح هو عمل صالح أيضاً ومقدمات العبادة يُمكن أن تصبح عبادة أيضاً.

وأهم ما في هذه المقدمات البصيرة «فالعامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلا بعداً».

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

من هنا كان من الضروري تنمية القدرات والمهارات الفكرية والعملية لتحقيق الأهداف.

○ صياغة الشخصية الفردية والاجتماعية الملتزمة والهادفة.

ومن المهام الثقافية رسم معالم الشخصية على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع، وهدف الثقافة الإسلامية الوصول إلى «فرد مسؤول» يتحمل مسؤوليته بوعي وبجدية ومسؤولية الإنسان بالنظرة الواقعية للمسؤولية تتفرغ لعدة شعب، تشمل مسؤولية تجاه نفسه وتجاه أسرته وتجاه مجتمعه وتجاه دينه ودنياه وآخرته...

المسؤولية التي نعني هنا هي الحقوق والواجبات والتكاليف التي على الإنسان أن يقوم بها، والتي تكبر كلما كبرت الإمكانيات وتوفرت الطاقات وتصغر عندما تضيق دائرتها؟ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

دائرة المسؤولية بحجم العالم عندما يكون الإنسان باسطاً سلطانه على العالم وبحجم البلد عندما تكون قدراته وسلطانه على مستوى البلد، وفي دائرة أضيق عندما تصبح إمكاناته وسلطاته محدودة حتى تصل إلى حدود الأسرة والفرد.

«اتقوا الله في عباده وبلاده إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم وأطيعوا الله ولا تعصوه».

ومن خلال تربية الإنسان المسؤول يُمكن الوصول إلى مجتمع مسؤول، مجتمع هادف، متكافل، متعاون، عزيز، متماسك، ينظر الله تعالى إليه بعين الرحمة والرضا فيفيض عليه من بركاته.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

عندما تكون التقوى حالة اجتماعية وظاهرة عامة تتحقق غاية الخلق وأهداف الرسالات، ولهذه الظاهرة من الآثار الحتمية واللوازم القطعية ما غفل عنه البشر، ولا نزال نقرأ ما وعد الله تعالى به في القرآن الكريم دون أن نحاول تجسيد الآيات عملياً. وهنا أمران لا بد من الإلفات إليهما:

الأمر الأول: أن المسؤولية متفرعة عن الخلافة وخلافة الإنسان في الأرض مما نص عليه القرآن وأشار إليه في أكثر من موضع:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وعملية الاستخلاف في رؤية الإسلام، تحميل للأمانة، والمسؤولية، وليست تشريفاً، وإنعاماً فحسب كما نتوهم أحياناً.

فإن معنى الاستخلاف يقتضي ذلك، ويفرض أن يتصرف الخليفة المُستخلف وفق ما يستلزمه تحمل الأمانة واداؤها، ووفق ما يُريده المولى المستخلف ويأمر به، ووفق ما يحتاجه المستخلف فيه. فعندما جعل الله تعالى الإنسان خليفة فهذا يقتضي أن يعمل الإنسان على إعمار الأرض والتصرف فيها على حسب ما أمر به الله وأذن به، وإلا كان الخليفة خائباً.

وكل النعم الإلهية التي تتولى علينا من هذا القبيل.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

ولذا كان من صفات الفاسقين: الإفساد في الأرض، يعني العمل على خلاف مقتضى الاستخلاف:

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ

وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦ ـ ٢٧].

وعليه، فإن كل إنسان في هذا الوجود مسؤول لأنه مستخلف ـ على اختلاف سعة دائرة الاستخلاف ـ ومقتضى المسؤولية أن يعمل الإنسان على بصيرة من أمره وضمن الحدود التي رسمتها له الشريعة الإلهية والرسالات السماوية، ليبتعد عن الخيانة والظلم والإفساد في الأرض.

والأمر الثاني: هذه المسؤولية لا مفر منها لأنها بالتالي ترافق وجود الإنسان وتتفرع لكل ما يرتبط به من كائنات وموجودات بل تتعداها إلى النفس والذات.

وهنا يأتي دور الثقافة التي بإمكانها أن تدل الإنسان على كيفية أداء الأمانة وتسهل عليه القيام بها، بل تدربه وتربيه حتى تصبح ملكة لديه لا تكلّف فيها.

فالنعم الإلهية التي تعد ولا تحصى من موجباتها أن يشكرها الإنسان وأن يؤدي حقها، سواء كانت هذه النعم مالاً يكسبه، أو رزقاً يطعمه، أو مأوى يأوي إليه ويسكنه، أو أبناءً هم زينة الحياة الدنيا، أو ما نجده من حولنا في الطبيعة، من شجر وحجر وماء وطير ودابة..إلخ.

وإذا كان المسلمون قد تخلوا عن مسؤولياتهم تجاه هذه النعم وهذه الأشياء فلا يعني ذلك أن الإسلام لم يأمر بأداء حقها وتحمل المسؤولية تجاهها.

فالشريعة حرّمت الإسراف والتبذير ولو كان في مالٍ حلال ملكه الإنسان بطرقه الشرعية، فكيف بالأموال والنعم التي يملكها أو التي يشترك مع غيره من بني البشر فيها.

وهذه بعض النصوص التي تشكل نماذج من الحدود الشرعية في التعامل مع الطبيعة بكل ما فيها:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١ - ٣٢].

﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٢٧].

ومن الجدير بالتذكير أن الإسراف والتبذير إذا تجاوز حداً معيناً عُدّ سفهاً وأوجب حجراً في الإسلام، فترفع يد المالك عن التصرف بملكه، وتسقط سلطته عليه.

«من نصب شجرة وصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر كان له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله».

«من أحيا أرضاً ميتة فله فيها أجر، وما أكلت العافية منها فهو له صدقة».

«ازرعوا واغرسوا فلا والله ما عمل الناس عملاً أحلّ ولا أطيب منه»

«من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة وله صراخ حول العرش يقول رب سل هذا فيم قتلني من غير منفعة».

ولعل تحريم الصيد مطلقاً في الحرم وللمُحرم في الحرم وغيره تدريب على التقرب إلى الله تعالى بترك الصيد لما فيه تعويد على المسالمة مع الطيور والسباع ما لم تكن تؤذيه.

«إنّ امرأة عُذّبت في هرةٍ ربطتها حتى ماتت عطشاً».

«إن رسول الله ﷺ نهى عن قطع الشجر المُثمر أو إحراقه، يعني في دار الحرب وغيرها إلا أن يكون ذلك من الصلاح للمسلمين».

وقد ورد أن الاحتراز عن قطع الأشجار الرطبة مما يُطيل في العمر.

وما ورد في تلويث الماء بالنجاسات وغيرها كثير، وكذلك في مسائل النظافة والتجمل والتطيب والتزين مما لا يحصى كثرة.

كل ذلك يأتي ليكشف عن التفاصيل التي يجمعها عنوان واحد كبير هو البناء والإعمار وثقافة الإنتاج وصناعة الجمال، فالخالق جميل والكون الذي خلقه آية في الجمال ودقيق الصنع، متكامل مترابط يخدم بعضه بعضاً ويكمل بعضه بعض ليشكل لوحة الوجود الكبرى فهل يرضى أو يأذن بأن يعمل الإنسان فيها فساداً وعبثاً؟! ليس لعاقل أن يتوهَّم ذلك.

■ ■ ■

صدر للعلامة الراحل

الشيخ مصطفى قصير العاملي (قده)

١ ـ الأعياد الإسلامية مواسم عبادية.

٢ ـ البداء والنسخ: حقيقتهما وموقف الشيعة منهما.

٣ ـ الشورى والبيعة ودورهما في انعقاد الأمامة الكبرى.

٤ ـ المهدي المنتظر(عج) بقية الله الأعظم.

٥ ـ التقية عند أهل البيت عليهم السلام.

٦ ـ ولاية الفقيه في عصر الغيبة.

٧ ـ الإمامة في حديث الثقلين.

٨ ـ الشفاعة حقيقيتها، شروطها، آثارها.

٩ ـ القضاء والقدر وأفعال الإنسان الاختيارية.

١٠ ـ الوجيز في علوم القرآن.

١١ ـ كتابُ عليّ عليه السلام.

المحتويات





لقد استطاع الشيخ مصطفى قصير (رحمه الله) أن يُثَمّر مكتسباته العلميّة والثقافيّة وخبرته العمليّة في ميدان التربية، وذلك في تجربة أحوج ما نكون إليها في عمليّة تأصيلٍ تربويٍّ وفق المنظور الإسلاميّ، وهذا ما سعى جاهدًا لتحقيقه، فالتربية المعهودة وإن كانت فعلًا تراكميًّا إنسانيًّا متنوّعًا، إلّا أنّها حصيلة لنظريّات ورؤًى وفدت إلينا، قد توافقت في بعضها مع دفائن مخزون إرثنا الإسلاميّ الأصيل الذي ما انفكّ يستصرخ كلّ بحّاثة ومربٍّ لكشف مستوره وبيان مجهوله.

وفي هذا الكتاب فيض من غيض تجربته العملية ونتاجه الفكري والتربوي.

مركز الأبحاث والدراسات التربوية

لبنان - بيروت - هاتف : ٩٦١٣١٠٧٠٥٨+ - ٩٦١٥٤٧٢١٣٩+

email:info@esrc.org.lb www.esrc.org.lb



للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

هاتف : 5 / 334 544 9611+ - فاكس : 787 546 9611+ - ص-ب : 25/ 16 الغبيري

E-mail: dar_albalagha@hotmail.com

